د. ديدار فوزى روسانو



... رسائل إلى حبايبى ...

الكتاب الثانى

مصر

دار العالم الثالث

ترجمة : د . مراد خلاف

واوروبا) , و" الان جريش" عن الموند ديبلوماتيك... وآخرين وانعقد هذا الاجتماع في نوفمبر ١٩٩٨ بمناسبة الذكرى العشرين لاغتيال هنري كورييل . وفي موازاة ذلك نشرت مذكراتي في سلسلة من النصوص المتفرقة غطت حياة وخبرة معاشة قد تحمل أو لا تحمل معنى ... تراكمت منذ اغتيال صديقي ورفيق النضال هنري كورييل , تم تنسيقها للعرض في مجلد يحمل اسم (رسائل إلي حبايبي) .

تناولت الترجمة العربية لكتابي الأول بعنوان (ذكرياتي) بعض الأحداث التي مرت بها الجزائر وفلسطين.

وترددت كثيراً قبل موافقتي على نقل هذا الجزء الخاص بحياتي ونشاطي في مصر إلى العربية. سببان حالا دون قبولي هذه الترجمة في بادئ الأمر: أولاً الطابع الشخصي جداً لما قمت بسرده ...

ثم قد يكون قرار الاعتكاف الذي اتخذته في مدينة جميلة في أيسلندا ... ولو أنها ليست مثل باريس ... هو ما دفعني إلى الحنين للعودة إلى عالم مضى وولى.

وتتألف مصادر النص الأصلي من مقتطفات نصوص كتبت وأرخت في لحظات وأزمنة مختلفة نشرت في كتاب بالفرنسية عام ١٩٩٧ وتمثل المادة الأساسية لهذا الكتاب الثاني.

كما أردت أن تتخلل هذه المادة بعض الأفكار المستندة إلى خبرة نابعة من حياة مليئة بالأحداث وعمر طويل غير عادي ...! حيث ولدت عام ١٩٢١.

ولكي نستطيع متابعة الأحداث تظهر هذه الوقفات في النص الأصلي مع اختياري حروف بارزة باللون الأسود الذي استخدم في فصل التوطئه وفي خاتمة الكتاب. فقد يمكنني ذلك مستقبلا ... إن توفر الوقت والطاقة أن أجري بحوثا جديدة ... مثلاً حول أصل ومنبع أسرتي.

وكان اللقاء الذي تم مع زوج غير عادي من أفراد الطائفة اليهودية القديمة في مصر هو الذي فتح الباب على مصراعيه, وتدفقت ذكريات تناولت (شجرة لأسرة) لجدتي عن أمي ... تؤكد أحداث هذه الذكريات صلة النسب مع أسرة قطاوي التي حطت رحالها عام ١٦٨٩ في قرية صغيرة مجاورة للقاهرة تعرف باسم قطا. ولا أستطيع حتى الآن أن أحدد موقعها على وجه الدقة. كما أنهما أجبراني مرة أخرى على التفكير في هنري ... هذا الإنسان السخي الذي نجح في أن يلقي عن عاتقه بعيدا جميع العقائد والأفكار الجامدة حتى يعمل وينشط في إطار ما يعتبر أساسي ودون أن يقطع صلته بالواقع.

المعسكر المعروف باسم(حلف الدفاع المشترك عن العالم الحر، أو حلف بغداد) الذي نجح بصورة كبيرة في تغريب شعوب المنطقة. وكان الأمر سهلاً: لم يعرف الشعب المصري الإمبريالية إلا في ثوبها الغربي، ولم يتعرض لتهديد من الاتحاد السوفيتي، ولا من روسيا ...

روما ٢٩ ديسمبر ١٩٧٩

سرت بمفردي لمسافة طويلة في غابة كثيفة من أشجار القسطل، والبلوط الخضراء المحيطة بالعيادة في "نيمي"، ووصلت شاطئ البحيرة الموجود أسفل الدرب. شاهدت سيدة عجوز تتنزه مع كلبها... لا تطلب شيئاً إلا الحديث، وقطعت معي بعض الطريق.

ما معنى العمر للوسي درمولا ؟... امرأة حقيقية، كما وصفتها هيلين جيداً. حضرنا الأمسية الرومانية على شرفها: كانت قد أصيبت بالشلل الكامل، وبدت لي كأنها لم تتجاوز ٥٥ عاماً وكلها حيوية ... كأنها تلك الفتاة ذات السابعة عشر ربيعاً التي حاولت استمالتها، وأقامت جداراً حول معبودتها. خضعت لوسي درمولا للإطراء، وتحدثت، وشرحت، دون أي بادرة تنم على الملل أو المضايقة، تجيب على الأسئلة. ابنة كادر فاشيستي. تطوعت للعمل في أحد معسكرات العمل في ألمانيا، وبعد أن أدركت حقيقة ما يجري داخل النظام الذي كانت تدافع عنه، نجحت في الهرب، وتزوجت، وفشلت في زواجها، واختارت الكتابة، والآن تتسلم جائزة. ابنها يعمل في ميدان السمعيات والبصريات ولكن لوسي درمولا لا تتقمص أي دور من الأدوار... منتبهة لمن حولها، وجهت إلينا وابل من الأسئلة المحددة ... حول هروبنا من السجن (هيلين وأنا) وتصوراتنا ودوافعنا. واختفت صورة بقية الحاضرين إما تحت رداء امرأة، تقف بصلابة كالفلاحة، وتزعم أنها من رعيل الثائرات الأوائل في إيطاليا، ومضيافة، ونحيفة... ترتدي في هذه الأمسية الغريبة مثل جميع المدعوين الآخرين، الفراء الصناعي البرتقالي ... (كما اعتادت التزين به المسكوفيات في أمسيات البولشوي) ... تلال من المكرونة المعدة في الفرن، والشوكلاتة الباردة، تملأ بها الأطباق بانتظام، وأسماك، ونباتات معروضة خلف ألواح من الزجاج على طول سير متحرك لا يتوقف عن الدوران، ينطلق من المدخل حتى قاعة الاستقبال.أمسية كأنها رسمت بريشة الفنان فيلليني. كيف أعود بعد كل ذلك إلى عملي العادي؟

الأحد ٣٠ ديسمبر

حدثتني هيلين عن فكرة انتحار فيرجينيا وولف. قد أتفهم السبب في ولادة مثل هذه الفكرة وذلك في حالة وجود مرض عضال أو خطر حدوث عته، أو إذا أخضع المرء للتعذيب... باختصار، في حالة وجود سبب منطقي..! ولذا لم أفهم نظرية الانتحار الجماعي التي فكرت فيها مجموعة فيرجينيا وولف في حالة غزو النازي لإنجلترا (تتحدث عن ذلك في مذكراتها قبل الوفاة). كان بوسع المجموعة أن تعد نفسها للفرار لمواصلة المقاومة في مكان آخر، وبأسلوب مغاير، أو تحمل كل المخاطر، وتنظيم المقاومة في الداخل. وأستطيع أن أفهم بصورة أفضل قرارها عندما خططت للانتحار(الآن ... في ذلك الحين!) وهو الاستفادة من صفاء ذهنها، عندما خططت للانتحار. ورغم بلوغي الستين من العمر... (إلا أني أعتقد أن الوقت ما زال مبكراً)، ونؤكد أننا لن نقف مكتوفي الأيدي بلا حراك لو واجهتنا هذه الحالة...أما ما عدا ذلك فنتركه للمقربين منها للبت في قضية مرجعها يعود أصلا إلى اكتئابها المرضي.

ولكن مزاجي معكر... يقلقني غياب ميشيل[٩٦].

الاثنين ٣١ ديسمبر

ترتدي روما يوم الأحد رداؤها الحقيقي كمدينة الفن المعماري. ويمكن السير في الشتاء بخطى سريعة في فضاء مبنى الكوليزيه، وفي اتجاه ينابيع كاراكلا، دون الشعور بالحر. أرتدي بلوفر عجيب (يشبه إلى حد ما البلوفر الذي ارتديته أثناء فراري من السجن)، خفيف إلى درجة عجيبة. ارتشفت بشغف فنجان القهوة الكبير بحليب لونه داكن (مثل القهوة التي كان يقدمها لنا في الفجر أصحاب المقاهي اليونانيين في الاسكندرية).

وا حسرتاه كان صيف عام ١٩٥١ شديد الحرارة ... تقابلت مع هنري مرة أخرى في روما بعد نفيه الإجباري من مصر. وصلت أوروبا لأول مرة (مع ابنتّاي)، وكما هي عادة المصريين المسافرين منذ القرن الثامن عشر، هبطنا من السفينة في مرسيليا، بعد إقلاعها من الاسكندرية. وبعد مرور أسبوعين، وبمرافقة روثي التي انضمت إلينا في فيلار الواقعة في سلسلة الجبال السويسرية، سافرنا إلى ميلانو لمقابلة دافيد نعوم (ذكريات عن جزر بورومي، وأعطال في الطريق، و(أوتو ستوب) على الطرق السريعة الإيطالية الرائعة... نسبة إلى ذلك الوقت). انتظرنا هنري في روما. ورافقته أخت دافيد

---

96 ابنة هيلين، مخلوقة عجيبة كلها لطف اشتركت معنا في هذه العطلة.

الصغيرة كزميلة سكرتيرة أثناء وجوده في روما ... لا يكل: دليل ذلك الآثار الموجودة على يديه، وكان يسرع الخطى في الأزقة، والحدائق منتعلا حذائه المصنوع من المطاط الاصطناعي (الكريب) الأبدي!!، ونشعر بثقل الحركة في هذا الصيف الروماني الشديدة الحرارة مما اضطرنا بالرغم من الصنادل المصرية التي كنا نرتديها أنا وروثي أن نرطب أقدامنا المنتفخة في مياه النافورات والينابيع. ولم أعجب كثيرا بالزيارات التي صاحبها وصف دقيق لمباني الكنائس مثل كنيسة سانت- ماري ماجور وكنيسة سان- جان دى لاتاران (أميل أكثر إلى التأثر بالفضاء الداخلي في جوامع المرابطين في الأندلس، وفي الأديرة القبطية التي يعود تاريخها إلى القرنين الثاني، والثالث عشر)، وأيضاً ... ولكن باهتمام أقل.. بمتاحف لا تران. مشاهد كثيرة ، (أما هو فيدقق في كل شئ). كان الحر شديداً. وكنت لا أجرؤ على الاعتراف بتفضيلي الفضاءات الخارجية (كما لم أكشف عن مدى تعلقي الشديد بغناء لويس أرمسترونغ).

ولكننا لم نكتف بالركض فقط. شاهدنا غروب الشمس الروماني بأشعته المتوهجة الذي تابعناه بإعجاب من مكان يقع أمام فيللا بوركيز ... عرض لأوبرا ريجيلتو في ينابيع كراكلا (وا حسرتاه غادرنا قبل نهاية الفصل الأخير ... وكنا بعيدين أكثر مما يجب ولم نر بوضوح تفاصيل المشهد)، ثم نستمع إلى قراءة بعض النصوص، وما يصوره لنا هنري من احتمالات قادمة مهمة.

كان هنري في حاجة دائما إلى نقل رؤاه عن المستقبل إلى الشعوب المطحونة التي ننتمي إليها، وعثر فيّ شخصي (كانت روثي اكثر تحفظاً) على مستمعة متحمسة.

وقبل أن نفترق، اتفقنا على لقاء آخر في لوزان: كان عليّ أن أمرره سرا إلى فرنسا في السفينة التي تجوب أطراف بحيرة ليمان السويسرية.. وإحدى محطاتها في مدينة إيفيان الفرنسية، ومنها ركبنا القطار إلى باريس. وكأنها لعبة أطفال: واسترعى جواز سفري المصري أنظار الشرطة الحدودية أما هنري فلقد ارتدى حلة رجل أعمال من فيينا، بقبعة من اللباد الأسود، وشمسية ولم يكن في حاجة لكي يقدم جواز سفره (الذي زور تزويراً سيئاً!).

جنيف، السبت ٢٩ فبراير ١٩٨٠

استرجع ذكريات حياتي الماضية مما يجعلني أحلم بالعريش. استيقظت وينتابني حنين قوي لرؤية الرمال والبحر. العريش واحة من النخيل: وكانت صديقتي "آن بريس" تقارنها بجزر البولينيزية، ولكنها كانت فريدة من نوعها. لون الغسق الوردي، شاهدته في الجبال، في فرنسا أو في سويسرا. أما في الجزائر فتكتسي بألوان البربر، السيكلمانية العشبية، خضراء – زرقاء، مع فروق قوية لدرجة إشراق الألوان وخيوط ذهبية. ففي

روما كما في العريش، ومرسى مطروح يخيم الليل في مشهد يشبه الحريق. أصررت على أن تتمددي بجواري أعلى تل من الرمال، لمشاهدة هذه اللحظة الرائعة حيث يتحول الأفق إلى موقد مشتعل، تضيئه أشعة وردية تنعكس على رمال بيضاء، وبحر أزرق فيروزي. ولكنك لم تر أمامك سواي. كم كان عمرك في ذلك الوقت يا نيفين؟ عامين أو ثلاثة ؟ لا شك كان كذلك عشية الحرب العربية – الإسرائيلية الثالثة عام ١٩٦٧، بعدها احتل الإسرائيليون واحة النخيل ... مع قطاع غزة. واستعادتها مصر فيما بعد.

العريش، وبرج العرب، ومرسى مطروح وسيوه. كلها بالنسبة لنا تحديات. كأننا نقود إحدى سيارات النقل الضخمة، (وأصبح من الضروري أن يساعد والدكم عند تغيير السرعة). الركض بسرعة بعد ملامسة بطن الفرس في سباق مع أخي جو. التحكم في حركات الجسم، وفي اتجاه ركض الحيوان... ولكن ليس دائما ... عندما كان فرسي يقبض اللجام بأسنانه (الشكيمة) كان أبوكم يلحق بي، ويطلب مني أن أقود الحيوان في دائرة ،ويؤنبني على عدم الحذر (لم يجرؤ أن يوجه كلامه إلى أخي جو... تنقصه الجسارة). ثم ارتشف الشاي الساخن بعد هذا التمرين ! آه يا بناتي من مذاق الشاي الإنجليزي بعد شعورنا بحمى النشاط الذي يدفعنا إلى أقصى درجات الإنهاك والتحمل. نستعيد النشاط بعد (الدوش) لكي نجهد أنفسنا مرة أخرى... نرقص... ونضحك. نضحك مع أبيكم! هل أطلعكم على صور مرزوق؟ مهرة عربية بيضاء اللون ذات عيون حمر. نجح في ترويضها (بعد أن مني زملاؤه بفشل متكرر)، حصرها بين ساقيه، وكأنه مصارع ثيران منتصر .. يسير متبخترا أمام جمهور المشاهدين، وأصبح الفارس والفرس واحداً.

أتحدث إليكِ عن سيوه ؟ ... اتجهنا إليها من مرسى مطروح مروراً ببنغازي، والسلوم مدرج كامل من الألوان. ننتقل من اللون الأخضر الزمردي للبحر إلى اللون الأخضر الداكن لقطع الأرض المزروعة التي يرويها سكان الواحة بعناية. وبعد عبور وادٍ جاف قديم، وصحراء حارقة مفروشة بالحصباء ... جحيم بلون الذهب الأحمر نشاهده من داخل عربة شاحنة مصممة للعمل في سهول الإستبس المغطاة بالثلوج في الاتحاد السوفييتي ... الذي باعها إلى مصر عندما كانت لا تزال واقعة تحت الاحتلال البريطاني بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. ويبدأ الماء النقي المرفوع من الآبار في الغليان في الإناء المعدني الذي يحمله الجندي بعد بضعة دقائق. ودون توتر، يمضي أبوكم في هذه الصحراء الموحشة معتمداً على بوصلة، آخذاً حذره كي لا ترتج السيارة (كنت أحملكِ يا نيفين)، تعودت على تحمل الشدائد مهما كان الحر شديدا ومهما كثرت الصعوبات.

هل حكيت لكم شيئاً عن الصمت الذي يخيم على سيوه ؟ .. كأنها مادة سميكة يمكن قطعها بسكين ... وقد يخترقه فجأة نهيق حمار. التزمت الفراش فور وصولنا حتى

اليوم التالي (لا توجد عيادة، ولا حتى طبيب ليتدخل في حالة حدوث إسقاط للجنين أو إجهاض)، وغلفني هذا الصمت، وابتلعني وابتلعته في داخلي، كصوت المغني الصحراوي وهو يشدوا على شاشة التلفزيون الجزائري ليعبر عن الخلود.

ذهبنا إلى سيوه لتسليم مرتبات جنود فرقة الجيش المصري التي عسكرت في ذلك الموقع. نزلنا في استراحة مخصصة للموظفين تقع أعلى تل تحيط به غابة النخيل.

وتعرفنا أثناء الزيارة تبعاً للتقاليد على شيخ القبيلة... سيد حقيقي، يجلس وسط صحن الدار الذي ينشط فيه خدم من الصبيان، على عادة وتقاليد ورثها سكان سيوه، من الحقبة التركية،أو هكذا قيل... انحراف لم يتمكن الملك فؤاد من أن يعالجته تماماً، رغم ممارسة الزواج من زوجة واحدة، وكانت النظرة إلى وظيفة المرأة على اعتبار أنها منجبة أطفال فقط ولا ينظر إليها من أجل العلاقات الأسرية الإنسانية.

ظلال وأشباح في أردية زرقاء تسير بمحاذاة الجدران!. ما عدا عائشة "عيشة"، مرشدتنا، التي اعتقدت عندما شاهدتها لأول مرة أنها رجل شاب، بسبب طبيعة عملها، شعرها مقصوص قصير، وطاقيتها وجلابيتها البيضاء.

قصت علي قصتها... عندما كانت في حريم القائد الإنجليزي في سيوه، قبل أن يحتل الألمان الواحة أثناء الحرب العالمية الثانية. عائشة العجيبة حملتني حتى أتفادى التعثر والوقوع بسبب بقايا الجماجم المتناثرة على طول الطريق الحلزوني الصاعد إلى أعلى سيوه... تل مهجور تحول إلى مقبرة على الطريقة الرومانية، أعيد استخدامه كملجأ للاحتماء من قصف القنابل بعد التخلص من العظام التي كانت توضع في كوات جنائزية حفرت في الجدار الصخري للكهف.

و"عيشة" هي التي عرفتني بالقبائل البدوية، ونسائها اللاتي يتحلين بالمجوهرات الملونة، مثل نساء قبائل الأوراس، ولكن يتزين بها وهن يرتدين رداء أسود، يستقبلن تحت خيامهن الرجال والنساء، ويقدمن لهم الشاي الأسود، المركز القوي مع السكر. وتحمل النساء في جبال الأوراس أردية كثيرة لامعة زاهية، ذات ألوان مركزة، ويغنين بأصوات تصدر من الحلق، مثل البلغار، وتجلس البدويات في الصحراء المصرية على عتبة خيامهن. وأسمع ضحكاتهن أحيانا، فلم يكن من الممكن.. للأسف .. دخول خيامهن بينما يصاحبنا الجنود الذين يرافقون الضباط.

ويتحدث سكان سيوه اللغة البربرية، وهي المنطقة الوحيدة في مصر التي لا تتحدث العربية. وهي التي رفعت الاسكندر إلى مرتبة"الفرعون" وتحاول الفتيات حتى الآن محاكاة تصفيفة شعر الملكة كيلوباترة... شعرهن مفصول ببراعة في خصلات مشدودة من أعلى رؤوسهن. ولست أدري إن كنت قد نجحت في تصوير إحدى حاملات المياه لأنها سارعت بالهرب عندما حاولت الاقتراب منها. وأتذكر جيدا عذوبة مياه آبار

كيلوباترة. وهي آبار مزدوجة، الواحدة تؤدي إلى الأخرى عن طريق أنبوب معدني، ذو قطر واسع يمكن العبور من فوقه سيراً على الأقدام. ووصفوا طريقة إعداد حمام هذه الملكة ذات المصير المأساوي...، البئر الأول يملأ بلبن الحمير، والثاني بزهرة البرتقال. وامتنعت حتى لا أقطع مفعول هذا التأثير السحري، ولم أسأل عن مصير هذه المياه التي كانت تخرج بتدفق قوي من الآبار حتى أصبحت سيوه حديقة غناء واسعة مليئة بالخضراوات لا مجرد واحة تنمو فيها أشجار النخيل.[٩٧]

---

97 مرتبطة اليوم بطريق معبد, وتتلقى الكهرباء، وكبقية أنحاء البلاد أصبحت مكتظة بالسكان.

فعالية النشاط العملي...

جنيف، الأحد ٦ يناير ١٩٨٠

لكل مجتمع ذاكرة جمعية: والذاكرة الجمعية المصرية على طرف نقيض مع الذاكرة الجمعية لسكان جزر الأنتيل (كانوا عبيداً جلبوا من مناطق أخرى في الماضي). وقد يفضل، بالطبع، الحديث عن مجتمعات، وليس مجتمع واحد، غير أنه سيؤدي بنا إلى ميادين أخرى من التفكير. لذلك سأرسم الخطوط العريضة لهذه الظاهرة، واصفهاً مع الصور الأخرى بشكل عام... وبعبارة أخرى .. من منظور ومنحى قومي.[98] ودلت هذه العبارة في وقتنا عن وصف للتقدم الاجتماعي، الذي لا تشوبه شائبة شوفينية. ولقد تم تجاوز الشعار (مصر للمصريين) بقدر كبير، ولم يعد يذكر ضمن الشعارات التي رفعتها المظاهرة الضخمة التي أيدت شجب المعاهدة التي ربطت الأمة من طرف واحد بإنجلترا.

وتمكنت بعد عودتي من أول رحلة إلى أوروبا... استمرت ثلاثة شهور، من أجراء تحرياتي، ومقابلاتي مع سكان الأحياء الشعبية دون أن يكون حديثي بالعربية مصدرا معرقلاً (ونلاحظ أنه بالرغم من لهجة هنري الفظيعة...! فإنها رغم ذلك لم تفضي إلى ارتياب العمال الذين دربهم على العمل الثوري) ... ولكن يصعب علينا تصور ذلك اليوم!!.

ورفعنا شعار(العودة إلى الجماهير) في إطار (الاتحاد النسائي المصري) ونادت به منظماتنا التي كانت تعيش في ذلك الوقت حالة عرس، وأفراح (وحدوية). وأنشأ اسماعيل صبري عبد الله، الذي وصل حديثاً من فرنسا مع فؤاد مرسي (الحزب الشيوعي المصري) و(جندت إنجي وزوجها): وجرى التفاوض لدمج هذه المنظمة على مستوى

---

98 أطروحة من طروحات المذهب الوطني، وهي عبارة استحدثها مكسيم رودينسن واقتبسها أنـــور عبـــد الملك.

القاعدة، في لجان الأحياء مع الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني. وقمنا بعمل سياسي داخل الاتحاد النسائي المصري. وكان الاتحاد النسائي في ذلك الوقت يقوم بدور اجتماعي خيري لم تلعبه الدولة، وذلك بافتتاح، وإدارة المدارس، وورش الخياطة، بل حتى العيادات الطبية، وبفكر وتوجهات خيرية على الأغلب. وكنا نحاول إدخال مفهوم الحق المكتسب لمتلقي الخدمات الاجتماعية لدى تقديمها، مع إعادة توطيد الروابط والتقاليد التي عرف بها الاتحاد النسائي المصري منذ بداية ظهوره، أي بمعنى اشتراك النساء في النضال الوطني من أجل الاستقلال. وفشلنا في محاولتنا.[٩٩] وكان هناك من ساندنا.

وكان أقرب حليف لنا في مساعينا سيزا نبراوي وريثة الحقبة الملحمية ذات التوجه النسوي... التفت حول نضال هدى هانم شعراوي، وقد رفعن الحجاب علناً كرمز لتحرر المرأة. وهي أيضا تنحدر من أسرة شركسية كبيرة، ذات طبيعة تتسم بالبساطة، وتعيش في وسط مترف حتى لا يتهمها أحد بالانتهازية، وبذلت جهودا كبيرة حتى تعرب لسانها رغم ثقافتها، ولكنتها الفرنسية القوية. تعيش وحدها مع ابنتها، وكانت على أتم استعداد للمساهمة في المجهود، وأصبحت إحدى نائبات رئيس الاتحاد النسائي (أيام العز).[١٠٠] وهي لن تعترض عليّ إذا ما قلت أنها تدين بجزء كبير من تطورها الفكري إلى الشيوعيين ... في عصر كان يمثل أعجوبة بنشاطه التقدمي: انتمى التقدميون في ذلك الوقت إلى كل الأطياف الاجتماعية، دون تمييز على أساس الانتماء الديني أو العرقي أو غيره.

وعايدة نصر الله... حليف آخر قريب منا، ومن عمرنا. ربطتنا مع المجتمع القبطي الليبرالي، وعلى وجه الخصوص مع مثقفي هذه الطائفة ذوي الثقافة الفرنسية. وكانت شقتها الموجودة في الحي الأوروبي، مفتوحة للاجتماعات المحدودة الأعضاء التي تعقد في إطار حركة السلام، ونشاط النساء، ولجنة شؤون الأطفال التي بادرنا بإنشائها (لطفي الخولي كان قد تعود التردد على المنزل، وكان له في ذلك الوقت أيضاً حضورا مميزا رغم شبابه).

---

99 عثرت في ملفاتي على الخطاب الذي أرسلته إلى مجموعة باريس ، أطلعهم فيه على ما قام به جمال العطيفي من عمل قوض به النشاط بلا مبرر واضح, وكان وكيل نيابة ، متعاطفا ... شخصية بارعة..(كان سكرتيراً عاماً للبرلمان، ووزيراً، ومحامي عن جريدة الأهرام).

100 ودعاها بهذه الصفة شباب جبهة التحرير الوطني (فرع للشباب في حزب جبهة التحرير الوطني) لحضور اختتام أول معسكر للعمل التطوعي للشباب عام ١٩٧٤ (وسنحت فرصة مقابلتها ومرافقتها بالسيارة لزيارة الجزائر العاصمة).

وأصبحت زينب الغزالي القيادية في أوساط الأخوات المسلمات حليفة لنا لما يقرب من عقد من الزمن... شخصية قوية، أنيقة في زيها المكون من حجاب، وثوبها الأبيض الطويل الذي ترتديه الحاجات، وكانت آنذاك منخرطة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها في العمل السياسي، ودافعت علناً عن مواقف تقدمية، قوية في مساندتها لمطالب الأسر في الريف، وتوزع أعضاؤها على التشكيلات السياسية في العاصمة، العلنية منها والسرية. وأسلفنا أن أختها حكمت، وأخوها محمد كانا شيوعيان. وكان أخوهم الكبير موظفاً سامياً. وكانت زينب تستجيب في ذلك الوقت إلى الدعوات الرسمية التي تأتيها من موسكو. مثلما كان الأمر مع خالد محمد خالد، وهو شيخ من الشباب اشترك في اجتماعات الاتحاد النسائي المصري، وتجاسر وربط الإسلام بالاشتراكية، ونشر كتاباً(من هنا نبدأ) انتقد فيه الكهانة في الإسلام مما أدى إلى حدوث فضيحة (بجلاجل).

كانت سنوات ١٩٥٠-١٩٥٢ سنوات اكتشافات ويقين. كنا نشكل في القاهرة مع زملائي، وعثمان ... وعن طريق المراسلات مع شريف (الذي هرب من السجن مع محمد الجندي، واختبأ في قعر سفينة أوصلته إلى مرسيليا، وعاش في باريس بأوراق مزورة)، مجموعه واحدة متماسكة... ولم نقلق من احتمال حدوث التمزق (مشروع اندماج الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني والحزب الشيوعي المصري مني بالفشل) وعلى أية حال أدى ذلك إلى التعبئة المستمرة للمشاعر. واندفعنا نستكشف الميدان في إطار مشروع اجتماعي يستند إلى مطلب الجلاء عن الأرض، وتحقيق مطالب الجماهير العاملة. كنا نناضل في الأحياء الشعبية، ونشارك في المؤتمرات الدولية، وقدمنا يد المساعدة إلى الضباط الثوريين. ومع وجود سيزا نبراوي وإنجي أفلاطون، وسامية راشد (زوجة الأستاذ المحامي يوسف حلمي) وعايدة نصر الله، وخالد محي الدين ... أحد أفراد أسرة كبيرة منتشرة (كان والده عميد الأسرة، وصهره قائدا وفديا، وأصبح ابن عمه وزيرا للداخلية ...). وكان صديقاً حميماً لوالدكما، وكنا نناقش مع خالد كل شيء حتى المآسي الشخصية ... ولعب في حركة الضباط الأحرار ... كما شاهدنا فيما بعد ... دوراً رائـداً.

عندما يقف المرء على الجانب الصحيح، يتمتع ذوي الامتيازات منذ البداية بالقدرة على الانفتاح، وبثقافة عميقة لا تسقط كطبقة من الطلاء البراق ... وأصر على عبارة الانفتاح لأنها كانت ظاهرة خاصة لم يعرفها جيلكم. وبذلك تعاونت قيادة الاتحاد النسائي المصري (التي انتمى أعضاؤها إلى البورجوازية الكبيرة) مع الشيوعيين والإسلاميين، ولم يعترضن على وجودي. كما لم يعترضن أيضاً على انضمامي إلى وفد النساء المصريات الموفد إلى المؤتمر الدولي (نظمه الاتحاد الديمقراطي الدولي للنساء ... دعمته موسكو)، بينما كانت الحرب العربية – الإسرائيلية الأولى قد انتهت في ذلك الوقت.

توطئة

من أيسلندا إلى مصر

كنت أحلم بجزر الشمال بعد اكتشافي مياه المحيط الأطلسي الباردة في جنوب المغرب... ثم الساحل المحاذي الذي يمتد بلا نهاية ... المطل على بحر الشمال ابتداء من مدينة لاهاي. وأعد نفسي في كل محطة من محطات حياتي بأن تكون المحطة القادمة إما ايرلندا ... أو الولايات المتحدة الأمريكية...

شاهدت المكان الذي تتلاطم فيه بعنف مياه المحيط مع الشاطئ ، وتهب فيه الرياح العاصفة... أقامت فيه "مارغريت يورسينار" في الخمسينات!.

لم أترك فرصة زيارة جزيرة أيسلندا النائية تفوتني، وسافرت إليها في شهر يونيه... الذي يطول فيه النهار... ويكاد لا ينتهي .

لم أسمع شيئا عن هذه الجزيرة من قبل ... إلا بمناسبة تكرر التصويت لانتخاب الرئيس السيدة فيجديس فنبوجادوتير (١٩٨٠-١٩٩٦).

كما لم أعرف إلا القليل عن هذه الجزيرة ...

أبحرت إليها في الماضي شعوب الشمال (الفيكنج) الوافدة من النرويج لتمارس التجارة والغزو، والنهب المتكرر لشواطئ البلدان الأخرى ،

ولم تكد ترسوا سفنهم أمام شواطئها حتى يغادروها ... في ترحال دائم عبر البحار والمحيطات.

لم أذهب إلى أبعد من ذلك.

واكتفيت بأن أقوم برحلة إلى جزيرة من جزر الشمال!..

لاحظت فيها تذييل اسم الإناث بعبارة "دوتير" (ابنة كذا) وينتهي أسم أسرة الإناث بهذه العبارة... أي ينتهي أسم الأسرة باسم الأم. كما ينتهي أسم أسرة الذكور بعبارة "سون" (ابن كذا) أي اسم الأب. ولا يوجد في أيسلندا اسم الأسرة. واستمر العمل بهذا التقليد في البلاد رغم انتشار المسيحية واللغة اللاتينية، كما ظهر هذا التقليد في القرن الحادي عشر... مع وصول الرهبان الأيرلنديين إلى هذه الجزيرة المقفرة بعد نجاتهم من المذابح الدينية الدائرة في بلدهم الأم ، واستمر التقليد رغم التحديث السريع للبلاد.

صحيح كنت زوجة ضابط في الجيش المصري، ولكني كنت مرتبطة أيضاً... على أية حال ..عن طريق أبناء عمومتي، وأختي، بالبورجوازية المالية اليهودية الكبيرة. ولم تكن نفس الصورة موجودة في البلاد العربية الأخرى .

تمكنا في المؤتمر ... ونظراً لغياب الحريات في منطقتنا.. من مناقشة مشاريعنا في اجتماعات خاصة. ناقشنا إمكانية عقد اجتماع إقليمي للنساء، تزامنا مع عقد اجتماع لمؤتمر الاتحاد الديمقراطي للنساء، وحدثتنا "كلود فاييون كوتورييه" بحرارة عن مقاومة النساء في معسكرات النازي ومحاولة إلغاء هويتهم، واستبدالها بمجرد رقم (مطبوع على الذراع بحبر لا يمحى). وكانت سيمون آنذاك مسؤولة عن الشرق الأوسط (متصلة بكِ يا أميرة في باريس)، عندما اقترحت الاشتراك في الاجتماع الإقليمي للشيوعيين الإسرائيليين لمناقشة الصراع الإسرائيلي- العربي. واعترضت على ذلك ممثلة الحزب الشيوعي السوري. لا من حيث المبدأ بالطبع، ولكنه، كما قالت... لن تفهم شعوبنا ذلك (الحضور)، وبذلك ننعزل عنها، واستفاضت في ذكر تضحيات مواطنيها (كما لو كان مواطنينا يدفعون ثمناً أقل في هذا الصراع... تحذرن يا بناتي الصغيرات من الجمل الرنانة الحنجورية التي يؤدي مفعولها إلى زيادة التوتر، ولا تمثل سوى انعكاسا لعدم القدرة على التحكم في وضع ما). وأدركت آنذاك (لماذا استعانت سيمون في ردها على المندوبة السورية بالإشارة إلى عملنا الإعلامي بين الجماهير) أهمية الفرصة التي أتيحت لي لكي أتطور في هذا الوسط ... وسط الانفتاح، وهو بعيد في توجهه عن القومية الشوفينية (التي عملت على تآكل ... واحسرتاه .. الفضاء الواسع الذي يسمح بحرية الحركة ..ولكن دون أن يسفر ذلك التآكل عن رد فعل كاف من زملائنا).

جنيف ، الخميس ١٦ يوليو ١٩٨١

إن التصدي لما تفوهت به المندوبة الأمريكية لدى اليونيسيف (كان ما تفوهت به يفوح برائحة ما ابتلعته من مشروبات كحولية أثناء وجبة الغداء) قد جذبني إلى الماضي. عندما قمت ببحث سياسي سكاني لحساب اليونيسيف (مع ماري إيميه لوكاس التي تعرفينها جيداً يا مايرول)، صدمت بظاهرة قتل الأطفال حديثي الولادة في الجزائر من حيث كونها ظاهرة اجتماعية. بينما لا تظهر ملفات منظمة الصحة العالمية أي أثر لهذا الموضوع إلا ما ظهر تحت عنوان (توترات نفسية) كما أنها غير محفوظة في ملفات مركز البحوث المتخصصة في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية.

وعندما سئل ممثل المنظمة عن الأفراد الذين يقومون بعملية التحريات الميدانية في بلاد العالم الثالث، انتفض غاضباً، وأعلن بكل بساطة... بينما يهز كتفية علامة عدم

الاكتراث ... قائلاً (ليس لهذه الأمهات اللاتي يقتلن أطفالهن حديثي الولادة أي حق في الحياة ! لا أقل ولا أكثر من ذلك).

كيف حصل هذا ... أن يفقد الاتحاد النسائي المصري الاهتمام عندما ناقشنا مشاكل المرأة والطفل في مصر ولم يثر مشكلة قتل الأطفال حديثي الولادة؟ هل يعود إلى فقد الاهتمام بالمرأة كإنسان؟ أو لأنهن بالأحرى ركزن الاهتمام على النضال من أجل القضاء على نظام يعمل على استغلال الطفل في الريف ابتداء من عمر ثلاثة سنين (لجني القطن)، وابتداء من ستة أعوام في المدينة (في ورش ميكانيكا السيارات، بل في مصانع الدباغة في القاهرة)؟ أم لأننا كنا نعلم أن مأساة الحمل غير الشرعي كثيراً ما يجري حلها بالتخلص من الجنين بصورة أو بأخرى بمساعدة أم أو عمة. باستثناء ما يجري في الصعيد حيث قد تقتل الفتاة (دفاعا عن الشرف)، كما هو الحال في منطقة القبائل في الجزائر ... ومن كان يهتم في ذلك الوقت حقيقة بما يدور في هذه البلاد البعيدة؟ !

عثرت في الأرشيف على وثائق حول حملاتنا عامي ١٩٥١-١٩٥٢ ومراسلاتي مع مجموعة باريس احتفظ بها "يوسف حزان". ودون حماس .. في أول الأمر .. فضلاً عن الشعور ببعض الحنق عندما تتناول خطاباتي الصعوبات التي واجهناها أثناء العمل والنشاط (الاجتماعي) (نحن الذين كنا ننظر في اتجاه آفاق ثورية أكثر اتساعا !!) ... كم كانت سعادتنا وفرحتنا عندما أنشأنا (لجنة شؤون الطفل) التي مكنتنا من الاجتماع بصورة رسمية،وفي وقت كان قانون الطوارئ يضرب ضربته بقبضة من حديد (في أعقاب حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢)، وأيضا رغم استقالة الوزارة الوفدية. بل تمكنا أيضاً من توسيع نطاق نشاط اللجنة، وعندما نجحنا في استقلال اللجنة عن الاتحاد النسائي المصري توقفت عن التردد على مقر اللجنة (حتى لا أعرقل عمل الديمقراطيين)!... هذا ما كتبته إلى المجموعة، مشيرة إلى أن القوانين الاستثنائية تحبط هم أكثر النشطاء نشاطاً.

ينبغي حتى نفهم السبب في شعورنا بالإحباط، أن نعيش أحداث هذا الحريق الذي اندلع بعد مغادرة عمال القاعدة البريطانية منطقة القنال، وبداية الكفاح المسلح في القنال، وسد الطريق على تموين القاعدة... قام به أفراد شرطة (الأورطه رقم١٠١ بلوكات النظام)، حاصرتهم الدبابات البريطانية في الإسماعيلية، ورفضوا تسليم السلاح إلا بعد استنفاذ ذخيرتهم البائسة، وبلغ عدد القتلى ٦٠ جندياً.

---

101 جهاز للشرطة يتبع وزارة الداخلية الذي ساند الهجوم الجريء لأفراد الكومانـدوس علـى الحاميـة البريطانية في التل الكبير وبه يوجد أكبر مخزن للسلاح في الشرق الأوسط.

وينبغي أن نتذكر أحداث المظاهرة الجيدة التنظيم، التي توجهت صباح ٢٦ يناير إلى مقر رئاسة مجلس الوزراء مطالبه بالسلاح، وتحولت ... دون تدخل الجيش... إلى أعمال هجوم بالمواد الحارقة، ومشاهد نهب.

ونتذكر الإعداد الكثيف لعقد مؤتمر تأسيسي لقيادة عمالية مركزية ثم إلغاؤه في النهاية ... والشعور بإحباط ... استسلمت للنوم طول اليوم.

قصصت عليكم أحداث حريق القاهرة، وعناد أبوكم، الذي أصر على الخروج عدة مرات، وقطع المسافة بين مكان تمركز وحدته (في العباسية)، لاستكشاف الأوامر والتعليمات.. والمنزل (في الزمالك) للتأكد من أن الذين يقومون بإلقاء المواد الحارقة، والتخريب لا يتجهون نحو منطقتنا... وكان قلقا، واستشاط غضبا... بدلاً من أن يتلقى أمراً بالتدخل بقواته، يخبرونه بالتليفون بأن الجنرالات يجلسون الآن حول مائدة الطعام مع الملك ... ولا يمكن إقلاقهم الآن! واستمر هذا الوضع حتى الساعة السابعة مساءً ! وكان من مصلحة الإنجليز، بالطبع.. استمرار هذا الانفلات الأمني. وكذلك من مصلحة الملك، الذي تجاوزته أحداث الحركة. وذكروا لنا أن فرقاً منظمة تنظيماً جيداً كانت تفجر ستائر الحديد التي توجد أمام المحلات لكي يوقدوا النار في داخلها. وذهبت الإشاعات إلى توجيه إصبع الاتهام إلى الإخوان المسلمين. وكيف لنا أن نعرف الحقيقة مع وجود الرقابة؟ هل كانوا إلى هذه الدرجة مرضى بوسواس الشيوعية، وهاجس اليسار العلماني حتى يصل بهم الأمر إلى أن يتحولوا إلى أعداء للحركة الوطنية ؟ ينبغي أن نجادلهم يوماً ما في هذا الشأن!

بالطبع صاحب تنفيذ القوانين العسكرية الاستثنائية موجة من الاعتقالات: أحمد طه سكرتير عام اللجنة التحضيرية للاتحاد العام للنقابات المصرية، ويوسف حلمي سكرتير اللجنة المصرية للسلام، وسعد كامل رئيس تحرير مجلة الكاتب (وهي مجلة اللجنة)، وفتحي رضوان، رئيس الحزب الوطني، وعبد الحليم عضو لجنتنا المركزية ... وبحلول مساء ٢٦ يناير بلغ عدد المقبوض عليهم ٢٥٠ مناضلاً. ولم تصرف التعويضات التي وعد بها العمال، والموظفين الذين تركوا العمل في القاعدة (بناء على طلب الحكومة التي سارعت بدورها بالاستقالة). أما نحن؟ النساء استمررنا في الحشد للإعداد لاجتماع المؤتمر الدولي المعني بشؤون الطفل.

وترأست اللجنة الوطنية التي قمنا بتنظيمها شخصيات شهيرة، وأكدت لنا عايدة مساندة النواب للقضية. ولكن لم نكن قد نجحنا بعد, وقبل انعقاد المؤتمر ببضعة أيام في مدينة فيينا (حياد النمسا كان مهماً وعزيزا في ذلك الوقت)، في إعداد قائمة المندوبين ولا نعرف إذا ما كنا سنتمكن من استخراج تصريح المغادرة من مصر(فحرية التنقل حق مجهول في منطقتنا!). ووصلت في نهاية المطاف.. مباشرة من مصر مندوبتين هما

عايدة باسم الاتحاد النسائي المصري، وأنا من اللجنة. وكانت هذه أول رحلة قمت بها بالطائرة (واستغرقت المسافة بين القاهرة وفيينا فترة الليل بأكمله). وهناك وجدنا مناضلين في المنفى: ليلى (ميمي كانيل)، وجمال (إبراهيم عبد الحليم) وزميلان سودانيان، يوسف(؟) وزينب (فاطمة إبراهيم). وحملت اسمك يا نيفين أثناء ممارستي للنشاط في هذا القطاع.

عثرت على تقرير مداخلاتنا في جلسات المؤتمر: الذي أشار إلى المصادقة على اقتراحاتنا بشأن السياسات التعليمية في البلاد المستعمرة والتابعة... كما ظهر في ديباجة القرارات النهائية. غير أني لا أتذكر تفاصيل هذه الاقتراحات، ولا نتائج أعمال اللجان، والجلسات العامة. بل ولا حتى الانطباعات. وبدون الأرشيف، ما كنت أستطيع أن أتذكر سوى رحلة الطائرة ! صحيح تعتبر مناقشة المشاكل القانونية القضائية نوعاً من الترف والهذيان تحت ثقل نظام القوانين الاستثنائية، وقانون الطوارئ ... غير أني أتذكر مع ذلك المناقشات التي دارت في أروقة المؤتمر.

وكان ذلك بمثابة أول مؤتمر دولي أشارك فيه، وأول مرة أتقابل فيها خارج مصر مع نساء إنجليزيات غير شيوعيات (من حزب العمال، والمستقلين). وتعاطفت مسبقا معهن: نجحوا في لندن في تنظيم مظاهرة تأييد لنضالنا من أجل الاستقلال.

غير أن تأثير البلاد الكولونيالية المعهود قد شاب طروحاتهن بشيء من الغموض. واعتقدوا أن نضالنا سوف يحقق أهدافه عندما تصبح البلد الأم اشتراكية، وأن تحرير شعوب المستعمرات يعتمد على قيام الثورة البروليتارية في الغرب! تجرؤ أن تقول ذلك لمن بذل مجهودا لاستيعاب تاريخ الثورة البولشيفية! ...وتخاذل الاشتراكيون الألمان عن الخوض في هذه القضية، لهذا قد يفضل أن يؤجل النظر في هذه المسألة لزمان لن يأتي !. وبنفس الأسلوب أجبتهن أن التحرير قريب ما دام هناك تأييد من الاتحاد السوفييتي، والمعسكر الاشتراكي، وأنه في واقع الأمر.. كما ذكرت المندوبة الهندية التي كنت أرافقها، أن شعوب المستعمرات التابعة للمتروبول ستتحرر (كانت عضو في حزب المؤتمر المشهور الذي حقق استقلال بلاده، وليست مثلي، عضو في منظمة سرية لم تعترف بها موسكو !) واستحسنا فترات النضال هذه.

كان تنظيم الاحتفال في أول يونيه باليوم الدولي للطفل في القاهرة حدثًا كبيرا، وهو الذي سبق أن حدده مؤتمر فيينا. مجرد التفكير في ذلك يغمرني بسعادة فائقة. وبمفردي، وأنا أقف أمام ابنتي، انفجرت ضاحكة (كما لو كنتِ معي يا سيزا هانم). وفور عودتنا (بعد مروري بباريس لأقابل هنري ... وكان شريف نزيل السجن في باريس لحمله أوراقاً مزوره)، نجحنا في تنظيم اللجنة الدائمة. أضفت في حاشية تقريري أسماء الشخصيات ... وزراء سابقون، وأعضاء مجلس الشيوخ، والنواب، وطبيعي خالد محمد خالد، الشيخ

الموقوف، وابنه، الصحفي في جريدة المصري، وراشد البراوي، أستاذ الاقتصاد السياسي في كلية التجارة جامعة فؤاد الأول (لعب دوراً بارزاً أثناء فترة حكم عبد الناصر)، وعائشة عبد الرحمن من الأهرام، ومن جماعتنا، سيزا نبراوي، وعايده نصر الله، ويوسف إدريس، وإنجي أفلاطون، وأنا. ولقد أفسحت لنا الصحافة مساحة... افتقرت إلى مادة تنشرها بسبب الرقابة: ونشرت جريدة المصري، والأهرام ميثاقنا وبرنامج الاحتفال بالطفل. ومع سيزا، مررت بتجربة التنقل بالسيارة في الأحياء الشعبية (أول حادث للسيارة كان صداما مع الترام !)، أدون بإخلاص أسماء المحتاجين التي أعدتها الرابطات. ويا للروعة ... نحتفل أثناء سريان القانون العسكري، بيوم نظمه (معسكر السلام والديمقراطية) (الشيوعيين وحلفائهم). وصلنا الدعم بما في ذلك المالي من الحكومة العسكرية في القاهرة! ولم تكن الأقدار غافلة عنا ... فلقد أعدت لنا ريح خمسينية عاتية حولت احتفال الأول من يونيه الأحمر إلى سعير ملتهب. ودون أن ترحم ولو قليلا ما بذلناه من جهود. وتضمن برنامجنا أيضاً إنشاء مدينة للطفولة تضم صغار المشردين !

كان أول يونيه حقيقة يوما أحمرا. وكان آخر متدخل في الجلسة الختامية هو شيخنا الذي أكد على أهمية العناية بالطفل لتعزيز مستقبل الأمة، وقرأ رسالة كتبها المعتقلون السياسيون الذين أيدوا مؤتمرنا، وطالبونا بالتدخل لتحرير الآباء. حدث ذلك في نادي هدى شعراوي مقر الاتحاد النسائي المصري، وبثت الخطابات مباشرة على الأثير. وتفصل الرقابة الأسلاك عندما تصلهم محتويات الرسالة، غير أن الأساسي منها كان قد بث (لن أنسى أبداً يا إنجي الشعور بالانتصار الذي كانت تحمله وجه طفلتك الساحر عندما كانت تمشي بين الصفوف). كان ذلك يوم أول يونيه عام ١٩٥٢. وفي ٢٣ يوليه استولى الضباط الأحرار على السلطة. وفي ٢٦ منه تنازل الملك عن العرش، وغادر مصر.

تساؤلات...

جنيف، ١٦ يوليه ١٩٨١

دفعتني تحرياتي عن المرأة الجزائرية للتساؤل عن دور جيلي من النساء المصريات، وهذا لعدم وجود أثر لهن في أدبيات الفترة الناصرية. كما ولو أن التاريخ قد توقف بعد حركة الرفض الرمزية... عندما رفعن الحجاب عام ١٩٢٣ لتختفي بعد ذلك المرأة من على خشبه المسرح ... بينما تحاكم وتدان لأول مرة في التاريخ لنشاطها السياسي النضالي. وساهمت الجهود المبذولة مع المصريات، والسودانيات في تلك السنوات أثناء انتمائنا إلى حركة ديناميكية ذات بعد دولي، ومع وجود مكان لإجراء مناقشة بين مجموع النساء المنظمات في تنظيمات في مجتمعات المستعمرات والمستعمرة، المسيطرة والمسيطر عليها. مدعومة في نضالها من أجل التحرر الوطني، وأصبحن بدورهن منتبهات إلى أهمية المطالبة بتحقيق العدالة الاجتماعية، والمساواة بين الجنسين. سواء كن من الشيوعيات أم لا.

ذكرت من قبل أننا في القاهرة كنا ندفع الاتحاد النسائي المصري دفعاً لكي يساند النضال من أجل الاستقلال. وتذكرت اليوم دور هذا الاتحاد في رفع مستوى الإدراك، والوعي بالحالة المتردية للأحياء الشعبية في العاصمة، والظروف المأساوية التي تدعو للرثاء... والأحوال المعيشية المتدنية لأسر العاملات، وما أسهم به الاتحاد من خدمات لنساء تلك الأحياء .. متخذا صورة توفير حد أدنى من الخدمات الاجتماعية، والتعليمية، والصحية، التي تكفلت بمعظمها الدولة الناصرية لأول مرة في تاريخ مصر. ولكني لا أرى في أي مكان آخر ذكر فيه لهذه المساهمة. وإن كان الحديث يتناول سيزا هانم ... فهذا لأنها كانت عضوا في مجموعة هدى شعراوي، وأصبحت نائب رئيس الاتحاد الديمقراطي الدولي للنساء.

ومن الغريب ألا يذكر أحدا درية شفيق ومجموعتها (بنت النيل) التي أنشئت في عام ١٩٤٨ بينما تستحق بكل المقاييس أن تذكر، وهي التي طالبت بحق المرأة في تقلد السلطة السياسية، تطبيقاً لأحكام دستور ١٩٢٣. وأحدثت مجموعتها في فبراير ١٩٥١

(فترة الملك، وحزب الوفد)، فضيحة مدوية عندما أوقفوا أعمال البرلمان, وبدأت درية شفيق في مارس ١٩٥٤ إضراباً عن الطعام لإجبار (السلطة الثورية) أن تأخذ بعين الاعتبار تمثيلاً نسائياً في المجلس التشريعي الجديد. وما من أحد يذكر بالمرة إنجي أفلاطون، التي قبعت في السجن لسنوات طويلة تحت حكم عبد الناصر، لأنها شيوعية، رغم أنها رسامة وفنانه مشهورة خارج مصر، كما لا توجد أي إشارة إلى لوحاتها الرائعة عن الفلاحة المصرية. واكتشفت مع الأب عيروط (وأنتِ يا ليديا... يا أسطورة) الفلاحة المصرية... هذه الإنسانة الفريدة من نوعها، والبستيها رداءا إنسانيا.

لماذا حجبت أعمالنا؟ بل ساهم في ذلك مثقفي اليسار!. كان هنري على حق: لا يعترف بحقوق، ودور جماعة ما من السكان إلا عندما تأخذ هذه الجماعة مصيرها بين أيديها. و كنا نضع كل شيء في زماننا في المرتبة الثانية بعد التحرر الوطني. بل لم يطرأ أي تحسين في الوضع القانوني للمرأة المصرية !

الجزائر، الأربعاء ٢٣ يناير ١٩٨٠

اعتقدت أني لم اعد أتأثر بالبيروقراطية المصرية... لم يتبق لي من صور حياتي الماضية في القاهرة إلا مشاهد تعبر عن الحب والسعادة. ولكن هاكم سلوكيات أحد موظفي القنصلية المصرية في الجزائر، من فصيلة ذليلة من مافيا الأربعينات، أثارت في غضباً عارماً. من الذي سيقص قصة خيانة النخبة السياسية، والدينية لمصالح العمال النقابيين؟[١٠٢]، ومن سيتحدث عن مشاعر الاحتقار الموجه ضد الفلاحين الواقعين تحت ضغوط رهيبة، وسلوكيات هذه البورجوازية التي تتصف بالجبن والتي تشكلت في قوالب تمثّل عقوداً من الاستبداد، والطغيان، والفساد؟... سحب جواز سفري (واستبدل بورقة سفر إلى مصر) ولم يؤثر ذلك في حرية تنقلي. وإذا وضعنا العامل العاطفي جانباً ... لم أوافق على حفظ الموضوع. المعركة معركة سياسية. هددت بنشر "خطاب مفتوح (للرئيس عبد الناصر) وفي الصحافة الأجنبية.. وسأوقع بلقبي العلمي!!! وبالطريقة المصرية. وليكن ما يكون...وفقدت نتيجة ذلك الأمل الضعيف في الحصول على منصب في منظمة الوحدة الإفريقية[١٠٣].

---

102 أضرب العمال عن الطعام في ١٩٣٩ بعد جهود استمرت ٢٠ عاماً لاكتساب حق التنظيم النقابي: كانت هناك وعوداً براقة حتى يتوقف التقدم ... ويتبعه الغرق في مستنقع النسيان.

103 كنت أحلم في ذلك الوقت بالجمع بين النضال، وبمرتب! بملاحظة تطورات نظام سياسي في إحدى البلدان الأفريقية التي انحو نحو الاشتراكية, قدمت طلب لشغل وظيفة في قسم المساعدات المقدمة لحركة التحرير الوطنية (دار السلام)، وأبلغوني أن الممثل المصري اعترض على طلبي للترشيح.

لم تقتصر مصر أيام شبابي على الشعور بالحنين إلى مشاهدة النيل، ومشاهد الأطفال وهم يرتدون الملابس البراقة، وعرائس السكر التي تباع في الموالد أو المشاركة بكل ما نملك في النضال السياسي وبما كنا نشعر به من سعادة غامرة بين أصدقائنا، بل كانت أيضاً مسرحاً يعكس خمول جهاز شرطة، ومباحث لم تجسر على التعدي على الأحياء الأوروبية الموسرة، ولكنها تتحول ضد الشعب (الغلبان). وكانت هناكً مشاهد السمنة التي علقت بأجسام يتمسك أصحابها بأسلوب متكلفٍ في الأمسيات الملكية حيث كان المضاربون على الأسهم في البورصة يخسرون مبالغ تصل إلى خمسة آلاف جنيه مصري في لعبة (خط السكة الحديد) أي مبلغا يناهز في ذلك الوقت خمسة آلاف جنيه إسترليني. ولم يخسر بالطبع جلالة الملك أبداً. من كان يجرؤ على تحمل تبعات خسارتــه؟

وقد أصبح بعد أن ناهز الثلاثين من العمر، منتفخاً، وساديا، وبخيلا (ويدور الحديث همساً بين أفراد بطانته عن الجميلة هيدي لامار، التي تقض مضاجع الرجال، حاول استمالتها بهدية بسيطة!). بل لم يكن مثقفا... محاطاً بعصابة من (تنابلة السلطان)، ومعتاد الإجرام لم يهتموا بمصر إلا باعتبارها مصدرا لاستنزاف الدخول التي يستولون عليها .

هل سكب دمعة واحدة عندما غادر البلاد؟ قد يكون قد وجه السباب إلى هذا الشعب المقهور. قلت لكم: أمام هذا البؤس الرهيب، إما أن نستمر نسحق بعضنا البعض تحت الأقدام، أو أن نتحمل تبعة جميع المخاطر من أجل قلب هذا النظام.

هذا ما قام به الضباط الشباب الذين لم يستكينوا ولم ينبطحوا أمام هذا العالم العفن الذي يحيط بهم.

تحضرني حادثة ذات دلالة تكشف عما كان لدى هؤلاء الضباط من روح متمردة ... كان الملك يدعو إلى مائدته في المساء، بناء على اختياره هذا أو ذاك من الأزواج، وكنا نعلم مقدماً أن أي امرأة سوف تجد نفسها طريحة فراشه. فلم يعف من هذه النزوة شــرف ضباطه (الذين أقسموا له منذ عام ١٩٣٦ يمين الولاء).

وأثناء حفل عشاء راقص في نادي الضباط (كنا نرتدي في ذلك الوقت فساطين طويلة بحمالات...)، أرسل قواده (بولي بيك)، ليدعونا إلى طاولته. سارعنا بمغادرة النادي دون استرعاء الأنظار. وتنبأ المقربون بالكارثة. بيد أن ردة فعل أبوكم قد بدت لي طبيعية (على أية حال كان من سلالة الغزاة). وأدرك اليوم مدى الجرأة التي تحلى بها لكي يرفض طلب للملك.

كنا في بداية الأربعينات، ولم تكونا قد ولدتما بعد.

وأتذكر جيداً عندما استشاط أبوكم، وخالد غضباً من الملك والقصر، ومن الجنرالات، ومن الإنجليز. وضد العفن الذي تعلق بالعظام. وقد هزت كيانهم فضيحة الأسلحة الفاسدة. وانفجرا عندما ترك الملك، والجنرالات القاهرة تحترق. وقررا دون أن يفكرا في الثمن الواجب دفعه في حالة اتخاذ موقف، وبدون فلسفة، اندفعوا قدماً إلى الأمام.

قد يكونا قد حملا في قلبهما رغبة في الثأر: خدعنا هذا الملك الشاب، رغم كونه من سلالة البناءين (محمد علي، والخديوي إسماعيل)، الذين تبنوا مشروعاً وطنياً، ولكنه حُرف عن مساره بسبب تدخل القوى الكولونيالية ... إلا أن المشروع كان على درجة من النضوج حتى أن النخبة حافظت على وظائفها الاجتماعية (المحافظين منهم، والمحدثين) واستمروا في المواجهة بلغتهم، التي ارتقوا بها حتى وصلت إلى مستوى خطاب طه حسين، ويوسف إدريس (لم يكن هناك حاجة عند الاستقلال إلى طرق قضية اللغة العربية بمطرقة كما كان الحال في الجزائر ... فقد كانت العربية لغتهم الوطنية).

لم أعرف سيرة السلطان فؤاد، أول من عرف بلقب (الملك) في أسرته. كان ضعيف العربية ولكن ... والدتي كانت تقول لي أنه صديق حميم لهذا الرجل الشهير، والأديب العربي، وأعني بذلك الحاخام الأكبر ناحوم أفندي (ويتردد الاثنان على بيت عمتها جراسيا)، وسعى لكي يحصل ابنه على ثقافة عربية، وتربية وطنية (وقرب منه قائد ثورة القومية العربية، عزيز المصري، الذي لم يسامحه الملك فيما بعد عندما خيب ظنه).

إذا ما حاولنا مقارنة الأسرة المالكة في مصر بالأسرة البهلوية في إيران يتضح أن الأسرة المالكة المصرية أكثر حضارة: لم تستطع المعبودة فوزية (وهي اليزابيث تايلور أخرى) شقيقة الملك، أن تقاوم وتظل بعيدة عدة شهور تعيش حياة قاسية منغلقة على نفسها في القصر الملكي الإيراني، مفضلة الزواج مرة ثانية من رجل من عامة الشعب في القاهرة (اسماعيل شيرين، صهر أحمد فؤاد)، مفضلة ذلك على البقاء إمبراطورة في طهران. وعندنا، على الأقل لا يقبع المعارضون السياسيون حتى تتآكل عظامهم في قلاع تعود للقرون الوسطى، ونساء الأرستقراطية عندنا ينخرطون في الهلال الأحمر المصري (أنشأته الأميرة فايزة إحدى أخوات فاروق) بشيء من التفاخر، والتعالي (أتذكر الزي الرشيق الذي كانت ترتديه خالتكم نيللي)، على الأقل كن يجبن أقاليم بلادهم. غير أن النظام كان نظاماً مترهلاً. وتمت عملية الانتقال من الملكية إلى الجمهورية بدون أن تتخللها (روح) حقيقية. لم تكن الملكية في مصر ذات طبيعة متدينة.. بينما قطعت

الفضائح الأخيرة الروابط التي كانت تصل بين الملك، وسكان العاصمة. بلد مسطح ذو اتصالات سهلة،

ولم تكن البلاد في حاجة (كما كان في المغرب) إلى وجود رمز موحدِ نتيجة لذلكْ. وفوق هذا ذاك ... وحتى بدون وجود عاهل وضيع. كنا مع ذلك على استعداد للانقلاب ضد النظام .

ويلاحظ في مصر، وفي أوساط الأسر الإسلامية على نحو خاص أن أسماء أسر كثيرة هي في الأصل أيضاً أسماء أولى، ولكنها لا تتغير من جيل إلى آخر كما هو الحال في أيسلندا، ولا تختلف باختلاف الجنس. وتشتق بعض أسماء الأسر في مصر كما هو الحال في أوروبا من أسماء الحِرف والمهن التي مارسها الأجداد، أو تلك التي تعود إلى مسقط رأس الأسرة: مثلا أسم روسانو وهو اسم واد، ومدينة في كاليبيرا.. تطل على بحر الأدرياتيك الإيطالي، كما يعود اسم قطاوي إلى قطا... وتقع بالقرب من القاهرة، وهو المكان الذي أقام فيه أول من حط رحاله من أفراد هذه الأسرة عندما وصلت إلى مصر عام١٦٨٩.

أتجول طوال هذه الرحلة ... وفي أماكن أخرى أيضا... وأنا احمل صور من عالم مضى .. صور أحملها ... حتى عندما كنت أتجول في مدينة ريكيافيك... التي اختارتها الآلهة في القرن التاسع الميلادي لتكون الموقع الذي نزل فيه أول مستعمر باسم "إنجولفور آرناسون"، ولتتحول فيما بعد إلى مستوطنة بشرية وعاصمة للبلاد.

خصصت يوماً كاملاً للفسحة والتجول بمفردي. وبدأت التحرك في ساعة مبكرة (في القاهرة كانت فسحنا على ضفاف النيل .. تبدأ مع شروق الشمس، وقبل اشتداد الحرارة).

شاهدت طالبة أيسلندية ... عاملة بمكتب البريد توزع خطابات، وطرود في حقيبة تجرها على عجلتين ... (توفر الدولة للطلاب أثناء شهور الصيف العمل في الخدمات البريدية. ويعمل الأيسلنديون بكل سعادة لمدة ستين ساعة في الأسبوع دون تبرم!).

أتنزه بمفردي ... بدون الاضطرار إلى الدردشة مع أحد ! ... أستنشق باستمتاع كبير هواء المحيط المتجمد الشمالي... متمهلة في مشيتي، أشاهد المنازل الصغيرة التقليدية ذات الألوان البراقة، مغطاة بألواح من القصدير المتموج، متناثرة في الحي الغربي ... الذي يقع بين الميناء البحري وبحيرة "تجورنين".

وتقع أعلى المدينة الكاتدرائية الغربية اللوثرية. وينتصب تحتها تمثال "لوفور إيريكسون". ويبدو أن مذهب "لوثر" الذي يعود إلى القرن السادس عشر هو المذهب الذي ألهم مخيلة هتلر ... غير أن دائرة نشاط هذا المذهب في هذه الجزيرة اقتصر على أداء دور إداري بحت.

ويكثر الحديث عن (الإصلاح) ... ولا يعنون التوجهات الإصلاحية التي نادى بها لوثر. بل بالأحرى الإنتاج الأدبي الأيسلندي الذي ظهر في الحقبة الزمنية الواقعة بين القرن الثاني عشر والرابع عشر (عصر الحكماء) الذي ظل محافظا على مكانته المرموقة.

ألقت حدتو بثقلها في المعركة ...

جنيف، الجمعة ١٧ يوليه ١٩٨١

للأسف لم تتمكني من استجواب أبيكِ يا "تنيفين" ... كان بوسعك أن تتبيني علاقته الوثيقة مع أحداث الانقلاب العسكري في ٢٣ يوليه عام ١٩٥٢ ودور خالد محي الدين ... الذي كان حاسما في العمليات التي قامت بها كتيبة المدرعات الخفيفة (الفرسان). ودور الدكتور ثروت عكاشة الذي كان يحب أن يتردد عليه والدك كثيرا في منزلهً... لعشقهٌ للموسيقى الكلاسيكية (ولم يتوقف كل من روزيت، وهنري ... عندما حضرت معهما مناقشة أطروحته لتلقي درجة دكتوراه الدولة من السوربون، عن إبداء إعجابهما الشديد بثقافته).

عدت إلى هنري في باريس بعد اصطحابكما إلى معسكر صيفي في الجبال السويسرية، وخرج شريف من السجن، وعلمت عندئذ بالانقلاب الذي قام به الضباط الأحرار. وقد حيرني هذا الخبر: لم تكن هناك موافقة على استخدام القوة إلا في حالة عدم دعوة البرلمان إلى عقد جلساته (الأغلبية كانت وفدية) في (نوفمبر). وهاكم الضباط الأحرار يستولون على السلطة دون مشاركة شعبية. ورغم ذلك تدعمهم منظمتنا: أكد بدر سكرتيرنا العام في خطاب أنه عندما علم باستخدام القوة، أخبره أحمد فؤاد الذي علم بالنبأ (من حمروش، الذي استدعاه عبد الناصر من الاسكندرية)، وكان عبد الناصر ينتظر بقلق النتائج (بدلاً من أن يعبأ الشارع! هذا ما قاله هنري متذمراً). وأيدنا ونحن في باريس بكامل طاقتنا هذا التحرك. وتردد شريف، وكان يرتاب من العسكريين، ولكن شريف الذي يعرف كيف يصطحبكم إلى عالم من العواطف الرومانسية كان من الذكاء أن وثق في تحليل هنري.

وعند عودتي قص علي عثمان تتابع الأحداث، وتغير التاريخ المحدد للانقلاب، وبكروا به بعد أن ورد إلى سمعهم ... أنباء عن تنفيذ سلسلة من عمليات الاغتيال بعد القضاء على الضابط عبد القادر طه... أول من تصدر قائمة الاغتيال بناء على أمر بالتنفيذ صادر عن الملك ، وتقرر بدء تنفيذ الانقلاب في أول أغسطس، ليضمن لأسر

الضباط والجنود استلام رواتبهم الشهرية، و بعد كشفت معلومات عن حسين سري عامر الذي كان على علم بخبايا كثيرة تتعلق بمنظمتهم، وكان سيعين وزيراً للحربية في الوزارة الجديدة مما عجل من قيامهم بالعملية.[١٠٤] ووصف لي حقيقة وتفاصيل المغامرة ... وأن عددا صغيرا هو الذي قام بالمحاولة (وجاءت بعد ذلك عمليات الحشد): كلفه خالد بقيادة جزء من العمليات العسكرية بمساعدة فرقة المدرعات الخفيفة، واستطاع عثمان أن يتبين سهولة محاصرة كل المنطقة العسكرية بالمدرعات ابتداء من العباسية حتى هليوبوليس (في المكان الذي كنا نمتطي فيه الخيل).

وقص عليّ وهو ينفجر ضاحكاً، عملية القبض على أعضاء القيادة العليا للجيش (الذين عرفوا بالجنرالات ذوي البطون المنتفخة..)، وقد اجتمعوا بأقصى سرعة في محاولة لمنع الانقلاب الذي بدأ قبل الساعة المحددة بسبب نفاذ صبر أحد الضباط (الرفيق يوسف صديق)، وهذه (هي أعجوبة حقاً !). ولم تكن هناك مقاومة. ولم تسكب الدماء. وبالطريقة المصرية ! كلف الجنرال محمد نجيب، رجل هادئ، ووطني، ونظيف ... عند نجاح العملية بتمثيل الضباط المقدامين ... الذين خاطروا برؤوسهم.

غير أنكم تجدون القصة بحذافيرها في كتابات عديدة. ولكن دون الإشارة إلى دور حدتو!

ذكرت في مكان آخر أن الوحدة مع إيسكرا ابتداء من عام ١٩٤٧ مهدت الطريق لتطوير العمل داخل صفوف ضباط الجيش، الذين انتظموا في مجموعات صغيرة، ونشطوا بين صفوف الرقباء (الشاويش)، وناقشوا المشاكل التي تعترض الأمة. وأحيط هنري علما، وهو في منفاه بنشاطهم، ووفرت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني المعدات السرية الضرورية لإعداد مواد الدعاية (واكتسبنا سمعة جيدة، هنا وهناك بما كنا نوفره من أجهزة الرونيو المستخدمة في ذلك للطباعة). وفي منزلنا الجديد في الزمالك.. الذي انتقلت إليه ساعدت في توزيع ("جريدة صوت الضباط الأحرار" وهو جهاز المنظمة الذي أنشأ عام ١٩٥٠). كم هي عدد الساعات والأيام، والشهور، والسنوات التي قضيتها من حياتي في وضع مادة الدعاية داخل ظروف ثم إلصاق طوابع البريد عليها... !

عندما لا نتحمل مسؤوليات في إطار عملية ما، تصبح الذكريات باهتة. أتذكر من كان قريباً من الأحداث (خالد، وحمروش، وثروت) ومن كان مسؤولا عن الاتصال بالضباط، وهو أحمد فؤاد، وكان يتقلد منصب نائب المدعي العام في ذلك الوقت، جاء من

---

104 وصل النبأ إلى ثروت عكاشة بواسطة أحمد أبو الفتح صهره، ورئيس تحرير جريدة المصري.

الريف، وهبط عندنا لحضور الاجتماعات. ولم أكن أعرف مع من كان يجتمع بخلاف عثمان، لأنهم وضعوني في غرفة أخرى مغلقة ... حتى القهوة كان يقدمها أبوكم. ولا أتذكر أني قابلت يوسف صديق. وكان مع خالد من بين الأعضاء الثلاثة عشر بمجلس الثورة الذي أنشئ بعد الانقلاب (حضرت جنازته عام ١٩٧٥ من أعلى شرفة غرفة بفندق في ميدان طلعت حرب). وكان هذا هو الانقلاب الأول الذي يقوم به في التاريخ المعاصر لبلد مستعمر، يقوده ضباط شباب ممثلين للقوى الاجتماعية التقدمية. وكنا المنظمة الشيوعية الوحيدة التي استوعبت ذلك. لأننا كنا نعرف ما يدور في داخل الحركة. أما الصحافة الشيوعية الدولية، وغير ذلك من المنظمات الشيوعية المصرية فلقد سارعت وصبت وابل سخطها على النظام الجديد الذي اعتبرته نظاما عميلاً للأمريكان!

السبت ١٨ يوليه

لم يغير الانقلاب البرنامج الذي وضعه هنري: أراد أن يكتسب دعم المنظمات الديمقراطية الدولية، و تفاوضت مجموعة باريس من أجلي، ومن أجل "سيمون" للذهاب في "بعثة دراسية" مدتها أسبوعين إلى برلين الشرقية، ودعوة أخرى لقضاء بضعة أيام في براغ. وغادرت دون أن أنفر من العمل من باب الانضباط، وحتى أزيل الشعور بعقدة الذنب.. بعد قضاء أسبوعاً كاملا،(هل تتذكر؟ يا صديقي، وكأني في حلم من الأحلام ونحن جلوسا حول بحيرة كومو، ونتجول في قرية للصيادين، كنت تتحداني في السباحة، ونتمتع بالجلوس في حديقة تمتد حتى مشارف مياه البحيرة، وملاصقة لأحد القصور القديمة... وشعرنا لبضعة ساعات، وكأننا ساده من قاطني هذه القلاع). وذكرني بذلك خطاب أرسل في ١٨ سبتمبر ١٩٥٢ من ميلانو إلى المجموعة، للإقامة في مقر الاتحاد الديمقراطي الدولي للنساء. كانوا قد أغلقوا عليّ منافذ النشاط... وعلى وجه التحديد عندما طلبوا مني تنفيذ تكليف واحد: وهو أن أعد تقريراً يتناول نضال النساء في مصر من منظور مستقبلي. وهذا ما قمت به. وكان بوسعي أن أقوم بذلك من باريس أيضاً !

أتساءل ... ما سبب صعوبة الاتصالات مع بلدان الشرق؟ ولماذا تنتشر البيروقراطية في المنظمات الديمقراطية؟ أو بكل بساطة ما الذي يحول دون إضفاء الطابع الشرعي على الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني؟. لم يكن أمراً بسيطاً... فلدى وصولي عام ١٩٥٢ إلى برلين الشرقية بالقطار... هبطت دون أن ينتظرني أحد في مطار براغ .... كنت قد ركبت القطار من براغ إلى برلين اقتصاداً في المصاريف التي تتحملها المجموعة. وتأكدي بأن زملاء المجلس العالمي للسلام سوف يستقبلونني. لم أكن أعرف كلمة واحدة من اللغة التشيكية أو الألمانية (باستثناء ويا للعجب "بانهوف" أي المحطة سجلتها في ذاكرتي في زيوريخ مصادفة عندما وصلت إليها بالقطار لأستقل الطائرة إلى

براغ). وكنت أحمل حقيبة جلدية جيدة الصنع، ظلت على حالها للأبد (هل تتذكرونها؟)، مليئة بالكتب والوثائق ... وكان عليّ أن التحق بكم في سويسرا لدى عودتي دون أن أمر بباريس. ولم توجد بعد في ذلك الوقت عربات يد فردية في المحطات لنقل الحقائب أو حقائب يجري جرها على عجلات. لم ينتظرنا أحد في المطار، ولم يكن للتذاكر التشيكية التي اشتريتها في زيوريخ أي قيمة في براغ (نزاهة البنوك السويسرية ؟) وصودرت هذه التذاكر مع شيء من الشك والارتياب. لماذا لم أقرر أن أستقل الطائرة في العودة ؟ انضباط دون شك، ولكن أيضاً لشعوري بأني في بلدي... "في هذا البلد الاشتراكي". الجميع رفاق. ووجدت أنه من الطبيعي أن أسأل السائق في آخر حافلة تترك المطار أن ينزلني (مع حقيبتي الثقيلة) على رصيف المحطة (الكلمة الوحيدة التي فهمها من كل كلامي)، بعد أن دفع من جيبه الخاص الفرق بين ثمن تذكرة القطار، وبضعة فرنكات سويسرية مما تبقى لدي ! ولم ينتهي الأمر عند هذا الحد: معلومات كثيرة يبثها جهاز مكبر الصوت، وأتعرف على إحداها ...برلين، مع حركة من الناس في اتجاه رصيف آخر... تبعتهم بحقيبتي. بالفعل كان القطار الذي أخذته يوصل إلى برلين، ولكن في يوم وليلتين! دون أن أستطيع شرب الماء (من المعروف أن مياه القطارات لا تصلح للشرب). ووصلت في فجر اليوم التالي، وانتظرت "سيمون"، بعد أن اتصلت بها بالتليفون، أنا منهارة من شدة الإرهاق جالسة على الحقيبة التي تبينت عندئذ فائدتها.

دون أن يكون لذلك علاقة بموضوع (مهمتي)، ظلت انطباعات قوية عالقة في مخيلتي. قوام الزميلة الإيرانية التي تقاسمت معها الغرفة، عضو في حزب "توده"، تبلغ من العمر ٦٠ عاماً ولا توجد شعرة واحدة بيضاء في رأسها[105]، تصدر منها طاقة لم أستطع تبينها كاملة... أعاقها كتف مكسور: أصيبت في المظاهرات التي سارت في طهران ضد إقالة مصدق (كان السبب في تأميم صناعة النفط)، وكانت قوات حفظ النظام الراكبة قد دفعتها بين سيارتي نقل. ونجحوا في إجلائها إلى برلين الشرقية. عملية ... أوصتني بأن أقف أمام متجر المواد الغذائية في الحي قبل افتتاحه، وقبل أن تصل إليه سيدات المنازل من الغرب اللاتي يجمعن بسرعة البيض، والزبد والجبن ... المتوفرة بكميات كافية، وأقل سعراً في الشرق عنه في الغرب(وكان ذلك قبل بناء الجدار). وأيضاً ذكرى الرجال الأقوياء الذين يرفعون الأنقاض التي خلفتها أعمال التدمير الثأرية بالقنابل البريطانية والأمريكية التي سبقت انتهاء الحرب (ولم تستثني هذه الديمقراطيات السكان

105 مثلك أنت يا اليزابيث الإسكتلندية

المدنيين) ويسوون الأرض في المساء، على ضوء المصابيح. وصاحبني الرفيق السائق من المقاومين القدماء صباحاً ومساءً من الفيلا إلى مقر الاتحاد والعكس، وكان مكلفاً بتنظيم زيارة لي للمؤسسات المذكورة في البرنامج، ولا يتبقى لديّ أي ذكريات منها، باستثناء مدرسة حضانة في الحي يملأها ضحك الأطفال الأبرياء.

تلقيت دعوة عند عودتي (أخيرا !) من المجلس العالمي للسلام، ومكثت الأيام الثلاثة في براغ (في فندق رائع مخصص للرفاق الأجانب) كرست هذه الأيام لأجل شرح ... لمن يود السماع مواقف حركتنا حدتو من حركة الضباط الأحرار... يصعب الدفاع عنها: فمنذ قليل علق اثنين من النقابيين على المشانق لتنظيمهم إضراب مع احتلال مصنع (كفر الدوار). ورغم الضغوط التي مورست... أبقي على "روجيه بايون" في السجن مع زميلنا كمال عبد الحليم ... وكان قد حضر إلى مصر لإجراء مقابلات في السجن. وكانت المقابلة التي أجريت مع "بيير كورتاد عنيفة": كان في البداية منبهراً (فقد ظن أني إنجي التي انضمت إلى حزب أسماعيل صبري عبد الله صهرها)، وعندما علم بأني من حدتو اتهم كمال اتهامات باطلة. وسقطت فيما بعد... نتائج مقابلة "روجيه" التي ضمها في كتاب بعنوان(مشاهدات في مصر)، عندما تعارضت مع توجهات الحزب الشيوعي الفرنسي ... وأبلغتني "اليزابيث فاياند" خارج دائرة توزيع الكتب(أن إعادة طبعه يجري في دار النشر جاليمار، وأكدت لي أن والدكم هو الذي قاد السيارة عندما كان "روجيه" في مصر، ونظم له مقابلة مع كمال).

انتظرنا عثمان، على طرف السلم الهابط من السفينة. كما كان دائماً ... في منتهى اللياقة: كانت النساء الجميلات التي تعلم بأننا قاب قوسين أو أدنى من الانفصال ... وهن اللاتي حاصرناه دون نجاح في شبابه، يتدافعن حوله الآن منذ الانقلاب. مما عمل على القضاء على جميع العقد التي قد أكون تسببتُ فيها في الماضي. ثـم كانت كل الآمـال قابلة للتحقيق: قانـون إعادة تنظيـم الأحزاب(٨ سبتمبر) سيقدم لنا فرصة النضال العلني، وأيدت جريدتنا (الملايين) النظام والإصلاح الزراعي (الإصلاح الأول أدى إلى استقالة رئيس الوزراء على ماهر). غير أن مأساة كفر الدوار ظلت غامضة.

أخطأ محمد نجيب (في كتابه مصير مصر ١٩٥٥): لم يكن مصطفى خميس ولا محمد حسن البكري المحكوم عليهما بالإعدام شنقاً، والنقابيين الثلاثة عشر الآخرين الذين حكم عليهم بمدد سجن تتراوح بين ثلاثة إلى خمسة عشر عاماً، أعضاء في حدتو، فلقد انشقوا عن التنظيم. فضلاً عن أن الإضراب لم يوجهً ضد السلطة الجديدة، ولكن فقط لإجبارها أن تأخذ بعين الاعتبار مطالب العمال، في مجمع صناعي برأس مال مختلط بريطاني ومصري، يديره الثري عبود باشا الذي كان يملك فرقه قمعية خاصة من الكوماندوز ، كما هو الحال مع أي مقاول رأسمالي أوروبي. وتحدث من قبض عليهم

أمام جموع العمال المجتمعة عن(الأزمنة الجديدة) و(نهاية المظالم) حضرها أيضاً فلاحون من المناطق المجاورة. ولم أعلم من هذه المأساة سوى أن خالد ويوسف صديق وأيضاً عبد الناصر، كانوا ضد حكم الإعدام، ونادى الإخوان المسلمين بتدخل القوات ضد المضربين[١٠٦]. كما علمت أيضاً أن كمال كان يجول ذهاباً وإياباً في سيارة عسكرية داخل المصنع لكي يقنع المضربين بالتوقف عن الإضراب. لا شك أن هذه المأساة سينقشع عنها الضباب يوما ما.

لم أطرح أي أسئلة لدى عودتي من أوروبا. كنت قد استأنفت نشاط المقابلات في الأحياء الشعبية: ذكرتني وثيقة من وثائق الأرشيف أن الأمر تعلق بتحسين الأوضاع الصحية في فم الخليج، وهو حي شعبي من أحياء القاهرة لا يوجد فيه سوى حنفية واحدة ... كما لا توجد به مجاري صرف صحي، ويتطلب الأمر الارتفاع بمنسوب المياه... للحصول على ضخ مجاني للمياه ولكن ينبغي قبل ذلك سداد ١٥٠ قرشاً كتكلفة...(بينما كان متوسط الدخل السنوي لا يتعدى قروش زهيدة للأسرة الواحدة)، وإنشاء صندوق للإغاثة في حالات الطوارئ. الاشتراك الشهري فيه يبلغ قرشاً واحداً (تعلمون الآن جيداً لماذا لا اجتر أي مشاعر تمت إلى الماضي في هذا الإطار) !

أما على مستوى المطالبات السياسية، وبينما كانت مجموعة النساء التابعة لدرية شفيق ونعمة راشد تصر في المطالبة لاكتساب حق التنظيم في شكل حزب، كنا نطالب فقط بقبول النساء في الأحزاب (نعني بذلك أنه حتى هذا الوقت، وبدون تدخل المنظمات الشيوعية، ولا جماعة الإخوان المسلمين ... لم نكتسب بعد الحق في أن ننشط سياسياً). ولكن كان من الضروري، وبسرعة كبيرة أن نواصل العمل تحت الأرض. اختبأت ميمي كانيل بعد أن عادت سراً إلى مصر مثل شريف، عند والدتي. ساعدتها في القيام بالاتصال مع زوجات الرفاق (ولم يكن الرفاق يقدرون بعد أهمية توجهاتنا العمليـــة)، وفـــي القاهـــرة والإسكندرية (يذكرني روبي جرونسبان بأنه كان يتكفل ببناتي بينما كنت أعدو من اجتماع إلى آخر). وانشغلنا في الأمسيات بكتابة المحاضر(المرسلة إلى هنري) بالحبر السري.

---

[106] إلا أنه لا يوجد لديّ أي دليل على صدق ما سعوا إليه

ثمن المعارضة الصبيانية

أمامي محضر اجتماع مجموعة باريس يتناول مظاهرة قامت بها النساء في الاسكندرية، من أمهات وأخوات بعض المعتقلين السياسيين، أثناء الاحتفال بالعيد الأول لمغادرة الملك (في ٢٦ يوليه ١٩٥٣)، وبعد الإلغاء الرسمي للنظام الملكي في يونيه. ولم يتجاوز عدد المتظاهرات خمسة عشر امرأة، أطلقن شعارات (أوقفوا مصاريف الاحتفالات ... شعبنا جائع)، (حرروا المعتقلين السياسيين)، (النضال المسلح في القنال)... واستطاعوا الوصول إلى المنصة الرسمية حيث جلس الرئيس محمد نجيب وجمال عبد الناصر، وهن يحملن الزميلة سميرة بسيوني على أكتافهن. وتأثرت بعض زوجات الضباط بل حتى أحد الضباط من هذا المشهد.

كما وجدت خطابات أخرى تتحدث عن مظاهرات مقبلة، واتصالات مع النساء السودانيات، والإعداد للمهرجان(؟)، أما عن اعتقال ثلاثة مشاركات لدى عودتهن من المهرجان، ومشروع إصدار جريدة للنساء الديمقراطيات ... ثم شبه استبعاد سيزا هانم من الاتحاد النسائي المصري لتعيينها نائبة رئيس الاتحاد الديمقراطي الدولي للنساء، ثم اكتئاب سامية راشد، إلى اعتقال نائب وفدي قديم، زوج إحدى المندوبات "عزيزة بدوي" ... كل ذلك لم أتذكر منه شيئاً. وعلى العكس لن أنسى أبداً الرسالة التي أرسلت قبل مغادرتي، باسم لجنتنا المركزية، إلى الضباط القريبين: فهناك من اعتقد أن البقاء في مجلس الثورة يعني مساندة السلطة، وبذلك خداع الجماهير الشعبية[١٠٧]. ويعكس ما كتبته عن هذه الحقبة توجهاً صبيانياً. وبهذا بدأت مرحلة ملحمية...غير ضرورية ... استمرت لما يناهز عقداً من الزمن.

---

107 استقال يوسف صديق بالفعل في ١٩٥٣

عزيزتي "ميمي" الحنونة. من السجن إلى المنفى إلى السجن مرة أخرى ... لا فرصة لكِ للبقاء مع حبيبك كمال إلا بضعة أيام، شاعر بائس سحقته مسؤولية ثقيلة ألقيت على كتفيه، ولم تكن من صلاحياته. تتذكرين يا ميمي، وأنت أيضاً يا شريف، هذه الأمسية التي ذرفنا فيها الدمع على موت ستالين، نتمايل على إيقاع أبيات الشعر التي كان يقرضها كمال؟ شاعر ملتزم هذا صحيح ... ولكن ليس قائداً سياسياً ! وأنت يا ميمي .. لماذا هجرت قيثارتك لتلبسي رداء الاحتراف الثوري ؟ يالها من جريمة ... تركناك ترتكبينها ضد نفسك ! عزيزتي ميمي الحنونة، ... صوتك الدافئ، ومظهرك الشاحب... كان حري أن تلتف حولك غلالة من خمار، وليس قضبانا حديدية... واستمر ذلك ثمانية سنوات كاملة مصحوبة بأمر طرد من البلاد كـ "أجنبية" !

١٩ يوليــو

عكست المواقف المتشددة ضد الشيوعيين التي اتخذها مجلس قيادة الثورة مدى التوتر الناجم عن الصراع الداخلي. عين عثمان في الرقابة العسكرية... وأنقذ كثيرا من الرفاق من السجن عندما أخفى الأدبيات الشيوعية التي كانت ترسل إليهم بالاسم من الخارج (سببا كافيا للاعتقال) ثم يسلمني إياها. مكتبه كان ملاصقاً تقريباً للشقة التي كانت تسكن فيها جدتكم (في جاردن سيتي) وسكنا فيها جميعاً نحن الثلاثة أثناء السنة الأولى من انفصالنا بعد أن أمضينا ١٠ سنوات في حياة مشتركة. ودون أن نغير شيئاً من علاقاتنا الأسرية: عثمان يتدرب على لعبة السكواتش، ويتردد على شقة أمي في أي وقت بعد أن سلمته مفتاحاً إضافياً للشقة... (وبدأت في هذه الفترة الزمنية، عندما كان عمرك ٤ سنوات الشعور بضيق في التنفس عند الفجر يا مايرول، بينما لم يكن هناك ضرورة للبحث عن أسباب نفسية لحالتك حيث لأسرة والدك سجل طويل للإصابة بأمراض الحساسية!).

منذ أن توقفت أعمال التخريب في القنال. أصبح عثمان قادراً على التصرف في وقته بصورة أفضل وبحثت حدتو إمكانية الاستعانة به لتهريب اثنين من الزملاء، أحدهم عضو في المكتب السياسي، وهو محمد شطا (حميدو، ولا نستعجب من أن هنري هو الذي ذكرنا بهذا الموضوع بعد انقضاء ربع قرن من الحادثة). وكان سيتعرض عثمان لمخاطر جمة بصفته ضابطاً... ولتحقيق عملية بسيطة نسبيا!: لم يتعد الموضوع التقاط الزميلين في مكان محدد أثناء (علاجهم) في المستشفى، وفي ساعة خروجهم للتريض في الحوش، ومرافقتهم بالسيارة حتى مكان الاختباء، غير أن ذلك كان من الضروري أن يتم دون انتظار لأن أجهزة الإنذار سوف تطلق فوراً في لحظات... ودون أن نحدثه في ذلك (لم نكن نناقش نشاطنا العملي إلا مع الزملاء المعنيين)، تقرر أن أتولى هذه المهمة: انتظرت الزملاء في الساعة المحددة، في أول شارع يتصل بطريق تملؤه نباتات شائكة، يقع خلف بناء من الأسمنت، حيث يوجد مرحاض في حوش المستشفى.

وتمت العملية بنجاح دون أخطاء (رغم قلق الزميل الثاني فؤاد منير الذي اضطررت لتعنيفه لشدة اضطرابه). ولكن تحدثت الصحافة عن عملية الهروب، ونشرت الأرقام الثلاثة الأخيرة لسيارتي، وأكدت أن السائق كان "امرأة بنظارات سوداء". تنبه أخي، وأخذ السيارة (للإصلاح) في كراج بعيد (كتوم وذكي، يصبح كل شيء سهلاً مع "جو"). ولكن أصبح من الضروري أن اعلم عثمان بذلك: حتى ولو أنه منفصل عني، فكان مهدداً بالتفتيش في أي لحظة ... وكنت أعلم أن غرفته عند أهله لم تكن (نظيفة). وتحولت المسألة إلى مأساة. حسب رؤاه الأبوية السلطوية (البطريقية) عن الحياة ... لا يمكن إلا لرجل ... وقد يكون هو ذاك الرجل ... الذي يستطيع أن ينجز مثل هذا النوع من العمليات، وأصبح الأمر كما لو كنا نحرمه من هويته لننقلها إلى امرأته.

ينبغي أن أصرح إبراء لذمته ... ولكونه عسكرياً ... اعتاد أن يصدر الأوامر،أني كنت أمثل بالنسبة له عنصراً مخلاً بالنظام ومشوشاً في جميع الميادين ... مما دفعهُ أن يصر حتى في قضيتنا الشخصية على إجراء مناقشة يشترك فيها ثلاثة ... مع وضع جميع الأوراق على الطاولة ... على أية حال كان التنظيم يقف إلى جانبه.. ولم أشعر من جانبي بأي عقدة اضطهاد.

في نهاية صيف ١٩٥٣ ... وبعد النقد الذاتي الراديكالي وتحليلنا لطبيعة النظام ... طلب عثمان (من بين آخرين تشوش فكرهم بسبب الصراعات الداخلية) أن ينقل للعمل في الخارج (وهنا ظهرت شخصية خالد، الذي ضربت جذوره في التربة الوطنية، وتشبع بالشعور بالمسؤولية، لكي يقاوم الهجمات، ويواصل وحيداً النضال من أجل الديمقراطية داخل مجلس قيادة الثورة الذي تترأسه مجموعة محدودة من حيث العدد من المتشددين)[١٠٨]. وعيّن عثمان ملحقاً عسكرياً في السفارة المصرية في موسكو، وتزوجنا مرة أخرى سراً عشية المغادرة . وكنا بكل أمانة نأمل في تجديد تجربة المعيشة المشتركة مع أطفالنا، وإنما في إطار جديد، وفرحنا لوصولنا إلى (وطن الاشتراكية).

وشجعني الزملاء بحرارة، ومع ذلك كنت مشغولة البال، ومنزعجة لمغادرتي القريبة. فلقد بدأ السوار البوليسي يضيق: اضطررنا إلى إجلاء ميمي من عند والدتي (التي لاحظت تصرفاتنا الغريبة، إلا أنها لم ترد معرفة أي شيء ... فقد كانت تعبد ميمي)، وشريف الذي كلف بإنشاء اتحاد سري للفلاحين في طنطا، مسقط رأسه ... ولما شعر فجأة بمحاصرته، عاد إلى القاهرة. ولعدم وجود مخابئ، اضطر إلى الانضمام إلى

---

108 بقيادة عبد الناصر، واستحوذت هذه المجموعة على جميع السلطات، وتكونت من عبد الحكيم عامر وزكريا محي الدين وعبد اللطيف البغدادي وجمال سالم وكلهم من أعضاء بمجلس قيادة الثورة.

وتصل إلى أسماعنا داخل الكنيسة تراتيل أشعار القرن التاسع (الإيداس).

وبمحاذاة "لايكجارجاتا"، وعبر الطريق توجد في مدينة "ريكيافيك" مدرسة الليسيه المهيبة التي خصصت في وقت مضى كمقر للبرلمان (البينغ) ، وتنتهي نزهتي سيرا على الأقدام بالقرب من بحيرة "إيجورنين"، وأجمل ما يزين المدينة، البط البري ... مكان غني بالألوان ... لم نصل بعد إلى الحديث عن أنفلونزا الطيور... !

ومنذ وصولي إلى مدينة "ريكيافيك".. وفي كل مرة اخرج فيها للتنزه في هذه العاصمة... أتوقف لدى عودتي في نهاية اليوم في مقهى باريس ... لتناول فنجان من القهوة "ران فيرسيه" معدة بالطريقة السويسرية.

وأتذكر الإسكندرية ... المدينة التي امتزجت فيها الحضارة المصرية بالهيلينية والرومانية ... مدينة أمي .. أول شيء أقوم به عندما أبدأ يومي ... هو أرتشاف فنجان قهوة بالحليب الساخن ...

شعرت بالسعادة والغبطة وأنا أشاهد تدفق نبع الماء الحار... نبع "ستروكور" المنطلق في الجو كل خمسة دقائق، ومشاهدة الشلالات المعروفة باسم (شلالات الذهب) في "جولفوس"، ثم الشلال الهائل الذي تتساقط مياهه على عتبتين ... ثم السير على الإقدام على امتداد الصدع الجيولوجي الأمريكي- الأوروبي ... وفوق الصحراء المتجمدة السوداء ...

أما في مصر... تثير بالأحرى الصحراء الليبية الصفراء الحارقة شعوراً دفينا بالقلق عندما نترك الشاطئ المحاذي للبحر... والتوغل على الدرب الذي يؤدي إلى واحة سيوه.

قمنا برحلة بالمركب لتصوير الحيتان (رأيت واحدة ذات حدبه).

ومن اختار الطابق العلوي في المركب المفتوح تعرض للبرد القارس ... كما لو كان يختبر قدرته على التحمل.

وتمتعت بالرحلة التي امتدت ثلاثة ساعات، وشاهدنا فيها جزيرة تسكنها طيور غريبة (كانت على قدر كبير من البشاعة) وهي طيور "الماكارو" (بطة الصخور).

وهذه جزيرة من جزر الأرخبيل. وأكثرها حداثة في العالم.

كما ظهرت في البحر عام ١٩٦٣جزيرة بركانية جديدة، واستمر بركان هذه الجزيرة... في قذف الحمم الملتهبة والرماد مدة أربعة أعوام ... وهي المدة التي استغرقها لينفجر على نفسه. مشهد عجيب ...

ويتعجب المرء عندما يفكر ... في الطاقة التي تبذلها النباتات في التمسك بالتربة! كما يستغرب من شدة مقاومتها وهي تضرب جذورها في التربة كلما اتسعت وكبرت على البر رقعة طبقات الحمم الملتهبة.

ميمي كانيل في المكان الذي عثرت عليه ليديا المخلصة في حي المعادي. أتممت استعداداتي للانضمام إلى عثمان ... كل الأوراق جاهزة ... رغم ذلك كنت أشعر بالقلق الشديد لأوضاع زملائي حتى أني عندما عودت ليلاً من اجتماعي الأخير، صدمت بشدة الرصيف ... وصدمت رأسي سقف السيارة ... إلا أني سيطرت مرة أخرى على عجلة القيادة ... ووضعت السيارة في الكراج ... وصعدت ونمت حتى الصباح، وعندما استيقظت لم أتذكر شيئاً عن الحادث ...

جنيف، نوفمبر ١٩٨٣

كنت في موسكو عندما اعتقل زملائي. ودون أن أدرك الفرق بين مصر وإيران... كنا منتبهين جداً لما يجري في إيران: وكحدتو ... كان حزب توده يمثل بعداً للحركة الوطنية. وبعد تأميم صناعة النفط في مارس ١٩٥١ بإيعاز من مصدق.. اعتبرنا ذلك قياسا... وبمثابة إعلان الاستقلال أيضا من طرف واحد... وقام النحاس باشا بذلك (في شهر أكتوبر). وفي أغسطس ١٩٥٣ تمت محاولة وضع انقلاب الجنرال زاهيدي في موازاة مع تحرك عبد الناصر تجاه الاستيلاء على السلطة، هذا التحرك الذي بدأ يتخذ مظهرا واضحا بحلول شهر مارس ١٩٥٤، وفي يونيه ... وضع عبد الناصر نهاية للمسألة الوطنية بالتوقيع على معاهدة مدتها سبعة أعوام مع إنجلترا، ومن بين فقراتها فقرة تنص على ربط أمن مصر بأمن تركيا. غير أن هنا تتوقف عناصر التشابه: زاهيدي كان عميلاً منفذاً لمخططات مكتب الاستخبارات الأمريكية، وعبد الناصر كان وطنياً. وبذلك نجح في معارضته لعقد أي تحالف عسكري في إطار مشروع التكتل الإقليمي الذي تقوده بريطانيا وأدي ذلك إلى إفشال مشروع (حلف بغداد) في المنطقة[١٠٩]... وبسبب معارضتنا للنظام الناصري ... وآمالنا في أن نصبح الحزب الوحيد الذي يحقق تجمع وحشد القوى الديمقراطية الوطنية[١١٠]... ولكن دون أن ندرك أصبحنا في ذيل الحركة الوطنية.

لم يتجمع (الضباط الأحرار .. حول برنامج ما). ولكن تجلى لعبد الناصر الأمر من جراء المناقشات التي أجراها (مع أحمد فؤاد عضو لجنتنا المركزية وآخرين)، بشأن المشاكل الرئيسية التي تواجه البلاد ... ووافق فوراً على مشروع الإصلاح الزراعي،

---

109 حلف تم التوقيع عليه في فبراير ١٩٥٣ بين تركيا والعراق بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وانضمت إليه إيران وباكستان .

110 أعد هنري في ١٩٤٧ في فترة مناقشات الوحدة، تقريراً في هذا الاتجاه، ... وقد سحب هذا التقرير فوراً بسبب معارضة تيار آخر.

والتصنيع، وأبرم منذ فبراير ١٩٥٣ اتفاقاً مع إنجلترا لتسوية المسألة السودانية بناء على مبدأ حق الشعوب في تقرير المصير (ومن ذكريات هنري ... اتصل به في الأربعينات زميل نوبي، وهو عبد الرحيم صلاح عرابي الذي كان متصلا بمحمد نجيب..، وكانت أمه سودانية ..طالبا منه تقريراً عن المسألة السودانية). غير أن الوضع تدهور تدهوراً شديداً بالنسبة للشيوعيين. وطالبنا بكل ما نملك من طاقة عودة الحياة النيابية (بل اخترنا اسماً جديدا للحركة لنسجل أنفسنا وفقاً للقانون في قائمة الأحزاب). غير أنه بعد يناير ١٩٥٣ ... وفي ظروف سرية ... واصلنا النضال في نفس الاتجاه ... رافضين مشروع الحزب الواحد. وكانت نقطة ضعفنا تتمثل في تأييدنا لنظرية الحزب الشيوعي الفرنسي والبريطاني ... وبناء عليه قيل أن الانقلاب يعكس الصراعات من أجل تحقيق مصالح الإمبريالية البريطانية والأمريكية (وأنا أصر ... أن موقفهم هذا هو من باب التعالي المفاهيمي: أي عندما يصرحون بأن حركة تحرير ما لا تقيم معها الأحزاب الشيوعية الموجودة في البلد الأم... أي المتربول ... علاقات ...هي بالضرورة حركة لم تبلغ بعد مستوى النضج السياسي اللازم).

ولم يكن هنري مؤيدا للمواقف المتطرفة: لا تأييد مطلق ... ولا رفض مطلق. ولم يكن يذكر في مضمون رسائله إلا مسألة تقوية العلاقات مع المنظمات الجماهيرية (وكان يردد لدرجة الهذيان... أنه إذا أخطأنا في اختيار الخط السياسي فهذه ليست كارثة ... شريطة ألا نُعزل عن الطبقة العاملة). ولكن هنري كان بعيداً ... والقمع يسير بخطى حثيثة. وعليه فلقد قمنا بتيسير استحواذ عبد الناصر ومجموعته على مجمل عناصر القضية الوطنية، وبنود مشروع تغيير الهياكل الاجتماعية. ونجح عبد الناصر ابتداء من ربيع ١٩٥٤ في أن يقيم ديكتاتوريته... بتعضيد من نقابات العمال!... وضد محمد نجيب ... الذي كان يحبذ تعدد الأحزاب، ويؤيده في ذلك خالد ... الذي استمر عضواً في مجلس قيادة الثورة الذي كان يواجه أزمة حادة،... وبتأييد من الشيوعيين والإخوان المسلمين[111]... الذين ناشدوا عودة العسكريين إلى ثكناتهم! ويظل خالد (الذي استمر بأعجوبة كشخصية سياسية متحمسة ونزيهة ... معتقداً اعتقاداً راسخاً في مبادئه وقيمه) قادرا أن يعطينا تفاصيل عملية الصراع التي وضعت المخلصين من فرقة المدرعات في

---

[111] في البداية وافقوا على حل الأحزاب لكي يظلوا (كجماعة) القوة السياسية العاملة الوحيدة، ولكنهم قمعوا كغيرهم ... وكانوا قد عدلوا عن نهجهم.

مواجهة عبد الناصر، الذي كان يؤيده سلاح الطيران والمدفعية والمشاة. ومرة أخرى ننوه بأن كل ذلك حدث دون إراقة دماء (نفي بعد ذلك خالد محي الدين). وطبق نظام تعذيب المعتقلين السياسيين ...

عندما تشعر السلطة بالهشاشة، تتحول إلى وحش كاسر.

نوفمبر ١٩٨٣

عرفتم يا بناتي شريف ... إلا أني لم أحدثكم أبداً عن سنوات العذاب، والأشغال الشاقة، والحبس في معتقل الخارجة، وهي واحة تقع في جنوب الصحراء الغربية. ولقد قلت بالمناسبة وقبل مغادرتي أنه كان ينبغي أن يختبئ مع ميمي في المعادي. وهناك ألقي القبض عليهم (تعرف أحد المخبرين السريين على ميمي واقتفى أثرها. وقص عليّ شريف فيما بعد ما أصابه من تعذيب لكي يتكلم... ربط يديه وقدميه بالسلاسل في الأرض ... يسبح في أوساخه، بينما يؤكد له أحد الرفاق السجناء... أني سلمته إلى الشرطة (واعتقد ذلك كما اعتقده أيضاً أحمد فؤاد الذي حاول أن يحشد الرفاق حول جمال عبد الناصر. ولدى مروره على موسكو ... اعتقد بأن من واجبه أن ينبه عثمان مني ... وكاد أن يتلقى في وجهه ضربة بقبضة عثمان)[١١٢] . وقاوم شريف ظروف اعتقاله في الجنوب لمدة شهرين كاملين ... محاولاً أن يسترجع في ذاكرته كلمات أغاني إيف مونتان، الذي غناها في أول ظهور له على مسرح أولمبيا (يرتدي بنطلوناً وقميصاً كستنائي اللون ... نوع مثل نوع البروليتاري البولشفيكي ... بمرونة النمر ... يجهد نفسه على خشبه المسرح كما لم يقم بذلك مغنى قبله... يتفاعل بحرارة... مذهل) بينما كان يتعلق بأهداب ذكريات ماضية ... ("لم تر عيناها" هذا ما قاله معترضاً على اختلاقات زميله). وتوفى غيرهم من الرفاق من جراء التعذيب مثل زميلنا الطبيب الدكتور عثمان.

ليمان أبو زعبل ... طره (على الطريق الواصل بين القاهرة والمعادي) يبعث عند الزملاء صور الجحيم. ويرسل إلى هذه السجون الرهيبة الزملاء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة. وبفضل خطابات ألبير آرييه ... التي كتبها على ورق لف السجائر (والمرسلة بانتظام طوال السنوات التي قضاها نزيلاً متنقلا في مختلف السجون)، استطعنا من باريس أن ننبه الرأي العام الدولي بما يجري من تعذيب يمارس ضد المعارضين. ومن جملة

---

[112] أصبح أحد مديرو بنك مصر ولدى مروره في باريس في السبعينات اتصل بهنري، وقابلته فيما بعد دون مرارة ... توفى مؤخراً.

أمور أخرى ... الركض على الساقين بين صفين من جنود الشرطة، على امتداد مسافة الحوش، في محاولة يائسة لتفادي ضربات الهراوات والسياط... (هذه السياط التي زود بها المحتل القديم الهجانة السودانية لكي ينهالوا ضرباً على الفلاحين المتمردين في الأرياف المصرية). شاهدتم يا بناتي ما فيه الكفاية من صور معسكرات النازي حتى تتصوروا كيف استشهدوا. وهكذا قتل شهدي عطية ... المثقف البارع، (وكانت زوجته من أصل يوناني، وتدير مكتبة في الزمالك): ... لم يرغب في الركض ... تلقى ضربة هراوة فتحت رأسه. من كان يعتقد أن سلطة مناهضة للإمبريالية تلجأ إلى استخدام أساليب أكثر بربرية ضد من يعارضها... وأساليب استخدمها النظام القديم المتعفن؟ (وفيما بعد أصدر السادات.. الرئيس المؤمن... أمراً لقواته بالتدخل في المساجد لطرد عمال شبرا الخيمة المحتمين بها). ميمي ... ثم بعدها إنجي ... ولأول مرة في مصر تجبر النساء على المثول أمام المحاكم بسبب آرائهن السياسية.

منفى من نوع خاص

عندما حضرت المباحث للبحث عني عند والدتي ... كنت مع عثمان في موسكو (يبدو أني ولدت تحت طالع حسن). وكما حكى لي أخي ... لا يستبعد أن يكون الخادم النوبي المحبوب هو الذي ابلغ عني. وبصفتي زوجة موظف مبعوث إلى الخارج، لم أضطر إلى المرور بوزارة الداخلية للحصول على تصريح بالمغادرة ... ولكن من خلال قنوات وزارة الخارجية (من هنا انتشرت الإشاعة التي روجها القائمون بالتعذيب ... بأني قد سلمت زملائي للحصول على تأشيرة خروج). وفيما بعد... ومراعاة لعثمان (فقد كان من المجموعة الصغيرة التي خاطرت بحياتها من أجل قلب النظام القديم!)، لذلك لم تكرر أي جهود إضافية للكشف عمن تكون "ناديه" التي ذكر اسمها في أول قضية لزملائنا ... ولكن قيل لي من مصدر موثوق أن جمال عبد الناصر قد أبدى تذمره لأن شيوعية تركت (وبالتالي جاسوسة) لتخترق سفارته في موسكو!!. وعندئذ ... وبينما كنت أمر بباريس في طريقي إلى موسكو ... وعندما وصلت (تتذكرن نزهتنا الجميلة في غابة بولونيا يا بناتي الحلوات)، علمت (بالكبسة) العامة لأجهزة الشرطة. وبينت النشرة اليومية التي تصدرها السفارة أسماء من اعتقل.

ومن ذلك الوقت فصاعداً فقدت كل الأمور الشخصية أي معنى لها.

نوفمبر ١٩٨٣

قدرتي الكبيرة على التفاؤل أنقذتني من الاكتئاب ... ووقعت في حب موسكو. ليس فقط الجانب العمراني "الباروك" للعاصمة الذي كان على النقيض من مباني لينينغراد، وبراغ لا تحمل أي مسحة عمرانية أوروبية (ما الذي أستطيع أن أقدمه اليوم كي أرى مرة أخرى الساحة الحمراء في ٧ نوفمبر، والشباب يعزف على آلة الأكورديون ... أو يتظاهرون بلعب رياضة الملاكمة حتى يشعروا ببعض الدفء ... انتظاراً للعرض العسكري). عندما لا تشتد البرودة (كنا نشعر بالدفيء حتى في درجة حرارة الصفر)، عندئذ فقط أتجول في هذه الشوارع الكبيرة، ولكن ما أن انخفضت درجة الحرارة إلى أكثر

من ذلك حتى كاد يغمى علي ...لولا رشفة كونياك قدمها أحد الزائرين... بعد أن تركنا المرشد في الكرملين نقف عند المدخل لفترة طويلة من الزمن ... انخفضت أثناءها درجة حرارة الترمومتر إلى عشرين درجة تحت الصفر... وفي غضون ساعة واحدة. وكنا نتمتع معكم يا بناتي بالوقوف في صف للحصول على قرطاس من "الماروجينيا" (هكذا تنطق)، وهي من الآيس كريم المشبع باللبن الصافي الذي يبدو دافئاً في الحلق بالمقارنة بالبرد الذي يحيط بنا. نظرة حزن ... ولا تطاق تقريبا بعد القاهرة، وباريس ... وبسبب غياب المقاهي التي افتقدناها.

تسببنا في فضيحة في الوسط الدبلوماسي عندما أرسلناكم إلى مدرسة سوفيتية بدلاً من المواظبة على الدروس الخصوصية التي تنظمها البعثات الأجنبية في موسكو. لم تتسبب مايرول في أي مشكلة: كانت تتردد على الحضانة. وهي من ناحية اللغات تلتقط بسهولة بالغة (مثل أختي إيريس) الكلمات العادية، بل حتى اللهجة. ولكن أنتِ يا نيفين لم تيأسي، وكانت زميلاتك الصغيرات يتبادلن الدور بعد انتهاء الحصص لمساعدتك في فهم الدروس. وبعد أن تعودت على النظام الذي يسود فيه مبدأ (كل امرئ لنفسه) ... كنت منبهرة ... مثلما حدث أثناء مشاهدة انقضاض الفلاحين الواقفين بأحذيتهم الملطخة بالوحل على أكبر محل في العاصمة افتتح حديثاً (وهو محل جوم) ... وعندما شاهدت المرأة البوابة التي كانت تقرأ مجلدات ضخمة أو عاملة المنزل التي كانت تتابع محاضرات الهندسة. ولأني كنت حديثة الوصول من مصر ... بلد شبه إقطاعي ... استطعت أن أقيس المسافة التي قطعها ذلك المجتمع الذي خرج لتوه من اسر العبودية مروراً بحرب أهلية طاحنة، ثم حرب عالمية مكلفة أكثر من غيرها من حيث عدد القتلى من البشر. وبينما لم أتقيد مسبقاً. تركت نفسي أنجرف مع هذه البيئة المشبعة بالدفء (سكان موسكو يبالغون في حفاوتهم) ودون أي شعور بالعقد: لم يكن الاتحاد السوفييتي في حاجة لزج الأفارقة في أتون العبودية ... ولا أن يحاول استغلال أراض مستعمرة، واستنزاف ثرواتها ...لكي يحقق النجاح.

كنت أشعر بالحنق، والسخط من الدبلوماسيين الغربيين الذين أغاظوني بسبب تركيزهم المرضي على عمليات التتبع والتجسس (وهم مصممو، ومحدثو أجهزة القمع في بلادنا) فضلاً عن انتقاداتهم السلبية (وكانت هذه هي عصب مهمتهم)،. صحيح لم يكن لدينا الحق في السكن إلا في حي العمارات المخصص لنا، ويعلم أحد الحراس بالتليفون عن تنقلاتنا خروجاً ودخولاً ولم يكن من حقنا أن نبتعد عن العاصمة دون تصريح، وليس بعيداً أن نكون قد وضعنا أيضا تحت المراقبة. غير أنه عندما لا يوجد ما يستدعي الإخفاء، والتحوط فإن وضعي تحت المراقبة، وتتبع خطواتي لا ألتفت إليه. ووبخت عثمان لأنه استمع بآذان صاغية إلى (مهاترات) أحد كوادر الحزب عن ستالين (كان ذلك

قبل تقرير غورباتشيف): (أنت لا تقابل إلا أصحاب النفوس المعوجة!) هذا ما كنت أقوله له. دون أن أنكر مع ذلك أن الجيل القديم لم يكن سهلاً ... متصنعاً ... يرتدي رباط عنق ... يتذوق عبير الأوراق الرسمية ... أي نموذج الموظف البورجوازي الصغير.

لمست هذا الجو من قبل في رومانيا... في (جلسات) وجبات الطعام التي لا تنتهي ... مدعوة مع آخرين (بعد انتهاء مؤتمر الاتحاد الديمقراطي الدولي للنساء)... من نساء الحزب الشيوعي الروماني.. اللاتي تميزن بمبادرة كبيرة لخدمتنا حتى أنهن قمن بخياطة بعض الثياب الخفيفة المزدهرة حسب مقاساتنا... لأننا عبرنا عن شدة الحرارة. ولدى عودتي ... ومرورا بباريس ... قلت لهنري وأنا أسخر من نفسي ... بأني لو كنت أكثر شباباً... لعدت من هذه الرحلة وأنا معادية الشيوعية !. وصرحت له وحده .. وقصصت عليه أيضا ما قاله أحد المرشدين المتحدثين بالفرنسية ... عندما اغرورقت عيناه عند تذكر ما تميز به مجتمعهم السابق من إفراط في الرفاهية، والتهذيب (قبل الثورة بطبيعة الحال) بينما وقف يتأمل لوحة رسم زيتي تعود إلى القرن التاسع عشر.

تمتعت في موسكو بأمسيات لا تنسى. مثل أمسية رأس السنة التي نظمها الوسط الدبلوماسي ... رقصنا فيهـــا حتى الفجر (أما زملائي المسجونين فقد غلفهم النسيان..!). ونظم قداسة (بطريق) أبرشية موسكو الاحتفال برأس السنة الأرثوذكسية (التي يحتفل بها في أول يناير). ورافقنا إلى هذا الاحتفال ... عضو سابق في الحزب الشيوعي المصري الأول، متزوج من سوفيتية... أصبح مديراً لإحدى المستشفيات. وتناولت عددا من أقداح الفودكا، ورفعت عقيرتي بقرض أشعار آراجون. وأنا أبكي .. أعلم يا مايرول أنكِ ما زلت تتذكرين هذا الفجر عندما استيقظت على أصواتنا ... وشعرت دون أن تعي أن الفجوة بيننا تتسع. غير أننا تمتعنا بشهور عجيبة. كنا في نفس المعسكر ... وكان لدينا فتيات صغيرات رائعات، ونشترك أيضاً في مزاج واحد يستحسن الرقص، والرياضة، والعروض الملائكية للبولشوي (هل تتذكرين يا نيفين ذلك العرض صباح يوم كل أحد عندما رقصت الفتيات التي لا يتجاوز عمرهن عشر سنوات).

كان مراد غالب[١١٣]، يدرس في السنوات الأخيرة – إن لم تخن الذاكرة – في كلية الطب. ساخطاً لأنه مضطر للموافقة مع باقي الأطباء على القيام بعملية إجهاضي ...دون منوم رغم توسلاتي (المخجلة: حاولت أن أقنع ... دون أن يفهمني أحد، بأني ليست لي قدرة تحمل النساء السوفييت ...). ولم يرد مدير المستشفى ... صديقنا.. أن يستمع لشيء.

---

113 صار فيما بعد سفيراً لمصر في موسكو، ورئيساً (لمنظمة التضامن مع بلدان أفريقيا وأمريكا اللاتينية التي أنشئت بمناسبة انعقاد مؤتمر القارات الثلاث في هافانا في يناير ١٩٦٦)

لقد كانوا يعتبرون حقني بمخدر منوم أكثر خطورة من عملية الإجهاض. ولم يسمحوا لي إلا بمهدئ. ينبغي أن أذكر أن الولادة بلا ألم كانت منتشرة عندهم (مكثت أسبوعاً في عنبر الولادة دون أن أسمع صرخة واحدة). وكانت عملية الإجهاض تجرى بسهولة ... ومحتملة أكثر من مناقشاتهم التي لا تنتهي (لم أفهم منها كلمة واحدة رغم متابعتي لدروس اللغة الروسية).

ولكن ينبغي أن أحكي لكم قصة سفيرنا، الجنرال عزيز المصري الذي كان معجبا مثلي بالاتحاد السوفييتي، ولكن معجب أكثر بقوته العسكرية. وكان قد بدأ في التخريف البسيط في موسكو عام ١٩٥٣/١٩٥٤... يقاطعني دائماً عندما أدرس له اللغة الإنجليزية، ليتحدث عن تجاربه الماضية. لم أترك نفسي فريسة لسماعها. من أصل شركسي مثل أبيكم ... ولكن من جيل تعلم في الأكاديمية العسكرية في اسطنبول، وانضم إلى النضال من أجل استقلال البلاد العربية في إطار من الوحدة مع السلطة العثمانية، حاملة لواء الخلافة (لم يرد علماء التاريخ الغربيين آنذاك أن يفهموا شيئاً عن طبيعة الروابط القائمة بين الوطنية والإسلام) التي تقف بمثابة قلعة (هذا ما اعتقده) أمام الأغراض والمطامع الأوروبية. مناصراً لقيام سلطة متنورة (مع مجموعة من"الأتراك الشباب"). أنشأ منظمة سرية لتحرير الأمة العربية باسم (العهد) واشترك في الثورة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى. عينه الملك فؤاد راعياً لفاروق الصغير (لم يقدر الديوان البريطاني ذلك)، وقد خيب ولي العهد ظنه... الذي كان أكثر ميلاً إلى الألعاب السطحية لا للأيديولوجيات الخيالية، استبعده التشكيل العسكري ... واستمع إليه صغار الضباط ... كان قد حاول الانضمام إلى الألمان لكي يحارب الإنجليز أثناء الحرب العالمية الثانية (مغامرة مشهورة اشترك فيها السادات إلا أنها انقلبت رأساً على عقب... لأنه للنجاح في قيادة طائرة من البديهي أن الأمر يحتاج إلى تدريب مسبق...!).

أحيط سفيرنا علماً بالإعداد للانقلاب، كما أنه عيّن في موسكو لأنها عاصمة مهمة. باختصار ... أصبحنا أصدقاء بفضل الاتحاد السوفييتي، واختارني لكي أستقبل المدعوين في الحفلات التي كانت تنظمها السفارة. كان ذلك مسلياً. ثم تحول إلى مصدر للملل (فقد كان عليّ أن أنظم حفلاتي وأن أتردد على حفلات الآخرين). وقد سارعنا بالمغادرة بسبب الربو الذي أصاب مايره (اكتشف بسبب الممارسة التي اتبعت في الفحص الشامل التي أجريت لها في عيادة متعددة التخصصات). ومن المعروف أن فصل الربيع صعب بوجه خاص على مرضى الربو.. وينصح الأطباء بالذهاب إلى الجبال.

نوفمبر ١٩٨٣

لا شك أنكِ تحتفظين يا مايرول بذكرى ... بل كابوس الجبال السويسرية، لأنك كنتَ قد عزلت من باب الوقاية ... بسبب ارتفاع طفيف في الحرارة، في غرفة... صحيح أنها كانت جميلة مطلة على الجبل من وراء نافذة زجاجية كبيرة، تملؤها أشعة الشمس، أي حلم في الواقع، ولكن بالنسبة لطفلة ينتابها القلق بسهولة.. عمرها خمسة أعوام فقط لم يكن ذلك سهلاً. لم أتذكر الباقي. ولا حتى إذا ما كانت الأزمة السياسية التي حدثت في مصر في مارس/إبريل ١٩٥٤ قد انتهت أم لا . وجدت فقط الجبل يغلفه الحزن، والشحوب في الأيام الممطرة التي لا تتوقف. وسافرت مع عثمان إلى باريس حيث أخطرتني روزيت بوفاة والدتي (حتى لا يؤلمني ... لم يسلمني عثمان التلغراف ... وتشــاجرنا... كنا تعساء دون أن نفصح لبعضنا البعض بذلك. ساعدتنا صداقة الفنان عبد اللطيف في الخروج من هذه الوحدة (وحبينا في أكل المحار... مع تقززي من أن الحيوان فيها ما زال حيا) ... ولكي أطوي الصفحة قمت بمفردي برحلة لثلاثة أسابيع في جنوب فرنسا.

اكتشفت مدينة (فانس) وهي منتجع مثالي لمرضى الربو.

كما تعرفت على فانس ومدرسة فرينيه المدرسة الرائدة في بيداغوجية التعليم (كان جورج دو بال في جنيف..لم أكن أعرفه بعد من المتحمسين والمناصرين لها). وكان هنري ... وللأسف قد أفهمني إنكما عندما تتخرجن من هذه المدرسة يصعب عليهن الانخراط في المجتمع (أدركت فيما بعد أنه في مجال التعليم لم تكن نصائحه جيدة تماما: وانطلق من مبدأ أن العناصر التي تأتي من مصر لن تتح لها فرصة النجاح في فرنسا إلا إذا اختارت التعليم الحكومي... تعلمي عن هذا الأمر الشيء الكثير يا غلبانة يا نيفين) وكان قد وجهها للحصول على ليسانس تلقي فيه محاضرات مملة لا طعم لها في علم الأجناس بينما كنتِ تدهشيننا بقدرتك على الانتقال من نظام تعليم إلىَ آخر مع المحافظة على مكانتك في الفصل كالأولى. حتى في باريس. حتى في ليسيه فينيلون. وبناء على توصية أخت زوج ليديا، نصحتني بالاتصال بمنزل أسرة تديره امرأتان إحداهن يهودية "مينوش" التي اختبأت بشجاعة مع أمها أثناء الاحتلال الألماني .. ساعدتها في ذلك المرأة الثانية "زابي". ونيكول فتاة شابه لطيفة كانت تعد نفسها للرهبنة... وأصبحت مدرستك مع فتاة أخرى صغيرة من عمرك (كنا قد سميناكم "الأمهات المثرثرات" لأنكم كنتما تتحدثن دون توقف بينما تتظاهرن بعمل النسيج المسرود (التريكوتاج). ثم كان لمينوش سحنة طيبة، وزابي امرأة صغيرة نشطة، وحسنة التصرف، تسوي مشاكل كثيرة، وكنتِ يا مايرول لا يصيبك أبداً الربو عندهن، بينما قصصت عليّ كم كنت في مرحلة لاحقة تروعك زابي (لكن خيالك خصب يا مايرول ... وكنت عندها تتوجهين بالشكوى من

أما الجزء الأقل وزنا من هذه الحمم فكان يختفي ليترسب في قاع البحر. (كمن لا يصلح للبقاء) على كوكبنا الأرضي ... ومنهم أطفال أفريقيا المعذبون، المنتشرون على نطاق القارة، الحبلى بقدر هائل من المشاكل،

ويحتل هذه المرة الصدع الجيولوجي الجانب الشرقي منها ... ابتداء من موزمبيق حتى البحر الأحمر.

ومن الغريب حقاً أن تتولد لدي أثناء هذه الرحلة في نهاية الأمر ، الرغبة في تناول ما كتبت في كتابي الذي نشرته بالفرنسية عن مصر لأعيد ترتيب مادته لنقله إلى العربية.

فيض من العواطف والشجون والحنين... يتدفق مرة أخرى من أغوار سحيقة لزمن مضى...رغم قرار الاعتكاف والاعتزال...؟!

زمن سيادة حقائق التاريخ ...وهو ما أعتقده ...وهذا عندما أستطيع التصريح به علنا دون تداعيات سلبية...إن المجرمين وبكل بساطة عديمو الأخلاق ...في قرن ما... لا يتواجدون بالضرورة بنفس الصورة في القرون الأخرى المختلفة....إلا أن هناك استثناء وحيدا وهو حالة الحرب وجرائمها...

نعلم أن النخبة المثقفة على علم بالإمكانيات المتاحة من خلال الحوار في إطار منظمة الأمم المتحدة وهي المنظمة التي ظهرت إلى الوجود بفضل ذكائهم, وبعد مذابح الحرب العالمية الثانية ... ولكن بشرط عمل القوى العظمى لهذا الإطار الاعتبار الواجب ...!

مدرسة ... كانت ترهبك). ومثل نيفين تلقيت دروساً في العزف على البيانو (هذا مهم للسمع)، وأنجزت نيفين قفزة كبيرة في الرياضيات بفضل معلمة بيداغوجية، كما أنها احتفظت بذكرى أغنية (لهارب من الجندية).

لا شك هناك ما يمكن اعتباره إيجابي في كل الأوضاع والحالات.

وفي باريس حيث عشت ... ماذا أستطيع أن أقول ... كأنه نوع من المنفى غير المعلن، ودون أن أضطر إلى البحث عن عمل لأعيش منه، مستفيدة من جواز سفر دبلوماسي.

وسجلت اسمي كطالبة لأحصل على تصريح بالإقامة، وناضلت لكامل الوقت مع هنري لمدة عامين كاملين حاسمين. تخللتها إقامة قصيرة معكما في فانس، أو أصطحبكما معي إلى جوان-ليه-بان بحثاً عن الرمال الناعمة (كسرت ذراعك يا مايرول عندما اصطدمت بمركب صغير)، أو نذهب إلى "كان- سور- مير".. استمرت الزيارة في إحدى المرات لمدة شهرين، أعددت نفسي لامتحان الالتحاق بمدرسة اللغات الشرقية. اكتشفت علم التاريخ وتحمست للثورة الفرنسية، بفضل تحليلات ماركس عن الطبقات في فرنسا (!) وبفضل معرفتي للإنجليزية نجحت ببراعة في الامتحان.

ولم يتوقف هنري عن الإشادة بي لدى الزملاء. وكنت الشرقي الأول من جيلك الذي رفع شأن المرأة ومكانتها. كما يطالبك على نحو استثنائي ... بتقديم كل ما تملك من جهد. إن النضال مع هنري يعد تكويناً، وتدريباً مكثفاً. وتعلمت منه تقدير قيمة العمل الملموس، ووضعت يدي بفضل نهج إيجابي على المشاكل الرئيسية للشعوب (بل حتى الأزمات الشخصية). دروس استرشدت بها فيما بعد. يقدمها دون عجرفة أو تعاظم وبمرح .. وبعاطفة.. وذكاء .. آذان دائما صاغية، وفم مقفل، بحثا عن المزايا النوعية التي يتحلى بها الإنسان المفكر. عملية ضغط حقيقة يمارسها الآخر حررتني حتى منه. اعتقدت بالفعل أني عبرت الفترة الأولى من المنفى دون اشتياق إلى الماضي ودون أحلام يقظة ... عن قلب النظام الناصري بواسطة جبهة وطنية، (واستطعت أن أتلمس عدم اتساق ذلك مع الواقع لأني كنت عضو في الخلية التي أنشئت في باريس بناء على طلب زملائنا في مصر: على أحسن حال أربعة أو خمسة أعضاء، منهم مناصر للملكية، وشخصية زئبقية انتهى بها المطاف كنزيل في أحد سجون إسرائيل (كان ينتمي إلى المخابرات المصرية، وألقي القبض عليه بعد أن كسرت قدمه). ودون أن يوافق على المواقف المتطرفة لزملائنا في القيادة، طبق هنري والألم يعتصره التعليمات، حدثني بكل جدية عن دوري في (الجبهة)، وغابت الابتسامة عنه عندما سألته إذا ما كان يسخر مني. فباسم الجبهة أعدت المنشورات (في باريس) ووزعت في باندونغ ضد (ديكتاتورية عبد الناصر) ! لا يغيب عن بالنا أنه في لحظة مغادرته طائرته متوجها إلى اندونيسيا ألقي

القبض على ما يناهز الثلاثين شخصية من اليسار احتجزت في ليمان أبو زعبل. ليلة ١٠ و١١ إبريل ١٩٥٥.

وبعد باندونغ ... تنفس هنري الصعداء وألقى الضوء على أهمية مساندة القوى الديمقراطية لسياسة جمال عبد الناصر المناهضة للإمبريالية (دون التركيز على طبيعة الشريحة البورجوازية – الصغيرة، والمتوسطة، والكبيرة – التي تمثلها السلطة الجديدة) واستطاع أن يقنع خالد أن يرسل بالنيابة عنه خطاباً يطالب فيه عبد الناصر بعودته من المنفى، وعلى أساس مساندته لسياسته الخارجية (كنت قد أقمت الصلة وعقدنا الاجتماعات عند "روجيه فايون" في "ميوناس"، وعند الأختين "جروتيه" في جنيف). وأوصاه هنري عشية المغادرة ... أن يعمل على إقناع جمال عبد الناصر بأهمية المسألة الكردية للمنطقة! عجيب هنري هذا ! لم نصادف أبداً في طريقنا مثل هذا الذكاء الوقاد. كان النضال من أجل جلاء القوات الأجنبية سهلاً. فكان علينا منذ ذلك الوقت فصاعداً أن نتصرف، ونتعامل مع الخيوط المتشابكة للإستراتيجيات المعقدة. استراتيجيات التحالفات مع سلطة وطنية تعذب المعارضين. وفي باريس وجهنا هنري إلى التركيز على أنشطة مفيدة، وعملية لصالح زملائنا في مصر، مثل طباعة الكتب الماركسية باللغة العربية، أو لتدخل المحامين الفرنسيين ... وبالتحديد للدفاع عن المجموعة المتهمة بالاشتراك ظلما في مؤامرة صهيونية[١١٤]، أو لتنشيط خلية (الجبهة) أو المجموعة التي اجتمعت حول الصراع الإسرائيلي– العربي. ومن ثم كان السباق المتسارع من أجل الدفاع عن حق تأميم الشركة العالمية لقناة السويس.

---

114 اعتبرت من بين أعضائها الزميلة جويس بلو، المفرج عنها ... انضمت إلى المجموعة في باريس ... وأصبحت من المناصرين الأقوياء لهنري وعالمة بالشؤون الكردية، وتحدث عنها جيل بيرو بجدارة، كما كان الحال بالنسبة لبقية أعضاء المجموعة المنفيين في كتابه "رجل فريد من نوعه" ترجم إلى العربية، (انظر المجلد الأول).

قضية القنال ...

نوفمبر ١٩٩١

تحتل قضية قناة السويس مكانة خاصة في الذاكرة الجمعية للمصريين، والإسرائيليين، والإنجليز ... لا الفرنسيين !.

أرسلت حملة عسكرية هدفت إسقاط رئيس دولة أخذ على عاتقه إصدار قرار مشروع... (نحن مضطرون إلى إسقاط القنابل عليكم في كل مكان توجدون فيه ... فكروا في قراكم المهدمة، وأطفالكم وأمهاتكم، وآبائكم، وأجدادكم، الذين سيضطرون إلى الهرب من مساكنهم المحترقة، وهجر كل شيء ... ارتكبتم خطأ فادحا ستدفعون ثمنه غالياً، لقد آمنتم بجمال عبد الناصر)، هذا ما جاء في أحد المنشورات التي ألقتها من الجو قوات التدخل الخاصة. وتسبب ذلك في إحداث فضيحة في البرلمان البريطاني... بينما لم يؤثر تأثيرا يذكر على المجلس الوطني الفرنسي: الذي أزبد وأرغى ضد جي موليه لأنه لم يتحرك بالسرعة المطلوبة ضد المسؤول عن تأميم الشركة العالمية لقناة السويس ... كما لو كانت فرنسا قد أعتدي عليها لأنها أممت في وقتها شركة الكهرباء، ومن بين المساهمين فيها كان يوجد إنجليز ، وبلجيكيين، وسويسريين ...

وصوب الفرنسيون نحو القادة السوفييت وابل من الانتقادات العنيفة عندما أخفوا أحداث تاريخية لم ينقشع عنها الغبار بعد...

ولكن ليس أقل تعتيما وإخفاء مما تقومون به انتم !!! فلقد انقضى ٣٥ عاماً على أحداث القنال وهي لا تزال سجينة الذاكرة الجمعية للفرنسيين ؟... هل سبب ذلك أنهم تعاملوا مع عبد الناصر كما لو كان هتلر الشرق ... والمهيج! (لأحداث الجزائر) ؟ أم هل كان ذلك من باب الشعور بالخجل لاتخاذهم قرار وقف القتال من جانب واحد ... بينما كانت فرنسا قد أبرمت من قبل سرا معاهدة "سيفرس" حتى تستطيع إسرائيل أن تنفذ خطة هجومها، وتمضي فيه محمية بغطاء جوي انجلو- فرنسي. وتحول القتال بعد ذلك إلى قتال بالسلاح الأبيض للاستيلاء على ممر ميتلا.

كان حزب العمال البريطاني بقيادة جيتسكل ... وهذه حقيقة ... يقف في صفوف المعارضة، ومعرضا لضغط حركة التحرر الكولونيالي ... والهند بقيادة نهرو ... مما ألحق الارتباك في صفوف المحافظين، وأصبحوا يسيرون خبط عشواء. أما في فرنسا ... وباستثناء الحزب الشيوعي الفرنسي، كان منديس فرانس الوحيد الذي اعترض على هذه الحملة، واستمر جي موليه في موقعه حتى بعد تحقق الفشل. وظهرت شجاعة "بيير كورت"، النائب التقدمي، و"ديبو-بريدل" الديجولي اليساري، و"كلود استييه"، الصحفي في جريدة (فرانس أوبزرفاتور) بشجبهم موقف كان قد اكتسب تأييدا واسعا على نطاق البلاد.

اتهم عبد الناصر بالشيطنة.. وسخر منه. وحتى لا نبالغ ! فإن خطب عبد الناصر النارية أصبحت بالنسبة للغرب دون أي تداعيات... ألم يؤمن الفنيين الأجانب مرور السفن في قناة السويس ؟ ولكن عندما شنت إسرائيل هجومها تنقلب الآية رأسا على عقب... ولكننا تجاوزنا الأزمة بفضل تأييد الأمة (انضم المرشدون اليونانيون في مصر إلى زملاءهم المرشدين المصريين لتأمين مرور قوافل السفن بعد مغادرة المرشدين الفرنسيين والإنجليز) وسجل عبد الناصر نصراً دبلوماسياً ... وقاومت بورسعيد رغم الاحتلال.

كيف نستطيع أن نستوعب "جرأة عبد الناصر دون أن نأخذ بعين الاعتبار سيرة حياته: ولد في خضم مقاومة طويلة للاحتلال... وطويلة جداً، وتابع سيرته العملية في جيش يرأسه قائد متمصر تهيمن عليه هيئة عسكرية عليا كولونيالية. ومن هنا تنعكس في خطاباته الجماهيرية وطنيته المبالغة في إشارات مستمرة إلى (الكرامة الوطنية). لكن تصرفه هذا كان نتيجة تفكير وحسابات... أولاً لأنه تصرف قانوني: فلقد أدار عقارب الساعة فقط إلى الأمام بضع سنوات ... ليضع نهاية لامتياز ينتمي إلى عصر آخر، وتمسك بأحكام القانون الدولي لتفسير وضع هذا الطريق المائي الدولي، كما سدد التعويضات للمساهمين، وعليه لم يكن يهدد المصالح الاستراتيجية البريطانية (وعملاً بمواد معاهدة ١٩٥٤... أنهت القوات البريطانية جلائها عن قاعدة القنال، ولم تترك، ورائها إلا بعض الخبراء، والذخيرة).

ومن ناحية أخرى – أعلن المجلس السوداني بالإجماع استقلال السودان (في أول يناير ١٩٥٦) واشترك فيه ممثلون من الجنوب، وأسدل الستار على التهديدات الموجهة إلى مياه النيل. ومن هذه التهديدات ما جعل جريدة مانشستر جارديان (في ٤ يوليه ١٩٢٧) تقول(إذا كانت قناة السويس رهينة بريطانية في الأراضي المصرية ... فإن النيل رهينة مصرية في الأراضي التي تسيطر عليها بريطانيا).

وأخيراً اصبح عبد الناصر رئيساً للجمهورية (بالاستفتاء). وكان على قدر من البراعة والحذق ولم يقع في شرك المزايدات، وتوجه إلى الأمم المتحدة التي كان يتولى فيها همرشولد منصب الأمين العام. واستهدفته ضغوط الأمريكان، والكنديين وانصب

اهتمامهم الذي تركز حول عدم تمهيد الطريق أمام أي تقدم سوفييتي في المنطقة... وهذه المرة لعب دوره ببراعة . وكان عبد الناصر يعلم جيداً أنه يستطيع الاعتماد على الاتحاد السوفييتي، وعلى نهرو، وعلى تيتو ... بعد أن انكشفت عدوانية الآخرين.

فعل عبد الناصر الكثير. فلقد أمم شركة أجنبية تحقق أرباحاً من استغلال طريق مائي مصري لا تتقاسمه مع أحد تقريبا ... (بلغ إجمالي المحصل من رسوم العبور في ١٩٥٥ مائة مليون دولار يمثل صافي أرباح الشركة ... تسلمت مصر منها ثلاثة ملايين دولار فقط ...!).

ولم يفته أن يذكّر بأن حفر قناة السويس كلف مصر حياة ١٢٠ ألف فلاح اخضعوا للسخرة، ولم يحظ بدعم الأمة فقط، بل اسكت الأصوات التي حاولت انتقاد معاهدة ١٩٥٤. واشترك في مؤتمر باندونغ ورفض الانضمام إلى حلف بغداد وحشد حوله اليسار و(الكولونيل الأحمر) خالد محي الدين الذي كان قد نفاه. وتحدي المحتل القديم بهدف تمويل أعمال مد شبكة الكهرباء لتغطي البلاد بأكملها، وزيادة مساحة الأراضي الصالحة للزراعة، وصعد عبد الناصر إلى مصاف الأبطال الوطنيين. بل أكثر من ذلك أصبح بطلاً للأمة العربية جمعاء. وصرح من هنا فصاعداً (يشعر كل عربي في جميع البلاد بأنه يستطيع أن يتحرك، وأن يستعيد ما نهب منه)، و هذا ما ردده في خطاباته.

هل بسبب احتقان دوره... والمبالغة في التمجيد والتعظيم ؟ أو لضعف ما تلقاه من مشورة؟ ارتكب خطأ كبيراً عندما قدر أنه من غير المعقول أن تحقق إسرائيل تحالفاً (وهي التي قامت "بحرب تحرير" ضد المحتل البريطاني) مع قوى كولونياليه تزعم أنها ترغب في خلق روابط من نوع جديد مع مستعمراتها التابعة القديمة. وبذلك لم يلق اعتباراً لخطة الهجوم السرية التي سلمها هنري إلى ثروت عكاشة، وحملها فوراً بالطائرة إلى القاهرة. وهي حقبة أشار إليها ثروت عكاشة في مذكراته المنشورة في القاهرة، وأكدها أحد أفراد مجموعة معاوني جمال عبد الناصر[١١٥]، ويغمرني شعور بالارتياح بأن أكون ... بفضل هنري ... في المعسكر الذي يوجد فيه من يتحملون المخاطر لتقديم العون للمعتدى عليهم، وضد المعتدين.

---

115 انظر إسهام أمين هويدي في الكتاب الذي أصدره عدد من المساهمين: السويس ١٩٥٦ — الأزمة وتداعياتها، دار نشر كليوندون، أوكسفورد، ١٩٨٩، الصفحة ١٦١-١٧٢.

جنيف، نوفمبر ١٩٨٣

لم تعتبر معاهدة الجلاء المبرمة في ١٩٥٤ انتصاراً، بل اعتبرها البعض خيانة (أطلق أحد أعضاء جماعة الإخوان المسلمين الرصاص على عبد الناصر أثناء إلقائه خطابا في الاسكندرية)[١١٦]، وأدى تأميم شركة قنـــــاة السويس إلى تصاعد الشـــــعور الوطني ... وســـخر الأبطـــــال المصريون من العـــدو. وأعلن عبد الناصر في الاسكندرية في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية، وبعد حل مجلس الثورة ... نهاية الامتيازات التي استنزفت مصر ... ودون تعويض ... وكان ذلك بمناسبة يوم الاحتفال بذكرى مغادرة الملك للبلاد، وسجلت الذاكرة الجمعية الضربة التي وجهها عبد الناصر للكولونيالية ... وعلى حين غرة صُعد إلى مصاف الأبطال (ولكن لم يعتبره الجميع بطلا ... مارس نوري السعيد في العراق ضغوطاً على الإنجليز للقضاء عليه).

بالتأكيد ... بعد الاستماع إلى خطاباته الجماهيرية... كان هناك خليطاً من المشاعر (بعد التصريح بأن رسوم القناة ستغذي عملية التصنيع) تخوفاً من أن القوة الكولونيالية لن تترك الحبل على الغارب دون تدخل، غير أن دعم اليسار كان كاسحاً. حتى عندما تحول ضدها معتدياً. وطالب الزملاء المسجونين في الواحة البعيدة النائية... واحة الخارجة... رمز عدالة عبد الناصر..،! الحق في المشاركة في القتال. وتدوي جملة خالد محي الدين المشهورة (سنقاوم في بورسعيد كما كان الحال في ستالينغراد من منزلٍ إلى منزلٍ) ... وتناقلته الأفواه. وكان الإخوان المسلمون (على الأقل من كان محبوساً منهم في معتقل الخارجة) أكثر اهتماماً بالسقوط المحتمل لعبد الناصر ونظامه من اهتمامهم بمقاومة العدوان. ولكننا لم نكن قد وصلنا بعد إلى هذه المرحلة تماما.

أما في باريس ... كانت مساندة مجموعتنا لقرار عبد الناصر مساندة فورية. وأضاف هنري إلى مهامنا، وأنشطتنا المتعددة (بدءا بطباعة الكتب العربية، إلى نشر البيانات التي تناولت قضية مصر والسودان، وتنظيم المشاركة في المؤتمرات الدولية)، وشن حملة إعلامية. لم تؤد سرية العمل التي اضطررنا إليها (الأنشطة السياسية كانت في ذلك الوقت ممنوعة على الأجانب، وكان من الضروري حماية هنري، وزوجته، وهما

---

116 أجلى البريطانيون القاعدة في ٢٤ شهراً، وتركوا بها ذخائر و١٢٠٠ خبير مدني لمدة سبع سنوات (و لم يكن ذلك نتيجة سيئة للمفاوضات عندما نقارنها بما كنا مخططا له من جلاء ٨٠ ألف من العساكر بالقوة عن القنال بالكفاح المسلح !) ولكن كان هناك شرطاً في المعاهدة يجيز لإنجلترا عندما يقتضي الأمر أن تعيد القاعدة إلى حالة الاستعداد للحرب.

لا يحملان أوراق هوية أو غيرها) إلى انعزالنا عن اليسار الفرنسي والأوروبي: الذي كان يساند حملاتنا من أجل تحسين أوضاع حياة زملائنا المحبوسين، ومساعدتنا على نشر ما نجمعه من معلومات عنهم ... بل ونشر أفكارنا على نطاق واسع لإضفاء الطابع الدولي على الصراع الإسرائيلي – العربي ... روبير بارا وزوجته دونيس كانا قد فتحا الأبواب على مصراعيها لقوى اليسار المسيحي الفرنسي.

وكان اليسار الاشتراكي الفرنسي مخيباً للآمال: يخلط بين مشاعر تقززه من عبد الناصر (الذي شبهه بهتلر ... كما زعم "جيل مارتينيه" الذي استقبلنا بتعنيف شديد بنفس أسلوب استقباله آخرين كثيرين) وحق الشعب المصري في استعادة موارده. وتابعنا بذهول عملية عزل منديس فرانس داخل حزبه (الراديكالي)، وتحالف الجبهة الجمهورية لجي موليه مع المحافظين الإنجليز، وتواطئهم السري مع إسرائيل لقلب عبد الناصر. أما الجو في إنجلترا فكان مختلفاً. كان حزب العمال في المعارضة وصاحب الذراع الطويلة: بعد أن شجب تصرفات عبد الناصر، اعترض على الأعمال التحضيرية للعدوان المسلح (بل ... عندما وقع العدوان الثلاثي نددت مظاهرات ساحة ترافالجر بالجانب اللاأخلاقي للعملية... وألقيت الحجارة والطماطم على مقر رئيس الوزراء). ثم لأسباب لا أستطيع تفسيرها ... لم يتأثر المثقفون الإنجليز كما كان الحال في فرنسا بالتوجهات القومية العدوانية. هل كان بسبب (الطابع البروليتاري لحزب العمال البريطاني، أم لبورجوازية الحزب الاشتراكي الفرنسي). أم هل هو التخوف من الشيوعية؟ (الحزب الشيوعي الفرنسي ذو ثقل كبير ... وتقريباً لا وجود له في إنجلترا) أم بسبب اختلاف الثقافة ؟ أعلم فقط أن اليسار البريطاني غير الشيوعي أعرب عن تعاطفه معنا.

عندما قررت مجموعة باريس (بضغط من سوسو) أن ترسلني إلى لندن، لم تطأ قدماي هذا البلد من قبل... وكنت أمقت الإنجليز... عنصريين ومتعجرفين، ومتعاظمين يتسمون بالبلادة، ذوي ثقافة ضيقة الأفق ... أو هذا ما تصورته ...وأفتقد الكلمات التي تمكنني من أن أعرب بها عن مدى ازدرائي لهم ... وسبب شعوري هذا عندما أتذكر هؤلاء السكارى ضخام الجثة الذين يحتقرون المارة في شوارع القاهرة أثناء الحرب الكبرى. استمر شعوري بهذا الحقد، وضد الذين كانوا بالأمس فقط يهاجمون الطلبة والشرطة الوطنية بالدبابات ... ولم يضعف شعوري بالحقد لأني اعتبرت أوروبية، وأنجوا بذلك من غطرستهم.

وتعاطفت مع صغار العسكريين البريطانيين الذين كنا نقدم لهم الشاي، وبعض الدفء العائلي عندما كان الألمان يدقون أبوابنا (ومؤخراً بعد أن " نورتني" الماركسية ... بدأت أشرح لرقيب شاب أن انقسام المجتمع إلى طبقات لا يعتبر عقيدة جامدة، ولا كون الانتماء إلى طبقة معينة مسألة نهائية ... وقد أذهلته هذه الاستنتاجات ... وبعد تجربة

مريرة في جحيم القتال في الصحراء، اقسم أن يساهم لدى عودته إلى بلاده في تقويض النظام الاجتماعي البريطاني !).

ركبت القطار وكنت أتوقع الأسوأ. صاحبني في هذه الرحلة "محرم" ... زميل شاب وصل حديثاً إلى باريس ... هرب من مصر حتى يتفادى السجن، ثم ترك جده، وجدته لأمه في اسكتلندا ليناضل معنا (ذو قوام إسبارطي شديد صارم ... وسيظل فارسي الخدوم)، كنت أعتمد عليه لتلقي الضربات. بلغ من العمر ١٨ عاماً تقريباً، ومشحون بالعقد !... تركني أتصرف بمفردي تماماً. أصبحت الأمور سهلة، وبسرعة سارع قواد حركة التحرر الكولونيالي ... وهي منظمة مشروعة قامت في الحقبة الكولونيالية ... يتولى رعايتها نواب في البرلمان (ولا يوجد مثيل لها في فرنسا) وكان رئيسها في ذلك الوقت فينر بروكوي (ويحمل لقب لورد ... ولكنه يمنعنا من استخدامه)، بفتح جميع الأبواب. وفي مكان ما في أرشيف باريس نعثر على تقريري عن تلك الرحلة: قمت بعقد مقابلة على انفراد مع نهرو ... ثم اتصالات كثيرة مع مجموعة كبيرة من النواب، وأيضا من حزب المحافظين . ووقعت في غرام لندن، والإنجليز (وتجدد هذا الشعور في كل رحلة بعد ذلك: التمتع برائحة الشاي من بولونيا، ومنبهرة من البحر المتوحش الذي يلفح رذاذ أمواجه الوجه بينما نقف على سطح المركب (الهوفركرافت) هذا الحيوان العملاق الذي يخترق المياه بسرعة هائلة ثم يصعد ليرسو على الشاطئ ، أو مرتفعات دوفر البيضاء، وصفاء وهدوء الريف الإنجليزي، أشاهده من على القطار وتتناثر فيه الخراف السمينة المتكدسة).

و أقص قصتي منذ ذلك الحين ، وأكررها لدرجة تبعث على الملل ... قصة مقابلتي مع أحد رؤساء حركة الماوماو المحكوم عليهم بالإعدام في كينيا (وكانت في ذلك الوقت مستعمرة بريطانية)، بينما كان يسحب بكل مشروعية من على جهاز الرونيو المنشورات التي تندد بالإمبريالية البريطانية ، وذلك في مقر حركة التحرر الكولونيالي، أو المظاهرات التي كانت تسير في شوارع العاصمة والمكونة من أفارقة من المستعمرات يطالبون بالاستقلال، ويحميهم البوليس ضد العناصر المتهيجة الفاشية "لموسلي". أي نعـم ... لم تكن باريس ! وبعد ذلك كلمات وعبارات مثل حبيبتي ! وعزيزتي! ينطق بها الغريب دون تكلف. شعور بالغبطة والسعادة تصاحب المرء حتى في دهاليز البرلمان في ويستمنستر. أول إطلاله على مجتمع شديد الديمقراطية (عندهم فقط)، مجتمع انتقادي ولكن غير عدواني ... يفيض بروح مرحة... بيئة ثقافية تناسبني تماما.

نوفمبر ١٩٨٣

وفي مصر ... مر تدخـــل القوات السوفيتية في بودابست مرور الكرام. وأغلقت القنـــال في ٤ نوفمبر ١٩٥٦ (بإغراق السفن الراسية)، وفي اليوم الخامس انقضت قوات المظلات الفرنسية والبريطانية على بور سعيد وبور فؤاد بعد أن دمرت بالقنابل المطارات المصرية. وأثناء ذلك استمرت القوات الإسرائيلية في تدفقها (بدأت تحركها في ٢٩ أكتوبر) في سيناء وأعلن بن غوريون بهذيان (استعادة) الجبل الذي تلقى عنده الشعب اليهودي من الرب ألواح الوصايا. وكل ذلك قد خطط له أثناء اجتماعات سرية نظمت في فرنسا[١١٧]. أما الولايات المتحدة الأمريكية وهي أصل الأزمة (بعد أن وافقت على تمويل بناء السد العالي في أسوان سحبت الموافقة)، وأعربت عن تفضيلها عدم تأييد عدوان لن تستفيد منه شيئاً. وأدان المثقفون في فرنسا غزو السوفييت لهنغاريا بينما تركوا حكومتهم تعتدي باسمهم على مصر.

ينبغي أن أتوقف هنا في محطة صغيرة لكي أصر على أن هذه الذاكرة الجمعية الفرنسية

ذاكرة مشوهة نادى بها أفراد من النخبة المثقفة اليسارية, وتستمر آثارها عند بعض المؤرخين حتى اليوم.

هل هذه حقيقة مظهرا من مظاهر التعمد أو جهل الصحافة والسلطات... يخلطون بين القناة والشركة العالمية .

وفي محاولة لإلقاء الضوء كلف أحد المثقفين في مجموعتنا وهو " ريمون إسطنبولي " بتحرير مذكرة تناولت التسلسل التاريخي لقناة السويس المصرية والامتيازات الممنوحة لشركة قناة السويس العالمية التي تنتهي بعد انقضاء المدة المنصوص عليها في الفرمان .

ومن المعروف أن الخديوي إسماعيل باع حصة مصر من الأسهم بسبب الديون المتراكمة, إلا أن القناة ظلت مصرية وأكد ذلك الفرمان الصادر عن الباب العالي.

وكانت حجتنا الأساسية التي دافعنا عنها عندما صاحبت هنري لمقابلة مع بعض أفراد اليسار في باريس وهي حجة كررتها في لندن أن التأميم كان منصبا على شركـــة

---

117 وعقدت الاجتماعات السرية من ٣٠ سبتمبر إلى ١ أكتوبر ١٩٥٦ وأيضا في يوم٢٢ و٢٣ و٢٤ أكتوبر (عندما انضم إليهم الإنجليز). أكد زييف شيف المراسل الحربي الإسرائيلي إلى الجريدة اليوميـــة هـــاآرتس، أن عشية الحملة على سيناء، أن فرنسا أرسلت إلى إسرائيل سربين من الطائرات لقذف الأهـــداف المتواجـــدة في قلب مصر ... والمشاركة في الإنزال المظلي للمعدات والمواد المرسلة إلى القوات الإسرائيلية.

الموروث

" الشمس والنيل لم يخلقا... وإنما وجدا منذ الأزل .. "

هذا ما قاله المصري القديم ...

" يجود الرب الخالق بسخائه على البشر... محققا رغباتهم .. خالق الضوء ... وخالق أنفاس الحياة ... وموفرا غذائهم ... خلق النبات، والماشية، والطيور، والأسماك... "

لم يمارس هذا المصري طقوسا دينية دموية... مثل تقديم القرابين البشرية.

"حاولن يا حفيداتي الصغيرات الأجنبيات أن تقتطفوا ولو جزءاً صغيراً من التراث الزاخر بأعمال الحذق والمهارة، والمساهمة الخلاقة، مع المحافظة في نفس الوقت على روح مرحة متسامحة"

أمي ومصر... هما اللتان صقلتا شخصيتي. كما حددت اللينينية واليونسية خط سيري ، ويعتبر القرن العشرين. بعيدا كل البعد عما عاشه أحفادي الذين انتموا .. وبصورة غريبة.. إلى مفاهيم القرن التاسع عشر! لا لسبب سوى ما انتابهم من هواجس، ولتمسكهم ببعض تفاصيل الخطاب الفرويدي!.

لكن.. يبدو أن حفيدتي "جوانا" هي الوحيدة التي استطاعت أن تنجوا بنفسها، وذلك في إطار الاهتمام بالمشاريعً التي وضعت خططتها . بل استطاعت أن تحافظ على تفكير يحمل قيماً أخلاقية، وهو في حد ذاته أعجوبة ... في هذا البحر المتلاطم من التوجهات المجردة للتقنية العلمية الميكانيكية

نعجز عن التحكم ... بل لا نستوعب بالقدر الكافي أهمية ثورة تكنولوجيا المعلومات (التي جاءت في أعقاب اكتشاف فن الكتابة والطباعة)، ويبدو أننا لم نستوعب بعد حقيقة أن هذه الثورة سائرة لا محالة (في سياق التطور التاريخي الديالكتيكي الجدلي) نحو قلب المفاهيم الاقتصادية والسياسية على نطاق كوكبنا.

ونحن نسعى بهدف المحافظة على البيئة، ولاتباع نهج اجتماعي مسؤول. فبدون ذلك تعم الفوضى...!

قناة السويس ... بل حتى ريمون اسطنبولي نفسه كان يتحدث أحيانا عن تأميم قناة السويــس.

وظهرت بوادر الحرب منذ التأميم. واستدعي عثمان من موسكو، وطلب مني أن أصطحبكما يا بناتي من فرنسا إلى مصر، وتصور أننا سننتهي في معسكر للاعتقال إذا قامت الحرب ! وكان طلبه مناسباً للمجموعة التي أرادت تحديداً أن اضطلع بمهمة الاتصال بين أصدقائنا الضباط، وزملائنا المسجونين. وأعد ثروت عكاشة جواز سفري ... وأعلمني خالد محي الدين بأن الشيوعيين لا يقلقون علي من عودتي. وانتظرنا أبوكم في المطار. وفور عثوري على غرفة مؤثثة على الطابق الأعلى لإحدى العمارات القريبة من مكان إقامة والدكم ... مكان ممتاز لإنجاز نشاطي العملي ... اتصلت بإنجي وسيزا هانم (حافظت على علاقاتي معها أثناء سنوات النفي): وتجمع في لجنة المقاومة مناضلون من مختلف الأطياف السياسية . وقبل أن أتقدم بطلب رسمي للانضمام، أثيرت مسألة أصولي: واستقر الرأي بعد تفكير بأنه من الأفضل عدم الانضمام إلى هذه اللجنة (اعتقد بنظرة إلى الوراء أن توجهي "اليونسي" لا شك كان العامل الحاسم... وليست يهوديتي، وكانت إنجي من بين أعضاء التيار الذي يضع شرطاً للوحدة مع حدتو ... وهو استبعاد هنري من القيادة). استنتاج تأثرت منه... غير أنه يسر على إنجاز المهمة.

كانت الاتصالات من الناحية الفنية مع معتقل الخارجة مصدر إزعاج: مقتضيات المهنة تتطلب المحافظة على السرية، والدقة المتناهية، وأيضاً التصرف بحذق. وهنا تصبح العناصر التي تلفظها الأسر الميسورة في مصر في وضع غير مميز ... يطلب منها تنفيذ عمل شاق!!. لذلك كان من الضروري بعد فك طلاسم الرسائل المرسلة بالحبر السري من باريس، وإعادة كتابتها على ورق السجائر الرقيق (صقلنا في هذا العمل) اختراع المزيد (هل تتذكر يا زميلتي العزيزة !) عمل مضني أنجز في إعادة تغليف الكتب، وصناديق الشوكولاته لإخفاء الرسائل المتبادلة. ومايوه عصبية[118]. مكثنا الليالي الطوال ننجز هذا العمل (كانت عملية الهرب من السجن أسهل).

وكاد الاتصال مع الضباط أن يكون لعبة أطفال: تنظيم استلام البريد، فك الرموز والشفرة، وإعادة كتابتها على ورق عادي، ثم تسليمها إلى عثمان. كنت أتقابل معه كل يوم على أية حال. بل عدة مرات في اليوم الواحد بعد أن توقفت المراقبة السرية التي كانت موجودة في البداية. حدثت فقط حالة إنذار واحدة بوجود خطر: فقدت إحدى صديقات

---

118 مايوه أخت جويس (انظر كتاب جيل بيرو).

والدكم أعصابها من كثرة ترددي ذهاباً وإياباً على مكان سكني، وفتشت حاجياتي ثم تشاجرت معه. وقلق "بابا" من ذلك، وأبلغني أنها هددته بإفشاء نشاطي للسلطات. وكان هذا مضحكاً !

وأقل إضحاكاً التعامل مع محرم: فلقد هبط على في مكان إقامتي على سطح العمارة دون مقدمات، بعد أن اختلف مع المجموعة، وتشاجر مع أعضاء المباحث الذين جاءوا لكي يلقوا القبض عليه، وهو ما زال على سطح المركب (نجح في التخلص من بعض الأوراق في المرحاض) ومشاجرة أخرى ثالثة مع أبويه. ولكن بفضله (كان ينتمي إلى قبيلة صعيدية حقيقية)، حصلت على معلومات حديثة عن المقاومة، أكملها محمد الجندي في المساء وهو يمثل حلقة الوصل المباشرة مع حدتو. وعلمت أن الشيوعيين شكلوا لجان قاعدة، بل معسكرات تدريب أيضاً، انتظاراً لصدور قرار السلطات بتوزيع السلاح. وكانت غرفتي على السطح تقوم بوظيفة مكتبة هنري القديمة، بعد ساعات الإقفال. كنا اثنان فقط من المقيمين في هذه الغرف الموجودة على السطح ... المستأجر الثاني يكاد لا يلاحظه أحد إلا يكون في المطبخ المشترك ... ويعود في ساعات متأخرة من الليل.

كانت الأجواء العامة مشجعة: كلف عبد الناصر خالد محي الدين بإدارة صحيفة يومية جديدة مسائية (جريدة المساء التي ظهرت في أكتوبر ١٩٥٦ حتى مارس ١٩٥٩)، واستطاع بعض المناضلين تخريب أنبوب النفط الذي كان ينقل النفط العراقي إلى البحر الأبيض المتوسط، عابراً الأراضي السورية، وأعلنت المملكة العربية السعودية وقف صادراتها النفطية، وهبط سعر صرف الجنيه الإسترليني هبوطاً حاداً، وواجهت المناقشات المحمومة التي دارت حول وحدة المنظمات الشيوعية صعوبات، ولكنها في نفس الوقت حققت بعض التقدم. وأبلغت في هذا الإطار بمشروع وصول هنري سراً إلى مصر. وطبعاً بفضل تواطؤ أحد الشركاء (وهي شخصية مذهلة مرتبطة بهنري ... تستحق أن تسرد حياتها لتكون مادة لفيلم كرتوني ... كان يدعونا لتذوق المحار اللذيذ ... مستمعين إلى ما قام به من عمليات ... يريد أن يقصها في وجودي !)، كان من المفروض أن يأتي هنري سراً إلى مصر... وبدلاً من وصوله ... أرسل إلينا جهازين طباعة رونيو. لم نستطع حتى استلامهما: فلقد اختفيا في قبو عمارة سرا في بورسعيد التي تحولت إلى ساحة معركة في ٦ نوفمبر... يوم الإبرار... بعد قصفها بالقنابل. وانتهت مغامرة الغزو بالفشل الذريع. ولم يتسع الوقت للزملاء في معتقل الخارجة ليفسروا الأمر للسلطات... أنه مع أو بدون تصريح ... سيغادرون معتقل الواحات للقتال: فقد قبل ايدن وموليه أول أيام الغزو... بوقف إطلاق النار. وعلمت وأنا في القاهرة بأننا انتصرنا في المعركة (لم يساورنا الشك في ذلك أبداً) وعندما كان كل شيء قد وصل إلى درجة الغليان ... أعلمني

عثمان أن الاتحاد السوفييتي أرسل (في ٥ نوفمبر) إنذارات لكل من إسرائيل، وفرنسا، وبريطانيا العظمى مهدداً إياهم بالتدخل العسكري في حالة عدم احترام أمر وقف إطلاق النار الصادر من الأمم المتحدة في (٢ نوفمبر). وكانت هذه مناسبة أخرى لحدوث مشاحنة مع عثمان الذي كان مقتنعا تماماً من الناحية الوطنية بأنه لا مانع من إشعال حرب عالمية من أجل إنقاذ مصر. ووصلت قوات الأمم المتحدة واحتلت مواقعها في الخامس عشر من نوفمبر، عشية عيد الميلاد. وكانت قوات الغزو قد غادرت الأراضي المصرية، وبدأ تطهير قناة السويس عشية يوم رأس السنة. وأدارت القوتين العظميين الأزمة بدون مزيد من العقبات (وقت كاف للتنفس قبل اندلاع الحرب الباردة[١١٩]).

لا تبعث هذه المدينة العظيمة ... مدينة القاهرة على القلق حتى أثناء الحرب .... أحتفظ بذكرى جو جاف، وأمسيات تضيئها النجوم التي تتبع غروب شمس وهاج ... أستمتع بِه من فوق الشرفة التي توجد فيها غرفتي. أحياناً من بعيد وأيضا (من مسافة قريبة... عندما نضطر إلى النزول من على الأوتوبيس، والاختباء خلفه، ونحن في طريقنا إلى الإسماعيلية ... بغرض البحث عن أماكن اختباء لهنري)، كانت الصواريخ المضيئة للسماء تترك وراءها أذناباً كالنجوم المتهاوية لتبتلعها الصحراء. وساعة الأخبار... ورغم التعتيم التام ... كانت الساحات تعج بالناس. نتكدس في مجموعات حول أكشاك بيع الجرائد لسماع راديو موسكو، وراديو بكين (بالعربية) ...! الإذاعات الوحيدة التي كنا نثق فيها. آه كم أحب هذا الشعب ... شعب القاهرة !

أتطلع مثلكم يا بناتي إلى الراحة في فترات القيلولة في نهاية موسم الصيف (فحتى نوفمبر لا تزال القاهرة في جو الصيف). وأنتما تفترشان الأرض ... بينما أقرأ عليك يا جميلتي نيفين الحنونة، رواية (والحديد طرقناه) بينما تقوم ما يرول بلا توقف بتسريح شعر محرم، والرسم على وجهه بأقلام ملونة . نعم حنين قوي. ثم تعتري ذلك ذكريات أخرى .. ذكرى بداية التوجهات الشوفينية الغبية التي اعتورت اليسار.

ولأول مرة ينتابنا الشعور بتحلل عالم وتفككه إلى لا شيء. ولم يكن هناك ما يبرر اشتراك إسرائيل في عدوان عام ١٩٥٦: انهارت الآمال في التوصل إلى حل منطقي في المنطقة، ... دون أن يكون هناك سبباً آخر واضحاً إلا الرغبة في العمل في خدمة القوى الكولونيالية.. بصورة أو بأخرى ... مجرد محاولة العمل كمرتزقة لحسابهم. فضلا عن ذلك يقال أن إسرائيل وضعت حملة السويس فيما بعد في إطار استراتيجية

---

119 ويعلن الرئيس الجديد الذي تربع على قمة السلطة ... أيزنهاور ... عن مذهبه (في حالة العدوان ... الشيوعي ! في المنطقة ... ستستخدم القوة المسلحة)

للفصل ... بدأتها عام ١٩٤٨. للتخلص من السكان الفلسطينيين. واتهم آخرون عبد الناصر... بإبداء استعداده للتفاوض (سراً) مع مبعوثين إنجليز، وأمريكان للحصول على السلاح والقروض. غير أنه مهما كانت خلفيات تفكير البعض: فإن تصريحاتهم الإيجابية (ذهب بن غوريون إلى درجة التصريح بأن إسرائيل "لن تلتقط حبات القسطل من على النار من أجل عيون الغربيين") دفعت عبد الناصر إلى اعتبار هذا الإعلان بمثابة مؤشر على إمكانية تحقيق السلام, ويشجع مشروع تسوية الصراع من خلال عقد مؤتمر دولي. وعندما حدث العدوان عدنا إلى المربع الأول.

وبالعدوان خسرنا جميعاً.

أوقف الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ تماماً بدء المباحثات السياسية بشأن التمثيل الشرعي. وشكل الخديوي إسماعيل (تحت ضغط النخبة) مجلس نواب، ونفذ خليفته توفيق عملية إدخال الإصلاحات المالية التي طالب بها الأوروبيون دون استشارة أحد. وقبل العدوان الثلاثي ... كانت الفرنسية بعد العربية هي اللغة الأكثر انتشاراً بين صفوف النخبة المصرية، وبعد العدوان حلت الثقافة الأمريكية محل الفرنسية. ولم يكن لعبد الناصر شأن في هذه المسألة: وبعيد العدوان مباشرة التقى عبد الناصر "آندريه فيليب" و"بيير كوت" (بواسطة ثروت عكاشة الذي كان على اتصال مع هنري). وكان ذلك إيذاناً يقطع الصلات بقسوة مع التوجه الثقافي الكوسموبوليتي للمدن الكبرى في مصر.

وكانت إجراءات التمصير تنفذ ببطء حتى هذه اللحظة ... وهي الإجراءات التي تم إبرامها عام ١٩٣٧ في مونترو ... ودون توتر: ولم يكن هناك ما يمنع بقاء الرعايا المحليين، والأجانب في البلاد، متى أعلنوا قبولهم الواقع الجديد. ويصبح من هنا فصاعداً التقاضي أمام المحاكم، والمعاملة الضريبية واحدة للجميع. واتسعت رقعة الجهود المبذولة لتعريب شباب هذه الطوائف... وتبعتها الأرستقراطية الناطقة بالتركية. ولم يقلل ذلك من قيمة معرفة اللغة الفرنسية. بل على العكس. اعتبرت معرفة الفرنسية عملية مثرية للثقافة المصرية. وكانت فرنسا الخاسرة. ونحن كغيرنا كنا معها في نفس المركب. ودون تحقيق شيء. وسقطت ابتداء من هذه المرحلة, الحركة الوطنية في مستنقع التوجهات الوطنية الشوفينية، كما دفعت بعد مغادرة "الأجانب مصر" ... جزءا هاما من النخبة القبطية للمهاجرة.

نوفمبر ١٩٨٣

وأكمل العدوان الثلاثي تشتت أسرتي: بعد أختي إيريس التي أقامت في إيطاليا، وأخي جو الذي هاجر إلى البرازيل (بلد زوجته الثانية) ... جاء دور نيللي للمغادرة. حتى ذلك الوقت لم يكن هناك سبب وجيه يدعوها لمغادرة مصر: كان زوجها على رأس

مؤسسة أسرية هامة. ولم يكن لسقوط الملكية أي تبعات على وضعه. ولكن حرب السويس قلبت الأمور رأساً على عقب: فهو يهودي إنجليزي... وأعتقل "إميل" ... وصودرت ممتلكاته (وهو من ألطف الرجال ... لم يتوقف عن أن يقص علي النكات المضحكة أثناء اعتقاله، دون الشعور بأي مرارة، مع بقاء نفس النظرة الحميمة التي ينظر بها إلى مصر والمصريين).

وبلغ عدد اليهود من جنسيات أجنبية من المطرودين ١٨ ألف. وتخلص أحد أعمامي في المزادات من الأثاث والسجاد واللوحات التي كانت لأمي، بثمن بخس، وسلمت هذه النقود إلى أختي الكبيرة (الأزمات والحروب مصدر كسب للمضاربين). وتظل مع ذلك بقايا مودعة عند البعض، وفي النهاية اعتبرتها هدايا، وانتهى المطاف بسجادة فارسية وصلت عند "روزيت" في باريس! (وفيما بعد ... وفي أعقاب اعتقالي لمساندة المقاومة الجزائرية، وبسبب ذاكرة يشوبها الضباب أحيانا عند "سوسو" ... فقدت صوري الشخصية، ومجوهراتي التي أهدتني إياها أمي ... ويظل معي خاتم أحتفظ به بعناية شديدة).

وقد تأثرت طبعاً من جو التردي المنتشر، وتفادى أحد المقربين السلام على أختي، وزوجها قبل مغادرتهما ... وقد اتهم بالباطل ... وكان يعلم ذلك تماماً ... (بالصهيونية)، وكان أمامي الشيء الكثير مما ينبغي عمله، مما لم يترك مجالا لتتأثر بها نفسيتي .

ولأضمن ما أسد به رمقي ... عملت في وظيفة مدفوعة الأجر كسكرتيرة للرابطة الدولية للقضاة ومقرها القاهرة (ثلاثة فترات صباحية في الأسبوع ... تبدأ بانتظام بتناول القهوة بالحليب في محل برازيلين كوفي)، واستكمل هذا العمل بوظيفة ثانية (ثلاثة فترات صباحية أخرى) في مكتبة (دار النشر) التي امتلكها لطف الله سليمان الذي نزل لتوه من أعالي قمم التوجهات السيريالية ليصبح تقريبا عميد التروتسكيين في مصر ... وأحتفظ له بذكريات طيبة جداً[١٢٠].

أما فترات ما بعد الظهر فكانت مخصصة لبناتي، فضلا عن بعض الأمسيات أحيانا، وأكرس الليالي للعمل النضالي السري. كنت تنامين عندي كثيراً... هل تتذكرين ذلك يا مايرول ... بسبب ارتفاع درجة حرارتك ... وكانت تنخفض درجة الحرارة عندما تمكثين معي...! وكاحتياط ... وبسبب الربو، استأصلنا منك اللوزتين (كانت مستشفيات ذلك الوقت صارمة في إجراءاتها، غير أني استطعت أن أحصل على تصريح لقضاء

---

120 توفي في باريس في ١٨ ديسمبر ١٩٩٤ عن عمر يناهز ٧٦ عاماً ، كنت قد رأيته مرة أخرى في الجزائر ثم في باريس هنا وهناك وينتابني مشاعر عاطفية قوية عندما أتذكره.

الليلة في غرفتك، عزيزتي الصغيرة الحزينة التي ظلت دائماً متخوفة). وتوقف هذا الروتين بسبب الزيارات التي كنا نقوم بها إلى المسجونين وانشغالنا.

ولم يستغرق الذهاب إلى سجن النساء في القناطر الخيرية (سجن القناطر) سوى بضعة ساعات. كنت أتردد عليه لزيارة ميمي، محملة بالطرود (التي تسلمني إياها ليديا) والرسائل: وبفضل مبادرتها في تقديم الخدمات، ودروس العزف على القيثارة، تمكنت من أن تقيم علاقات مع نزيلات في سجون أخرى.

رفضت هذه الزميلة الحنونة الموافقة على اتخاذ خطوة لا إنسانية (وكان موقفها غير سياسي)، بعد صدور تعليمات بمقاطعة السجينة الوحيدة الصهيونية في العنبر... ولم يكف رفيقها عن إزعاجها معنوياً بهذه المسألة وبلا معنى ... فلقد صدر حكم ضدها (وهي ليست معتقلة) وكانت ستمضي مدة الحكم (٨ سنوات) ثم تنفى بعد ذلك خارج البلاد. وذكرته بهذه الحقيقة في يوم الزيارة التعس عندما صاحبني أثناءها كمال عبد الحليم، رفيقها !.

ومنذ بداية الاعتقالات بالجملة، كان مسؤولاً عن نشاط حدتو خارج السجون. وبينما كان في العمل السري تحديدا... رسخت في رأسه فكرة... وهي (بما أنهما قد أضافا معنى لحياتهما معاً، إلا أن التحولات الضخمة التي أصابت المجتمع من جراء العدوان الثلاثي جعلت قصة حبهما قصة غير مقبولة) و(ميمي كانت يهودية من الأشكيناز، وكمال كان من البورجوازية الريفية الصغيرة). وأصر على أن يبلغها بذلك فوراً. وكم حاولت استعطافه لكي ينتظر خروجها من السجن ... إلا أن حججي ذهبت هباء منثورا. ففي ذلك اليوم ... يوم الحزن الكبير حدثني في طريق العودة من السجن بما كان يعتوره من صدمات مرضية فصامية ... فقد كان يقرض الشعر... وهو يحدث الطيور..!

وكانت الزيارات إلى معتقل الخارجة (وهي واحة تقع في الجزء الجنوبي من الصحراء الغربية) تحف بها مغامرات مثيرة.

نقل الزملاء بعد قضاء فترة عصيبة في جحيم ليمان أبو زعبل من الموجة الأولى المحكوم عليهم بعشر أعوام أشغال شاقة إلى ما كان يسمى بمعسكر قبل أن يصبح سجناً الآن. وعندئذ تحسنت تدريجيا ظروفهم المعيشية، وأصدروا نشرة يومية، وأؤكد أنها كانت مقبولة جداً: ونجح ألبيرآرييه "تيتي" في زراعة الخضراوات في تربة رملية[121]،

121 بعد الإفراج عنه ... عمل على زراعة الزهور والخضراوات وقام بالتجارة فيها.

وارتقى شريف بمهاراته كخباز، وعزز ألبير كوهين من إمكانياته الفنية[١٢٢]، الجميع يتناقش ... ويكتب كثيراً (لم نتوقف ... مايوه وأنا عن إرسال التقارير عن أحوالهم إلى باريس). كان يصرح لأفراد أسرهم بالزيارة. وكنت أذهب لزيارة شريف في السجن على أني أخته (كان الأمر سهلاً: لم تستعمل في ذلك الحين بطاقات شخصية ... ولم يزوره أحد من أسرته في معتقل الخارجة!!).

وتتطلب زيارة معتقل الخارجة التغيب عن القاهرة مدة خمسة أو ستة أيام، لزيارة لا تتجاوز بضعة ساعات. وكانت الرحلة بالقطار إلى أسيوط عادية شيء ما، ونتوقع احتمالات العطل التي تضطرنا إلى قضاء الليل في عراء الريف الفسيح نلتحف بالسماء ... ندوس بأرجلنا على أجساد النائمين الممددة للوصول إلى المكان ... الذي لا يسمى لنقضي حاجتنا فيه وراء باب مقفول (كما هو الحال في بقية أفريقيا ... ونقع فريسة الإسهال بسهولة في مصر). وبعد أن نترك أسيوط وراءنا ...لا يرتبط سير القطار بأي جداول زمنية. نحن تحت رحمة قطار قديم لنقل البضائع، ونحث القطار على المضي في السير ... كما لو أننا نصيح لحث دابة على السير ... تهتز أجسامنا باهتزازاته، ونتصبب عرقاً لأقل مجهود، بينما لا يوجد إلا هذا الأسلوب للسفر إلى الواحات ... وهو المكوك الأرضي الوحيد الذي يربط أسيوط بالواحات الخارجة. وعند أدنى ارتفاع في سطح الأرض ... نغادر القطار في محاولة لتخفيف حمله ودفعه إلى الأمام. ما عدا والدة "روبير نحمياس" وهي شبه قعيدة ... وضعناها في بداية الرحلة فوق أكياس البطاطس، بعد أن فقدنا الأمل في إقناعها بعدم السفر... لا بأس بما تبقى أطعمة لابنها بعد إجراء عملية القسمة على المسافرين). أما (والدة تيتي فكانت محملة بالأطعمة لدرجة أنه تبقى منها كمية كافية للتوزيع...).

زميلة شابة ذات عيون خضراء جميلة ... روحية ... وهي أصلاً من الإسكندرية ... متزوجة من زميل صعيدي (إبراهيم) وهي مناضلة ديناميكية وعلى درجة عالية من الكفاءة مسؤولة عن قطاع (أسر المسجونين)، وكانت تنظم رحلاتنا. اضطررنا في ذلك الحين أن نمضي ليلة في الفندق، ونصحو في الفجر للسير إلى المعسكر، وكالجميع ننهض من النوم بفرحة... لأننا نعلم أن هجوم القمل علينا سيخف.

---

122 نراه لأعوام طويلة في الاحتفالات السنوية للبومانيتيه في القسم الدولي وأمام المنصة المصرية يقف وراء طاولة عليها مصنوعات فرعونية للبيع قام بصنعها بنفسه.

١٩٨٣

ماذا نستطيع قوله عن عبد الناصر ؟

كنت أشعر بتقدير لعبد الناصر... عشت أساساً بعد حرب السويس خارج البلاد ، إلا أني كغيري من الناس في مصر (أتذكر يوم دفنه). بينما يثير السادات في أحسن الظروف شعوراً بالضيق المخجل لسخافة ما يثيره عندما يتقمص مظهر الأنجلو سكسوني (الغليون، والكلب الولف) . عبد الناصر كان عسكرياً آمراً ناهياً يسعى إلى السلطة بنهم ...غير أنه كان بناءاً وطنيا ... بينما كان السادات يتميز ... فوق كل شيء ... بالتبعية للأمريكان[١٢٣]. ولم أكن له أي شعور حتى أثناء خطابه في البرلمان الإسرائيلي ... وتبينت ما أصاب الجهود السابقة من تدني، ثم المحاكاة السياسة العمياء لسلفه، لا لنقص في الذكاء، وإنما لانعدام حب هذا البلد الذي كان مسؤولاً عنه.

ووجه الشعب المصري له الصاع صاعين بنكاته الساخرة. وبينما كان عبد الناصر يثير المشاعر الدافقة (سواء كان حباً أم كرهاً)، لم يثر السادات إلا هز الأكتاف علامة عدم الاكتراث، وعندما اغتاله المتأسلمون... كان بسبب ما مارسه من قمع ضدهم بعد أن استخدمهم ولفظهم. أما الشعب المصري فلم يصحبه إلى مثواه الأخير...

غير أن الغرب يحب التعامل مع العملاء.

ولم أعرف شخصياً عبد الناصر. ولم يكن من بين مجموعة المقربين الذي كان يخطط معهم عثمان. ولكن بعد الانقلاب، لم نتوقف عن الحديث عنه: وبارتياب ... ودون إعجاب ... ودائماً بعواطف مشحونة. كان مِلكاً للمصريين. مقرباً منهم إلى أقصى الحدود. وكان أول القادة الذين تحدث إليهم مباشرة.. عن كل شيء وباستمرار وبلا توقف. بصوت كأنه يخرج من أنفه وبابتسامةِ تضايق. مكروها من معارضيه... الذين عذبهم في موجات متلاحقة.

ومرة أخرى ومن جديد أعتقل قادة الشيوعيين في مساء ٣١ ديسمبر إلى ١ يناير ١٩٥٩ ... وضربوا بالسياط ... لموقفهم المؤيد لعراق قاسم. حتى إسماعيل صبري عبد الله الذي كان قد عين في منصب قيادي للتخطيط الاقتصادي والاجتماعي. مكروه نعم ... ولكن لم يكن عبد الناصر محتقرا أبداً . كان بناءاً بهيبة محمد علي. ويعرف كيف يبكينا.

---

123 تحدثنا جريدة واشنطن بوست في ٢٤ فبراير ١٩٧٧ عن أنه كان يتلقى دخلاً منتظماً من وكالة الاستخبارات الأمريكية منذ الستينات ... عن طريق مدير المخابرات السعودية . وأطلعني هنري على المقال وأرفق بذلك ملاحظاته الساخرة حول التسخين النفسي الذي قام به السوفييت لهذه الشخصية حتى يتمكنوا من تبرير قطع الصلات معهم على حين غرة (كان قد طرد جميع الخبراء في ١٩٧٢).

وشاهدته يمر واقفاً إلى جانب بن بيلا في سيارة جيب مفتوحة استقلها من الميناء على طول شارع بن مهيدي عام ١٩٦٣ ...و شعرت بعاطفة متأججة وقوية عندما ساند كفاح ثوار ستانللي فيل. وأستشيط غيظاً عندما يعلن في التلفزيون قراره بالتنازل بعد النكبة التي حلت إثر الهجوم الإسرائيلي في يونيه ١٩٦٧[124].

ولكن ما الذي نقوله عن الناصرية ... لست متأكدة تماماً من أن مناصريه يقتنعون بأنها

لا تعد نظرية ولا تنظيرا، ولكنها تمثل ممارسه عملية. وعبد الناصر (مثل بن بيلا او بو مدين) لا ينتمي إلى فئة المثقفين كما كان حال القادة الآسيويين، والأفارقة المناضلين ضد الكولونيالية (استوعب الجيش ... في ذلك الحين ... من لم يحصل على الدرجات المطلوبة للالتحاق بالكليات الجامعية التي تعد لشغل الوظائف الحكومية المدنية). كان مختلفاً عن طه حسين المنفتح على العالم الذي يدعو إلى (ثقافة وطنية وإنسانية).

غير أن ممارسته الديكتاتورية كانت تخدم أهدافاً وطنية رئيسية. أولاً الكرامة الوطنية: استعيدت مع الاستقلال السياسي الذي ضمن تصفية القواعد العسكرية البريطانية مع رفض جميع التحالفات العسكرية الجديدة. وكان عبد الناصر مع نهرو وتيتو أحد الدعاة الكبار للحياد الإيجابي، ولحركة عدم الانحياز. والصعود الاجتماعي الذي تبع ذلك ... حفزته الإصلاحات الزراعية التي هزت كيان القوى الاجتماعية (شبه الإقطاعية) وحبذت دعم صغار المزارعين، وتنظيم التعاونيات. ثم بناء السد العالي في أسوان الذي طالما وجهت إليه الانتقادات ... وزاد من المساحة المزروعة ... وأساساً مد الشبكة الكهربائية حتى غطت مجمل البلاد. وإذا كانت حركة التأميم قد أثرت على المنشآت المتوسطة أيضاً (وكانت دون شك في مصلحة البيروقراطية العسكرية)، فعلى الأقل كان تطبيق الحد الأدنى للأجر ، والتأمين الاجتماعي للعمال ... وحتى هذه اللحظة إتباع أساليب تأمين فرص العمل لحملة الدبلومات ... كانت كلها عناصر أحدثت انقلاباً في العقليات. واكتسب العمال والفلاحون حقوقهم .. ولم يعد الجامعي في حاجة إلى اللجوء إلى الوساطة. ولأول مرة يتولى قائد البلاد تفسير الأمور علناً. ولأول مرة لم تعد هناك خيانة (صحيح يا تيتي تطبيق هذا البرنامج ... الذي استعارة من الخطاب الشيوعي ... بينما يكدس الشيوعيين في السجون... عند أول بادرة أزمة... لم يكن أمرا مقبولا).

---

124 في الغرب لم يشجب هذا الاعتداء سوى ديغول.

انشغلت بالمهام العاجلة (الإعداد لتهريب شريف عام ١٩٥٨ من مستشفى القصر العيني ... الذي ألغي فيما بعد لاعتبارات سياسية)، ثم إزعاج إداري (إصدار تأشيرة خروج) لم أتلمس مشاعر كرامة جديدة مكتسبة أثناء فترة إقامتي بالقاهرة بعد حرب السويس. إلا أني تعجبت كثيراً من سرعة التحرك الاجتماعي: أصبح أصغر الخدم النوبيين في فيلة عدس موظفاً في البنك الأهلي ... أما بنت الخادمة (كانت هذه هي العبارة المستخدمة) في أسرة حتاتة تعد نفسها لامتحان البكالوريا. وعندما أفرج في ١٩٦٤ عن جميع زملائي وخاضوا من جديد بقوة غمرة النشاط ... أدركت عمق التغيرات الحادثة. وعندما توجهت في نهاية اليوم إلى محطة باب اللوق لمشاهدة (بناء على توصيتك يا شحاتة) خروج عمال مجمع الحديد والصلب في حلوان من القطار، عائدين إلى مساكنهم في العاصمة: مرتدين ثياب لا غبار عليها، ومتيقظين ... وسلام الجسم (أيامي كانوا مهلهلين وهزيلي البنية) يتدفقون على الميدان دون تدافع (يطالبون باحتلال المصانع في ١٩٧١ والإسهام بفاعلية أكبر في إدارة المشاريع، وقد جذبوا إلى حركة إضرابهم عمال شبرا الخيمة... قمعهم شرطة وجيش السادات).

عجباً ... حولي صحفيات وكوادر نقابية وزميل (علي الشلقاني) يتولى تدريب الكوادر في حزب عبد الناصر ! وفي موازاة ذلك يلقى الشباب المثقف في السجون لمطالبتهم بحرية التعبير.

انضمت كوادر الشيوعيين في ١٩٦٥ للحزب الواحد (الاتحاد الاشتراكي العربي)، بعد أن قاموا بحل حزبهم. وفي ١٩٦٣-١٩٦٤ وبينما كنت في القاهرة لأستقبل خروج شريف من السجن، حضرت مناقشات أولية... لا سيّما مع خالد محي الدين (بصفته ممثلاً لقاعدة اليسار العريض): فلم يعد الأمر يتعلق بثقة عمياء، بل اقترح عبد الناصر خلق نواة قوية سرية لحماية الكوادر من بوليسه السياسي نفسه (أتوقع من شريف... أن يدون مذكراته، لأنه كان قد انضم إلى حزب عبد الناصر). وأعد المسرح لكل شيء بعد وفاة عبد الناصر في ١٩٧٠ حتى تتمكن شريحة اجتماعية طفيلية حديثة ... مرتبطة بالبيروقراطية العسكرية، من أن تتمكن من خلال عمليات الإجهاض، والسلب أو التهريب، من الاستحواذ على جزء من الثروات المتراكمة من نتاج عرق جبين العمال ... وباسم الانفتاح ...

سجلت عند مروري بالقاهرة عام ١٩٧٥، بداية الهاوية التي أطلت برأسها بعد عامين فقط من الهياج الشعبي لجموع الجياع. صحيح لم يعد يتجول عاطلون في شوارع القاهرة دون هدف، كما كان الحال أثناء فترة الحكم الملكي (حارس الليل في الفندق يعمل في وظيفة في الإدارة ،وكبائعٌ في باقي اليوم في محل خردوات يتردد عليه السائحون)، ولم تعد تحتشد مجموعات بشرية من الرجال التي تعيش حياة خاملة كما كان الأمر في

وما زلت (حتى هذه اللحظة) أضع ثقتي فيما يمتلكه البشر من ذكاء ..
غير أن ما يقلقني اليوم هو انتشار التوجهات الفردية، ومظاهر مرض العصاب السياسي.
ولد عالم مختلف عندما اندلعت حرب الخليج، وانتهى الاتحاد السوفييتي...

وإليكم بعض ما كتبت آنذاك في كتابي المنشور بالفرنسية:

باريس، مارس ١٩٩١

لم أستطع العيش مع تداعيات حرب الخليج،.. وكانت انعكاسا لتردي أوضاع المجتمعات المختلفة على كافة الأصعدة.

اشتركت في المظاهرات لأول مرة بعد انقضاء أكثر من نصف قرن من النضال ... لم أشعر بانتماء إلى أي حركة تهدف إلى تحقيق مشروع تحرير مثلا أو(بناء دولة، أو تحرير اثني، أو مساواة بين الجنسين)... ولكن اشتركت فقط عندما انتابني شعور غامر بفظاعة ما يجرى حولي... شعور بالغم. أو بمعنى آخر...ما يجري من أعمال لا تفيد كثيرا في شيء.

أتساءل... كيف يمكن أن توضع الأسس السليمة لكي تشيد عليها العلاقات الإنسانية بينما تقترف قوة اقتصادية وعسكرية عظمى على نطاق الكوكب... (وهي من أكثر القوى مغالطة)... المجازر البشعة تحقيقا لمصالح نفطية... ثم إذ يعلن رئيس جمهورية فرنسا ... (البلد المدافع عن حقوق الإنسان) دعمه الرئيس بوش (من باب واجب الحليف الأخلاقي، والسياسي، والعسكري)!.

ونسمع أصداء اعتراض المندوبين الاشتراكيين الفرنسيين على هذه الحرب... ثم تطالبهم بعد ذلك حكومتهم الاشتراكية ..بكل لطف.. المحافظة على الانضباط أو مغادرة صفوف الحزب...

وقفزة جديدة في الفضاء الهستيري المشحون باتهامات الشيطنة التي يوجهها رئيس دولة تبيد بالقنابل المدن والسكان باسم القانون ... ويمجد القوة المسلحة العدوانية. وفي مقابل ذلك نسمع صياح التأييد الذي ينطلق من حناجر شعوب مقهورة كالقطعان!

تحركت في فرنسا مظاهرات حاشدة تطالب بمنع التورط في هذه الحرب, وتنادي بإقالة "جون بيير شيفينمان" وزير الدفاع، وتردد على أسماعنا من الولايات المتحدة الخطاب الوحيد المصاب بجنون العظمة ... خطاب جورج بوش الصغير.

غير أننا سندفع ثمن هذه الحرب غاليا....

وتذكرنا تداعيات حرب الخليج بالعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦،

مدن الجزائر ... ولا يتعلق الأطفال المتسولون بتلابيب المارين في الطريق كما هو في مدينة فاس المغربية البورجوازية الغنية. ولكن نشاهد تقريباً في كل مكان ... فتيات في سن الذهاب إلى المدرسة يبعن بضاعتهن من على عربات الفاكهة والخضراوات، ويعبرن شارع البستان بعجالة (في الحي الأوروبي القديم)، وكالمشدوهة ... تمر (عربة كارو) يقودها طفل يرتدي أسـمالاً. عودة مرة أخرى إلى الماضي [١٢٥]؟ وبدا كأن مصر السادات فقدت مرجعية الحركة الوطنية. بل هددت أيضاً حرية انتقال الناس في الشوارع في المساء منذ أن تردد الليبيون والسعوديون على العاصمة للعلاج ... حاملين معهم بضعة دولارات نفطية، وعقد نفسية جنسية، بل يحكى أيضاً أنهم كانوا يختطفون الشباب، ويركبونهم بعد منتصف الليل عنوة سياراتهم الأمريكية الفارهة.

وانصبت المناقشات في محيط الزملاء على إعادة ترتيب الخارطه السياسية في مصلحة الحرية الجديدة التي تنادي في عجالة بأن يتم هذا الترتيب داخل الحزب الواحد. وتجمع اليسار القانوني في (منتدى) يقوده خالد محي الدين.. الماركسيون، والناصريون، والليبراليون اليساريون، والإسلاميون الذين يزعمون انتمائهم إلى الاشتراكية، والقوميين العرب (لا زالوا ناشطين ... رغم الوحدة المهزوزة مع سورية، والمنافسات مع العراق، والحرب القاتلة في اليمن، ونكبة ١٩٦٧ ... ومع استمرار القناعة بأن نشر الحضارة مسؤولية تقع على عاتق مصر ... وأنها تلعب دور الريادة الثقافية في المنطقة... وهذه حقيقة، ولكنها حقيقة تجافي الوضع سياسيا في هذا الزمن... زمن البترو دولار). وأصبح حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي (التجمع) مستقلاً وتطور حتى صار حزبا للمعارضة اليسارية يعرب عن آراءه في الجريدة الأسبوعية (الأهالي)، واضعا نصب عينية هدفاً عاماً ألا وهو تعميق ثورة ١٩٥٢، في إطار الحريات الديمقراطية.

كان حلم عبد الناصر (أولاً تنمية البلاد، وتوصيل الكهرباء إلى القرى، وتوفير العمل للجميع، هذا ما كان يردده) وكان هذا حلمنا أيضاً. لن نجادل أحداً في أن الشيوعيين وذوي المنحى الاشتراكي، جزء لا يتجزأ من الحركة الوطنية، قد وفروا له المادة اللازمة للتفكير في مشروعه. غير أن عبد الناصر لم ينأى عن الخوف من العمال المنظمين (العمال، والمهنيين) وحلفائهم (الطلبة) والمدافعين عنهم (الشيوعيين) وانتاب هذا الهاجس ... كل من وضع يده على السلطة في مصر طوال القرن الماضي. ووضع مشروعه موضع التنفيذ العملي مستعيناً بدولة سلطوية أضفت على كل شيء الطابع المؤسسي، بما

---

125 كما قال حسن الحسيني (أطفال القاهرة، ١٩٩٢) استغلال اليد العاملة من الأطفـال (٦-١٢ سـنة) أصبحت مرة أخرى حقيقة واقعة بما في ذلك عملهم في مصانع الدباغة.

في ذلك الدين، مستعيناً بأدوات القمع عندما لا يتمكن من تحجيم النقابات أو الحصول على المعلومات الاستخبارية. أنتظر صدور مذكرات خالد محي الدين[١٢٦]، الذي يمثل التوجه الديمقراطي لليسار داخل مجلس قيادة الثورة، لكي أمتلك العناصر اللازمة لفهم السبب في هزيمة هذا التيـــار.

يزعم ... ومنهم الشيوعيون في المحل الأول، أن دور الفرد لا يعد حاسما في مسار التاريخ ... لذلك لست متأكدة من أن الشيوعية المصرية كان بوسعها أن تكون شيئاً آخر إن لم يطرد هنري بالقوة من بلده الأصلي؟

كان يردد أثناء اللحظات التي تميزت بصفاء ذهن كبير، أنه بصورة أو بأخرى (نحن التيار اليونسي) كان بوسع السلطة أن تصفينا أو أن نصفي أنفسنا بأنفسنا ! وفي أزمنة أخرى كانت التصفية تصفية جسدية. وبعد حرب السويس، أصبح هذا الاحتمال احتمالاً نظرياً: ولدى عودتي إلى أوروبا في مطلع خريف ١٩٥٧ حملت خبر ... أن الحزب الشيوعي المصري[١٢٧]، قيد التكوين سيبعد (يونس) عن القيادة.

---

126 نشرت دار النشر التابعة للأهرام المجلد الأول (والآن أتكلم) في ١٩٩٢

127 شكلت لجنة في ذلك الوقت للتنسيق بين الحزب الشيوعي المصري الموحد (توجه حـــدتو) والحـــزب الشيوعي المصري بقيادة فؤاد مرسي واسماعيل صبري عبد الله، والطليعة العمالية، وحدث انـــدماج المنظمـــتين الاولتين (لتكونا بذلك الحزب الشيوعي المصري المتحد) ثم اتحدت واندمجت مجموعة المنظمـــات الأخـــرى في فبراير ١٩٥٨.

الرفيق يونس

نوفمبر ١٩٩١

ما كان بوسعنا أن نفهم شيئا عن هنري لو لم يكن يرتدي ثوب الثوري المحترف بالسليقة، ... فلقد تربى لدى طائفة الجيزويت الدينية وبروح مثل قالب مزجت فيه مجموعة من الفلسفات المشبعة بالنموذج العالمي للثورتين الفرنسية والبولشيفية، مستقل سياسيا في عالم ينقسم إلى دول ... إنساني إلى أبعد الحدود، مغرم بالعمل الملموس المباشر، الذي كان يصحح مساره بعد حالات الفشل والعثرات. ولهذا كان من المحتم أن يتخلصوا منه بتصفيته جسديا.

يحتل هنري كل مساحة ذاكرتي. غير أني وجدت نصين من بين ما كتبته ... أحدهما لا يتحدث إلا عنه أثناء إعداد المنصة الأولى لرابطة هنري كورييل في احتفالات اليومانيتيه... والثانية في الفترة التي أعقبت اغتيال جولدمان.

كان يجري نشاط محموم في هذه الاحتفالات السنوية. وكثير من المناقشات بين من يود أن يصبغ على هذه المنصة طابع سياسي تحديدا، ... والواقعيين الذين قبلوا إضافة نشاط – يغطي تكاليف استئجار المنصة – مثل بيع الحلويات الخاصة التي صنعتها أمهات الزملاء المصريين . عمل ضخم لوجستي لبناء المنصة ... عهد به إلى الشباب والنشطاء الذين يجمعون التوقيعات للإفراج عن المعتقلين المصريين، ويوزعون نصوصاً تتناول نشاط هنري (كانت "سمايا" عظيمة حقا كداعية) وتكفلت "مايوه" ببيع الأطعمة اللذيذة ... فضلاً عن من يتدخل في كل شيء (جيهان وجويس وأنا).

لأحد ١٩ أغسطس ١٩٧٩

انتهيت من إعداد المنشور الذي سيصدر عن منصة اليومانيتيه. ورغم موت هنري فلقد ظل ذلك العمل مفيداً للذين يناضلون من أجل هذا أو ذاك من النشـــاط. تعرفــون جيداً يا بناتي. عندما كنتن صغيرات... وأيضاً بعد ذلك بقليل، عندمـــا كنتـــن تحضرن

إلى باريس بين الفينة والفينة. كرس لكما كل يوم بعضاً من وقته. سخي دون تكلف أو تصنع.حساس، يعني بالآخر، ويحترم الشباب.

لم أنظر إليه نظرة مثالية. يصبح من الصعب أن يصنف هنريً أو أن يوسم بشكل ما. بوسعه أيضاً أن يحسب الأمور برباطة جأش ... غير عادل تماما ولا موضوعي عندما يركز انتباهه على شيء أو على أحد. مطالباً دون تنازل ... غير متساهل ... مع الزملاء الذين يعملون دون كلل، يعامل بمرونة عالية المتعاطفين ... لدرجة تضايق حقاً. وأحياناً متكبراً ! وأنانيا ! ويغار ! وكان يعلم ذلك عن نفسه. كان يردد لي بأننا نحمل داخلنا عدد كبير من التناقضات، وأنه بوسعنا أن نصبح ملائكة أو وحوشا، وأنه لن يفيد النواح على ما ارتكبناه من أخطاء أو نضرب أنفسنا بالسياط لنكث الوعود ... ويكفي أن نستعيد جأشنا ... وأن نتقدم إلى الأمام ... ودفع من هم حولنا إلى التقدم إلى الأمام ... وكان هذا ما يفعله تحديداً.

وعندما شاهدته لأول مرة عام ١٩٣٥ ... وكان مقربا من خالتكم نيللي ... كان جزءاً من عالم يعيش فيه (الكبار) وفي مجتمع لم أكن أحبه. ينبغي تصديق ذلك ... فقد كان يتصرف وهو لم يناهز العشرين عاماً كمسؤول لأنه مع بشاشة محياه ... التجأت إليه أختي ليساعدها في البحث عني عندما هربت لأول مرة من المنزل. وفي السيارة التي أعادتنا إلى المنزل بعد أن تسلمني من قسم للشرطة ... كان هو الوحيد الذي يبتسم ... ابتسامة غير ساخرة، يعرب بها عن استحسانه لجسارتنا. وكانت ابتسامته مصدر راحة في هذا الجو المشحون الذي أحاط بي بعد فراري . وبعد ذلك بأعوام ... علمت أن هنري يقود منظمة شيوعية ... وعندما أصبحت عضواً كانت هذه المنظمة تقريباً من إسهامه. وحدثني الكثيرون عنه. واختلط الأمر آنذاك بمجموعة كبيرة متنوعة من التقديرات، تتراوح بين الإعجاب بتفكيره السياسي، وطاقته الثورية إلى إبداء الملاحظات عن حياته، ولم يقبل أحدا منا أن يعبده عبادة الفرد. على النقيض من ذلك كنا نتهكم من توجهاته الجيزويتية عندما نفطن إلى أقل التفاف ومناورة في تفسيراته، وهذا بالفعل هو السبب في أننا أطلقنا عليه اسم (أبونـــا)، ولم يكن هذا أبداً علامة احترام. كما كنا نسخر من روزيت ... زوجته . نشطة جداً لكنها قاسية من حيث النهج الذي اتبعته وسلوكها بصفة عامة، وأطلقنا عليها تسمية (الحمامة الوديعة). وميمي كانيل كانت هي الوحيدة التي تتحدث معه بلغة تمت بوجه خاص إلى التقاليد الستالينية. ولكن ميمي كانت حالة بذاتها.

والحقيقة هي أن هنري كان قائداً سياسياً فوق العادة. سواء في مصر أو في المنفى. وكان يردد: الذكاء لا يكفي، ينبغي مواصلة السير في الطريق الذي اخترناه، وأن نكرس له جهودنا. كان قد اختار النضال الثوري، وكرس له كامل وقته. وطوال حياته النضالية. دون أن يتمكن من الاستناد إلى مؤسسة سياسية قائمة. و كان بوسعه في البداية

أن يتوجه وجهة أخرى بفضل ثروته، إلا أنه تمسك بهذا التوجه لأنه كان يعشق النضال. وصحيح. بسبب حساسيته المرهفة ... وثقافته الواسعة، أستطيع أن أضيف إلى ذلك عبقريته السياسية، لأنه يسارع إلى اتخاذ المواقف مقدماً ويكتشف أنها قابلة للتطبيق، وبينما يظل أليفاً بصورة تبعث على الدهشة ... يستمر في جذب من حوله[١٢٨]. غير أن قدرته على تحويل وتغيير الأوضاع ... وتحمل الضربات رغم الصدمات المتعاقبة ... والتحول فوراً نحو ميادين جديدة للنشاط ... هو ما عمل على التحام البعض به أو تجنبه!. وما زلت أتذكر أني قلت له قبل اغتياله: أن تحت ظروف أخرى كان بوسعك أن تترأس حركة ثورية دولية... أو حزب شيوعي كبير لو كان يمتلك هوية "وطنية"... لا أدري؟ مع مثل هذه الجسارة السياسية، كان بوسعه حقاً أن يجتاح الحواجز. ينبغي أن نعود إلى ذلك فيما بعد.

وفي مصر ... ولم يبلغ بعد الثلاثين من عمره ... تكشف جسارته عن سلسلة طويلة من الأعمال المذهلة... ينبغي أن يتحلى المرء بالجسارة لتكوين منظمة سرية بدلا من أن يقتصر على ممارسة التحليل ... الجسارة عندما يحدد (في ١٩٤٣) في إطار مجموعة صغيرة هدفا أوليا... وهو التحرر الوطني، وليس النضال الطبقي، بينما كان قد تحقق في ذلك الوقت الاستقلال الرسمي (في ١٩٣٦ إلا أن مصر ظلت رغم ذلك تابعة عسكرياً لإنجلترا) فضلا عن أن الحرب لم تنته بعد ضد الفاشية والنازية. ويقول هنري في مذكراته أنه فهم معنى الوطنية في السجن، في أعقاب الصدمة التي شعر بها المسجونون السياسيون من جراء انقضاض الإنجليز بقواتهم العسكرية على سلطة الملك[١٢٩]. وينبغي أن يتحلى المرء أيضاً بهوائيات (أنتينات) على درجة عالية من الحساسية لكي يستشعر بها مشاعر الذين يختلفون معه من حيث الثقافة، وحتى يتمكن من وضع استراتيجية تتعارض مع مصالح الأسرة التي ترعرع فيها. ولهذا ... كان في حاجة إلى الجسارة.

صحيح كان ذلك من باب المصادفة ... فلقد كان هنري متواجداً في السجن مع وطنيين قبل أن يصبح شيوعياً. ولكن لم تكن مصادفة عندما نأتي إلى المسألة السودانية... كان الشعار المرفوع (النضال المشترك لشعوب وادي النيل ضد الإمبريالية البريطانية)

---

128 بينما يتحدث مكسيم روديلسون عن كاريزما ... إلا أنه يخطو في ذلك: إن ارتباطنا بهنري مصدره إخلاصه للقضية ... ولحجم العمل الذي يوفره من أجل التقدم إلى الأمام... وقدرته على تقييم نشاطه، وباختصار، على عكس (الهبة التي يصبغها عليه الآله المعبود) ما عدا ابتسامته.

129 أزمة ٤ فبراير ١٩٤٢ عندما حوصر القصر الملكي بالدبابات البريطانية .

غني عن البيان (كان البلدان يرزحان تحت الاحتلال)، غير أنه تطلب قدراً من الجسارة لدفع شعار (حق تقرير المصير للشعب السوداني) إلى الأمام ... وكان الجناح الأكثر نضالية في الحركة الوطنية السودانية في ذلك الوقت ... هو الجناح الذي كان في الواقع معترضا على الإدارة الكولونيالية البريطانية، ومن ناحية أخرى طالب الوطنيون المصريون (بوحدة وادي النيل تحت تاج واحد !). وطبق مبدأ حق تقرير المصير في الممارسة العملية: انتظم الزملاء السودانيون في قسم مستقل قائم بذاته وأصدروا جريدتهم (أم درمان)، وأكثرهم اندفاعاً (مثل عبد الخالق محجوب) صعدوا إلى مراكز قيادية لاكتساب الخبرة تحسباً لعودتهم إلى السودان وخلق تنظيم خاص بهم.

تطلبت القضية الفلسطينية نفس القدر من الجسارة: استناداً إلى القرار الصادر عام ١٩٤٧ من الأمم المتحدة مؤيداً تقسيم فلسطين إلى دولتين (عربية ويهودية) اعترض هنري وهو في بلد عربي على الحرب التي اندلعت في ١٩٤٨ ضد الدولة اليهودية دولة إسرائيل، ويعتبر هذا تحدياً (ونشر هذا الاعتراض في جريدتنا ... الجماهير). لست أدري إذا سجل التاريخ عملاً من هذا النوع: النضال من أجل تعايش بين دولتين، كان بمثابة الاعتراف بشرعية الحركتين الوطنيتين على أرض واحدة، والسعي من أجل أن يتعايشا في سلام.

ودافع في فرنسا ... منذ نوفمبر ١٩٦٦، أمام أعضاء منظمة التضامن عن مبدأ مساعدة القضية الفلسطينية على أساس الحق المقدس الغير قابل للتصرف للجماعات الوطنية في الوجود الوطني ... تمتع به اليهود دون عرب فلسطين. صحيح ... كان يردد ...(يرفض كل طرف على الطرف الآخر أن يتمتع بحقوقه المشروعة، إلا أننا ننطلق من مبدأ وهو توفير المساعدة والدعم للطرف الذي يتضرر فعلاً من انتهاك حقوقه ... وبهذه الكيفية يمكن الحصول على اعتراف بالحقوق المشروعة للطرف الآخر المعارض[١٣٠]).

ينبغي أيضاً التنويه بالممارسة النضالية لهنري المتحلية بالمرونة، وانعكس ذلك على المنظمات التي كان يوجهها في باريس. وأتذكر: رشحتني إحدى قيادات اسكرا وهي زميلة لي في البنك الأهلي ... علمت ذلك فيما بعد ... كعضو في منظمتها. غير أن لوائحهم كانت تقتضي فترة اختبار لمدة ستة شهور (دون أن يعلم بذلك المعني حيث أن المنظمة كانت سرية). وباختصار ... وقبل نهاية هذه المدة ... أصبحت عضواً في منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطني: وكان يكفي أن يقترح أحد الأعضاء القياديين

---

130 انظر النص الموجود في أرشيف منظمة التضامن الذي يحتفظ به المعهد الدولي للتـــاريخ الاجتمـــاعي في كروكزويج في أمستردام.

حتى تنفذ إجراءات مرنة. وبفضل انضمامي لحدتو تفاديت تبديد طاقتي في الاعتناء بموضوعات مثل النسوانيات أو المناقشات الدينية.

ففي زماننا كانت حرية المرأة لا تعني إلا قلة قليلة من المواطنين في المناطق الحضرية، وكانت الأغلبية الكاسحة من الفلاحات، الواثقات من أنفسهن لدرجة قد تتسبب في تغير سحنة الأوروبيات من الغيرة! (ينبغي مشاهدة كيف تتصرف الفلاحة كما يحلو لها ... وقد وصلت حديثاً إلى المدينة، لكي تبيع الجرائد ... ثم أصبحت فتوة من الفتوات في أحد الأحياء الشعبية...). بينما انتشرت في ذلك الوقت مشاكل مثل الجوع وعدم توفر التأمين الاجتماعي، واستغلال الأطفال، والجهل.

صحيح أن الكوادر كان ينقصها التدريب السياسي ... يخشون من أن يشار إليهم بالمثقفين. على عكس ما كان عليه الحال في السودان، أصبح من الضروري في مصر التعامل مع بورجوازية تشكلت هياكلها الكاملة نسبيا ... تتحكم وتسيطر على النقابات. ولم يهتم هنري (بعد ورشة التدريب التي كانت نقطة بداية المنظمة) بعملية التكوين والتدريب إلا من خلال الممارسة العملية، محاولاً رأب هذه الفجوة بإرسال التقارير النظرية من باريس التي تناولت عدداً من المسائل الرئيسية. لكنه كان بعيداً، ولم يسمعه أحد.

وكان الذين عملوا على نفيه بالقوة يعلمون تمام العلم أنه مع الرقابة المفروضة فإن عزل الأفراد ذوي القدرات هي أفضل الطرق الناجعة لمنع انتشار أفكارهم.

وللمرة الأولى أود الاستفادة من هذا السرد لكي أسوي بعض الحسابات.

بعد اغتيال هنري ... كان قد اتهم بأنه عميل صهيوني، ونشرت هذا الاتهام وكالة أنباء سوفيتية ... مقرها دمشق ! ودون أن نمضي بعيداً ... فلم يتعلق الأمر بقوميين عرب ... بل بماركسيين مصريين مخلصين في تفكيرهم... اعتبروا أن موقفنا (دولتان في فلسطين ... حوار مع الإسرائيليين والعرب والفلسطينيين من أجل تسوية الصراع) قد تأثر بأصلنا اليهودي !... وثقافتنا الأوروبية !... وأننا نناضل في أوروبا. واستمر هذا الموقف حتى عام ١٩٨٩. وعندما أيد أغلبية أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني مبدأ الدولتين في فلسطين كحل ... لم يعيروا التفاتاً إلى القتل والمعاناة والمقاساة التي كان بوسعهم تفاديها لو توقف القوميون العرب والمتأسلمون عن الصياح ودق طبول الحرب ... بينما تركوا الفلسطينيين واللبنانيين، وحدهم يواجهوا الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢! بل اكثر من ذلك: شوهت وحرفت الصحافة الصفراء في مصر ما قامت به مجموعة حدتو في باريس من تدبير المساعدات لأهالي الشيوعيين الفلسطينيين المحتجزين في غزة (وكانت في ذلك الوقت تحت الإدارة المصرية) وتبع ذلك التشهير من جديد بهنري. وكان الدكتور رؤوف عباس الصحفي والمؤرخ مصدر هذه الإرهاصات: فلم يكن قد

تعرف أبداً بهنري، ولم يمارس في يوم ما النضال السري، وكان لا مناص من أن يرتكب خطأ في تفسير ما جاء في الرسائل المتبادلة بين ميمي كانيل وهنري بسبب استخدام الأسماء المستعارة(نسخة منها سلمت إلى جو بيلين ... أكاديمي أمريكي يعمل في مجال الأبحاث التاريخية المتصلة بالماركسية في مصر وفيما يتعلق بالصراع العربي – الإسرائيلي)[١٣١]: كنا نستخدم طبعا كما أسلفنا أسماء حركية مستعارة، ولم تكن عربية في هذه الحالة... للتعرف على المناضلين في السجن. وأرسلنا له خطابا بهذا المعنى باسم جوزيف حزان (أكثر أعضاء مجموعتنا تمثيلاً...أصلاً من مصر)، لتصحيح خطأه في التفسير.ولم ينشر !!!

ولكن لنترك الحديث لمن يوضع ... بسبب علمهم وذكائهم ونزاهتهم الفكرية... حقا في مصاف البشر. مثل مكسيم رودنسن ... الذي عرف جيداً هنري ... وكتب بعد اغتياله، في إحدى المقالات التي نشرتها جريدة لوموند[١٣٢]: ("هذه الوفاة كان قد تنبأ بها وتقبلها مقدماً كإحدى المخاطر التي تتصف بها عظمة مهنة الثوريين القاسية ... وهذا السلوك الذي تميز به بوجه خاص كان في ظل ظروف تملؤها المرارة، ومغلفة في إطار من عدم التفاهم ... والعداء ... ليس فقط مع من هم ضده ... وكان من الممكن أن يكون ذلك أمرا طبيعيا ومشرفا ... وإنما هبت عليه الرياح المعاكسة من داخل معسكره ... كنت أتابع بقدر لا بأس به من الشعور بالتهكم سليل البورجوازية اليهودية الكبيرة في العاصمة المصرية ... الذي كان يحلم أن يصبح لينين مصر التعيسة – لا من أجل تمجيده وتحنيطه بعد الوفاة ... ولكن لشعوره بواجب يلتزم به أمام الجماهير التي تعاني، وتقاسي في هذا البلد ...

رغم كل ما يقال... إلا انه في نهاية الأمر... هذا بلده بصورة أو بأخرى، وإذا ما حكمنا على أفكاره ونشاطه ينبغي الاعتراف بأن دوره كان دوراً تاريخياً رئيسياً. والحركة التي مهد لولادتها من قبل كانت النواة الضرورية الأولى التي خرجت منها مجموعات ولا سيّما مفاهيم جديدة في ذلك الزمان والمكان.

وقد حقر كثير من هذه المجموعات ومناضليها من نشاطه غير أن هذا النشاط قد بدأ في نشر أفكار لم يتمكن أحد فيما بعد من دحضها ... وكما كان حال الشيوعيين المصريين في ذلك الزمان ... فلقد كون نفسه بنفسه ... منعزلاً ... بعيداً عن المراكز العالمية والمذهبية للنشاط البولشفي، بعيداً عن أجهزة الكومنترن، ومنجذباً من على بعد

---

131 هل كان العلم الأحمر يرفرف هناك ؟ جامعة كاليفورنيا، دار نشر، ١٩٩٠.
132 ٦ مايو ١٩٧٨

فقط بالتبشير الذي يصدر عن موسكو. ولم تعمل هذه الصفات على بعث السخرية ... (كما كانت في حالتي)، ولكن انتشرت شكوك قوية أيضا صادرة عن حركة هيكلها ارتيابي ... فضلا عن أن يهوديته التي لم تسعفه كثيرا في شيء ... مبدئياً مناهض للصهيونية، لفظته كوادر إسرائيل، ولم يكن بمنأى عن ارتياب الكثيرين من المناضلين العرب ... اخوته في مجالات كثيرة لاتهامه بالتواطؤ مع الدولة العبرية. وكرس في الفترة الأخيرة من حياته، نشاطه الرئيسي من أجل تحقيق تقارب مع من كان يعتبرهم القوة الثورية، والتقدمية في العالم العربي – وفي المحل الأول الفلسطينيون – وفي المجتمع الإسرائيلي. وتمخض عن ذلك نتائج إيجابية ... سوف تؤتي بأكلها في يوم ما ... كما ضاعف من حوله مشاعر الحقد والشك والاتهامات !...).

الجزائر، ٢٤ سبتمبر ١٩٧٩

تولدت عندي بعد اغتيال "بيير جولدمان" رغبة عارمة في الثأر... واحتبست داخل حلقي صرخات مبحوحة تراكمت منذ إعلان وفاة هنري... أخبرنا به سوسو، في الوقت الذي كنت أنتظر منه مكالمة تليفونية. غالبا وهو غارق في مراجعة كارنيه المواعيد ... لم ير من اغتالوه ... وقد هيجتهم مقالات كتبها حقير أعمته تفاهته[١٣٣]. بينما أردت أن أشبع غضبي وكراهيتي ... بأن أشاهد دمائه تسيل بعد أن اخترقت الرصاصات حلقه، وقد تجمدت الدماء على جوانب شفتيه[١٣٤]. وأن أربت على جبهته. ولكن ضايقني سوسو في المشرحة ... عندما استعجلني في الذهاب على وجه السرعة إلى مدافن (بيير لا شيز) لكي أبلغ الذين ينظمون الجنازة ضرورة التوجه إلى الباب الآخر غير الرئيسي للتجمع – كانت ليبي زوجته قد أشارت إلى مكان التجمع عند باب آخر– ... الخ أفاجأ دائماً بمفاجآت عندما يتعلق الأمر بالتنظيم.

وكنت سعيدة لأني استطعت أن أسير مع بقية المناضلين في هدوء وراء عربة الموتى التي تحمل جثمانه [١٣٥].

ووري الثرى يوم الخميس ١١ ... أسبوع بعد الاغتيال. كان هناك عدد غفير في مقبرة (بيير لا شيز) إلا أني لم أدرك ذلك إلا في وقت لاحق . كنت منهمكة جداً في

---

133 بالطبع يعني ذلك الصحفي جورج سوفير.

134 ولقد كشفت مع ذلك الكثير مما أردت قوله

135 من الحركة المصرية للتحرر الوطني: دافيد ناعوم، وسام بارديل، وجوزيف حزان (ونشرت الجريدة الأسبوعية – روج – الصورة)

ولكن تنعدم الصلة تماما بين الحدثين، كان موقف الولايات المتحدة الأمريكية، في كلا الحالتين موقفاً حاسماً، كما حمل صياح رؤساء الدول في الحالتين ... اتهامات بالشيطنة:

ولكن في الحالة الأولى مهد عبد الناصر الطريق ليؤمن استغلال الشعب لممر مائي تعود ملكيته في الحقيقة إلى مصر،

وفي الحالة الثانية احتل صدام حسين بالقوة أرض دولة عضو في الأمم المتحدة.

وكي أنهي الحديث عن هذه المرحلة من حياتي المتعلقة بقناة السويس،

انضممتِ بعد ذلك فورا وبكل ما أملك من قوة إلى الطرف الذي يدعم نضال تحرير الشعب الجزائري ... والى مجهود البناء الوطني بعد الاستقلال.

واحتل النضال السياسي على مر السنين مساحة واسعة من تفكيري ... وسيطر بل وتحكم تماماً في تحديد الوقفات الزمنية... والانقطاع لفترات.

إلا أنه لم تنقطع صلتي أبداً مع البلد الذي عشت فيه وأنا شابة... تابعت بصورة أو بأخرى ما اعتور من تطوير: عاشت بناتي من حين لآخر مع أبيهم، وأنا أيضاً عندما لا يوجد خطر يهدد باعتقالي أو سجني.

وكنت أعود إلى مصر من أجلهن، ومن أجل زيارة رفيقي الذي ظل في السجن حتى عام ١٩٦٣، وبعد ذلكّ وفي مرحلة لاحقة.. أعود أيضا لقضاء الإجازة مع "عثمان وأحفادي الصغار"، أو بكل بساطة لزيارة بلاد الفراعنة معهم !.

لم يضعف اهتمام هنري ومجموعة باريس بمتابعة ما يجري... ونشاهد اليوم أيضاً جوزيف حزان...الذي لا زال يحلم أثناء نومه وهو يتحدث بالعربية بصوت عال ، كما لم تضعف أيضاً لدينا الرغبة في متابعة مجريات الأحداث في السودان.

وكانت العودة إلى مصر... بمثابة عودة إلى بلد أحرز تقدما (أساسا بفضل الشيوعيين) رغم انقساماتهم... وأحرز قفزات هائلة إلى الأمام... و(إنما بدونهم)، واستلهم من برامجهم, وأخذ عنهم الكثير.

ولولا الصراع الإسرائيلي العربي، ما كان لهذا الطريق المسدود أنَ يوجـــد أصلا.

اكتشاف مكان موريان أثناء إلقاء خطابات العزاء لكي أدفعه تدريجياً للصف الأول ليقرأ رسالته. جاء دوره فوراً بعد عضو المقاومة الفرنسية الدجولي "ديبوب بريديل" ... الذي اعترض على العدوان الثلاثي ضد مصر. (كم كان يسعد هنري عندما يزور شقته الأرضية الجميلة في "ماريه" التي تطل مباشرة على حديقة رائعة) . بذلت قصارى جهدي لدى الرفاق ... أثناء ترتيب إلقاء الخطابات وعندما يأتي دور المتحدثين باسم المقاومين الفرنسيين لحرب الجزائر أن يتولى هذا الحديث المناضل موريان. لم يكن دافعا شخصيا ... كان ذلك أكثر عدلاً... أن يكون هو.. الهارب من الجيش بإلقاء هذا الخطاب ، وإن كان موريان قد قطع علاقاته مع هنري بعد حرب الجزائر ... إلا أنه استمر بواسطتي في تنفيذ مهام نضالية. كم كان سيسعدك ما جاء في خطابه يا هنري.

كم كان صعباً تحمل حضور مواراة نعشك الثرى ... وقد ألقيت فوقه الزهور تحية لك، هنا اختلف الأمر .. أنت ميتاً. أنت يا هنري تحت الأرض ! تقليد فظيع أراه يمارس لأول مرة. ألم تقل: ليفعل المناضلون بجسدي ما حلا لهم. أعلم أنك تريد أن يفيد مرة أخرىً. لم اتهار: ألقت صديقتي بولا بنفسها بين ذراعي وانتحبنا معاً، إلا أني محافظة مثلك يا "روثي" ... وجه حزين ومحترم ... يشوبه بعض البياض على غير العادة. اخترت قرنفلة حمراء ... لونها أحمر مثل الوردة الحمراء ... ولكنها زهرة قرنفل لا تفقد أوراقها عندما تموت، مع عبقها العذب والمفلفل. الوردة الوحيدة التي تناسبك ... يا أيها المناضل الفخور المدافع عن قضايا المقهورين. وقد ضايقه، وأزعجه هذيان المهووسين المعادين للشيوعية. ألم يكن الشباب الواقف الذي اصطف ظهره للجدار من المناوئين؟. محاولين إثارتنا بإلقاء العبارات الساخرة، وقد توقفوا عند هذا الحد... ولم يقوموا بأكثر من ذلك لضخامة موكب المناضلين. وهم من أجيال عدة. ويناضلون دفاعا عن كل قضايا التحرر. وقد حضروا من مصر ومن إنجلترا ومن إيطاليا ... وأرسلت الجزائر إكليلين من الزهور: أحدهما رسمي، والآخر باسم المناضلين. كما حضر زميلك الشاب "مارتان بيرلي" بالنيابة عن الحزب الشيوعي الفرنسي[١٣٦]. وأقول لك .. جاءوا من كل صوب وحدب ومن كل الأجيال. وجاءت مايرا من هولندا ومعها سيمون زوجها ... ومانويلا ولوسيا أحفادي يقفن بالكاد على أقدامهن الصغيرة: لم أتعرف عليك يا مايرول عندما ألقيت بنفسك باكية بين ذراعي، وأربت على شعرك ... وأنا مقتنعة بأني أحضن إحدى اليتيمات اللاتي كان هنري العزيز يجمعهن حوله بأسلوب يصعب محاكاته.

---

136 وجدت اسم ليون جوسبان عن الحزب الاشتراكي.

و يجذب هنري على وجه التحديد بلحمه ودمه الآخرين. يديه بأصابعها الطويلة ... متوتر تهتز جوارحه متى اكتشف نشاطا يمكن تنظيمه. قصير النظر...، وابتسامته التي يوزعها بين الجميع، وضحكاته التي تنطلق دون تكلف يجعلك تشعر بقدرتك على تسوية شؤونك كلها مع العالم. رغبة جامحة للتعرف على ذكائه المفرط، وأسلوبه في التهكم من الثانوي لإضفاء قيمة على الضروري.

كورييل ... وجولدمان ... شخصيتان هامشيتان في بلادهما الأصلية، ثوريان ومختلفان تماماً من حيث جوهر نهجهما. أسهم كورييل من موقعه ... ببناء منظمة ثورية ... أما جولدمان فلقد انضم إلى نضال ثوري يجري في مكان آخر[١٣٧]. ولم يتحرك كورييل أبداً لوحده: مؤسسا منظمات سرية ... يتميز بصفاء الذهن ... يطور بالضرورة الشعور بالمسؤولية، كان يضرب به المثل في الانتباه إلى أمن زملاءه. أما جولدمان فكان يحمل بنفسه المسؤولية: يكفي أن تكون أعماله متسقة مع المبادئ التي يمليها ضميره[١٣٨]. أمميين من حيث المفاهيم .. والسلوكيات والأمزجه ... ومع ذلك أستطيع أن أقول أنها مختلفة. جولدمان المتطوع في منظمات العصابات الثورية المسلحة في أمريكا اللاتينية ... من مناصري العنف السياسي في فرنسا ... مشاكس دائماً في المقدمة. كورييل لينيني يثق في نضال الجماهير ... متمسك بالتنظيم ... يختار الظلال لكي تستمر المنظمة في النشاط. الواحد كالآخر يستجوب الذين يتقاعسون ... على استعداد للمخاطرة بكل شيء ... مضايقون ... قابلون للتصفية بأقل تكلفة، ولو أن جولدمان لم يكن بدون جنسية مثل هنري، ولكن هذا ما كان يشعر به في قلبه. يشعر الاثنان بالغربة والاضطهاد ... إلا أن جولدمان كان متشائماً، وهنري متفائلاً. كان يضرب عرض الحائط مشوحا بحركة من ظهر يده ... اشتهر بها عندما وضع جانباً خبر إبعاده ليهتم في الموقع الذي وجد فيه بتقديم دعم ملموس لنضال التحرير الجزائري. وبصفته شيوعي.

---

137 في أمريكا اللاتينية

138 انظر الكتاب الذي أعده بمناسبة القضية المرفوعة ضده عن ريشارد لينوار: ذكريات مبهمة ليهودي بولندي ولد في فرنسا، دار سيوي، ١٩٧٥.

والآن وقد وصلنا

إلى ختام هذه الذكريات...

يصعب اليوم العودة إلى تناول نشاط الشيوعيين اليهود في مصر... الذين اعتبروا أنفسهم جزءا لا يتجزأ من الحركة الوطنية. ولكن بدءا ذي بدء ... كان انخراطنا في النضال لا يمكن أن يفسر على أساس يهوديتنا... وإنما على أساس وعينا السياسي. ولا أعتقد بوجود إستثناءات داخل مجموعتنا "حدتو" في المنفى.

في البداية ... كان بعضهم ... حتى هنري على استعداد لاعتناق الإسلام حتى ينخرط بصورة أفضل في النضال. وبفضل ذكائه استبعد هذا الخيار. ويعلم هنري أن جوهر ما يسهم به هو قدرته على نقل (رغم لهجته) ما يستطيع أن يستخلصه من دروس لينين إلى سمع العمال ليخلق الحركة التي بتطورها ستفضي إلى إنشاء الحزب الشيوعي المصري. وكانت المسألة الاجتماعية التي نوقشت باستفاضة من جانب جميع الرجال والنساء الذين اهتموا بحالة الأغلبية الكبرى من الشعب المصري... هي مسألة الفقر. كيف نستأصل هذا البلاء ؟ أي النظم يوفر احتمالات مستقبلية أفضل؟ وبفضل الشيوعيين اليونانيين والفرنسيين والسويسريين والإنجليز... المقيمين أو العابرين فلقد قربوا إلينا أحداث ثورة أكتوبر ١٩١٧. وتؤكد مقاومة الشعب السوفييتي للنازية، وانتصاره المدوي في ستالينغراد على قوة وصلابة نواحي كثيرة من هذا النظام الذي أقامه البولشيفيك.

ويتبقى لنا أن ننظم أنفسنا لنسترشد في مصر ببعض جوانب هذا النموذج وغايته النهائية وضع نهاية لاستغلال العمال والطبقات الأخرى المقهورة.

لنتذكر الدور الطليعي الذي خصصته الشيوعية الدولية للطبقة العاملة. وعلى إثره نظمت دورة أولى للتدريب ... نظمتها نواة سرية ملتفة حول هنري، وموجهة إلى الكوادر المصرية العمالية المنتمية إلى قطاعات ديناميكية في المجتمع. كانت هناك مجموعات شيوعية أخرى (الفجر الجديد، وإسكرا...) موجهة نحو النضال الطبقي. وكان الواقع الذي يتمثل في الاحتلال البريطاني (الجلاء عن الأرض والتراب الوطني) قد فرض علينا

الاعتراف بمرحلة لا غنى عنها ينبغي تجاوزها في نضالنا. أولاً جلاء وانسحاب القوات البريطانية من مصر والسودان، يلي ذلك ... دائماً على مراحل... التحرر من سيطرة رأس المال الأجنبي وهيمنته على الاقتصاد المصري، وأخيراً التحرر الاجتماعي للطبقات المستغلة بواسطة النظام شبه الإقطاعي.

لم نجر نضالا أيديولوجيا ضد البورجوازية الوطنية و/أو الإسلام . كانت منذ ذلك الحين (جبهة القوى الوطنية) تقف ضد الامبريالية والكولونيالية، وكانت وظلت بعد ذلك الدينامو الرئيسي للنشاط الفكري السياسي لهنري في مصر. وساد هذا الفكر فيما بعد... أثناء دعم النضال من أجل تحرير الجزائر إلى جانب الجهود التي بذلت لخلق الحركة المناهضة للكولونيالية الفرنسية[١٣٩]. التي أصدرت صحيفة سرية وهي مختلفة عن صحيفة أخرى صدرت باسم ("حقائق مناهضة للكولونيالية").

ومرة أخرى بعد استقلال الجزائر ... أنشأ هنري في فرنسا بالاشتراك مع عناصر ولدت في إطار دعم جبهة التحرير الوطنية الجزائرية والمقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي ... منظمة جديدة، إلى حد ما سرية لحماية المناضلين في ميادين نضال أخرى للتحرير ... وأثناء مرورهم بفرنسا... وعرفت هذه المنظمة باسم التضامن "سوليداريتيه". وانتمى هؤلاء الأعضاء إلى جميع أطياف اليسار السياسية... وهذا بصفة عامة لأنه كان أيضاً من بين أعضاء القيادة رهبان وقساوسة !.

وقدمت منظمة التضامن كل أنواع الخدمات حسب الطلبات التي كانت تتلقاها من حركات التحرير المختلفة. وبنفس الروح السياسية المفتوحة. حضرت دورة تدريبية سياسية ألقى محاضراتها هنري على كوادر آتية من أفريقيا الشرقية والجنوبية، وهذا قبل وضعه تحت المراقبة: وكان يصر على ضرورة حشد جميع القوى الاجتماعية ... دون استبعاد أحد... حتى رؤساء، وشيوخ القبائل ... والتف حول هنري مجموعة من المنفيين كانوا قد انضموا إليه وأصبحوا فيما بعد ... تحت قيادته المتخصصين في الغرب في شؤون حركات ا(التحرر الوطني) السياسية لشعوب العالم الثالث وكجزء لا يتجزأ من التوجه الدولي في ذاك الوقت.

دفع زملاؤنا في مصر ثمناً غالياً جداً بسبب ارتكاب عدد من الأخطاء السياسية على امتداد عقد من الزمن. طبق الخط السياسي المنحرف منذ يوليه ١٩٥٣ عندما رفعت راية المعارضة للسلطة العسكرية المتهمة (بسبب التأثير القوي للأحزاب الشيوعية

---

139 انظر المجلد الأول ، الجزء الأول "الجزائر".

الأوروبية) بأنها تلعق حذاء الامبريالية الأمريكية! مما أدى إلى إثارة أول موجة من الاضطهاد. والموجة الثانية كانت على إثر التسابق المحموم من أجل الاستحواذ على السلطة داخل صفوف البلدان العربية وتأييدنا لعراق عبد الكريم قاسم الذي كان يدعمه الشيوعيون، والشيعة والأكراد. وطبقت الناصرية الخط الثوري لحدتو: إصلاح زراعي... تأميم ... بناء السد العالي في أسوان لتغذية مصر بكاملها بالكهرباء... وإضاءة القرى. انظروا الخريطة وقارنوا مع أي بلد عربي آخر ...تشاهدون المأساة الفلسطينية ... ملوك القومية العربية ... وعبد الناصر ... موته المبكر ... وأيضاً ارتيابه المرضي من الجماهير ... كلها عوامل فعلت فعلها. على أية حال هكذا ألخص تلك الفترة بصورة سريعة.

وكان عبد الناصر وخلفائه على درجة من الذكاء حتى أنهم مارسوا سياسات بغية وضع نهاية للحروب المتكررة بين مصر واسرائيل غير أنهم قاموا بذلك مع رفض الفلسطينيين الاشتراك في المفاوضات. أما اليسار المصري فلقد كان مؤيداً للسلام، ولكنه من الناحية السياسية معارضاً للسادات... وكان أيضاً بدوره غائباً عن المفاوضات. أهملت مصالح الفلسطينيين خدمة لمناصري الاستيطان من الإسرائيليين. يا للخسارة الكبيرة ! ولقد أشرت[١٤٠]، إلى إجماع الأحزاب الشيوعية بما فيها العربية في عام ١٩٤٧ على الموافقة على خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين بسبب تصويت الاتحاد السوفييتي المؤيد. ومنذ ذلك الحين ترتب على ذلك ظهور تيار عدائي تبلغ شدته إلى درجة اتهام هنري والزملاء اليهود بأنهم كانوا لعبة سائغة في أيدي الصهيونية. وإليكم يعود الآن إصدار الحكم في ضوء الوضع الحالي وملابساته .

كانت الأمور أكثر سهولة في الخارج: فلم يكن الأمر متعلقاً بتنظيم الثورة ولكن بدعم الثوريين الذين كانوا يناضلون من أجل تحرير شعوبهم. وكان مارك أوليفيه وهو متمرد فرنسي من أيام حرب الجزائر... يقول (يجعلني كل ذلك أفكر في السلوك الغريب الذي يتحلى به هؤلاء المنفيون المحيطون بهنري). ويفسر مكسيم رودنسون ذلك بأنه يعود إلى الكاريزما التي تحلى بها هنري. أما أنا فأفسر ذلك بأنه نتيجة وعينا السياسي كشيوعيين وأننا لم نتوقف عن النضال حتى بعد أن فقدنا حقوقنا في الانتماء المعترف به إلى حركة سرية تتطور وتحاول تجميع المنظمات الشيوعية المصرية الرئيسية في إطار يفضي بها إلى إنشاء حزب موحد. صحيح كانت حالتنا غريبة. فحتى ١٩٥٦/١٩٥٧...

---

140 أنظر مجلد الأول (الجزء الخاص بفلسطين).

كان من الطبيعي التطبيق الحرفي للتعليمات التي تصدرها اللجنة المركزية ... سواء اعترف بها هنري أو لم يعترف. وبعدَ إعداد خطة عودة هنري سراً إلى بور سعيد، بناء على طلب الزملاء في حدتو ... خشي الزملاء معاداة التيار الثوري. وبعد إرجاء تنفيذ الخطة ؟ اتخذ الحزب الذي انشأ حديثاً قراراً بإبعاد هنري عن اللجنة المركزية حتى عودته من المنفى وحتى تسحب الشبهات التي ألقتها عليه المقالة التي نشرتها جريدة اليومانيتيه !؟

كيف استطاعت إذاً مجموعتنا أن تستمر في التعاون، وتقديم مساعداتها إلى الزملاء المسجونين؟ وهذا رغم انخراط هنري في عملية دعم ملموسة لجبهة التحرير الوطنية الجزائرية؟ ورغم إنشاء منظمة متخصصة لتوفير مساعدات لحركات التحرير الوطنية التي تأتي من كل صوب وحدب ؟ وأخيراء، وبعد أن قرر الشيوعيون المصريون حل الحزب الشيوعي المصري عام ١٩٦٥ والانضمام إلى صفوف حزب عبد الناصر ... لماذا هذا الإصرار من جانب مجموعة ومنهم(الزملاء المنفيين) على القيام بمجهودات تقرب بين اليسار الإسرائيلي والمصري والعربي والفلسطيني؟ بينما كان الزملاء في هذه المجموعة يقيمون على نحو دائم في باريس !... إلا أني ... بعد أن تقاذفتني الأمواج مرة إلى القاهرة ومرة أخرى إلى الجزائر ومرة إلى جنيف ومرة إلى باريس ... أبحث عن السبب الذي جعلني استمر في صلاتي مع هنري واعتباره مسئولي السياسي ... أطبق توجيهاته؟ لقد تأصل في شخصي وعي وضمير سياسي، وروح الانضباط ...؟ على أية حال تابعت السير في نفس الطريق حتى بعد اغتيال هنري... وهكذا يا مارك يمكن أن يكون المرء شيوعياً دون أن يكون عضواً في حزب !.

إن القوة الهائلة التي تمتع بها هنري كورييل ولدت بمحض مصادفة الأحداث والظروف ولم تعد أبدا إلى إرادته، ولكن لتحركه الحر حسب الأوضاع ... دون أن يبحث عن السلطة... ولا حتى السعي من أجل الحصول على اعتراف بتمثيل حركة التحرر الوطني ...تلك الحركة التي تركت بصماتها على امتداد القرن العشرين ... ودعمها بقوة الاتحاد السوفييتي،. ودفع هنري ثمن كل هذا بحياته.

وكانت منظمة التضامن تساعد في ذلك الوقت المؤتمر الإفريقي الوطني (حركة مناهضة التفرقة العنصرية أفريقيا الجنوبية) بإعداد بطاقات تنقل السود داخل بلادهم بواسطة الخبراء في باريس. وساعدت منظمة التضامن في تنظيم مجموعة دعم من الأفريكانرز البيض[١٤١]، للمناضلين من المؤتمر الإفريقي الوطني. وأخيراً ... تحدثت

---

141 الجيل الجديد الذي كان أصلاً أجداده سبباً في ظهور الفصل العنصري !

الصحافة عن ذلك... نجح هنري في تنظيم اجتماع لعصام السرطاوي[١٤٢]، (مستشار ياسر عرفات) وإسرائيلي وهو ماتيتياهو بيليد[١٤٣]، مع الرئيس السابق للمجلس فرنسي بيير منديس فرانس.

عرف الرئيس بو تفليقة رسمياً بأنه مناضل قديم من أجل التحرر الوطني ... أصبح فيما بعد رئيس دولة ... عرف كيف يقيم جيداً نشاط هنري. وفي خطاب ألقاه أمام (أصدقاء الجزائر) في يونيه عام ٢٠٠٠ وبمناسبة اجتماع مؤثر عقده معهم توجه رئيس الجمهورية الجزائرية (عبد العزيز بو تفليقة) بالحديث إلى صديقه وأخيه في النضال "فرنسيس جونسون" وأيضاً وجه حديثه (إلى هذه الشخصية الاستثنائية الفريدة وهي شخصية صديقنا وأخينا في النضال كورييل). ثم شكر فيما بعد (إخوانه وأخواته – وكانوا عديدين وكثيرين – ممن ساعدوه ابتداء من سبتمبر ١٩٦٢ في بناء أول وزارة للشباب في الجزائر المتحررة. وقد أعيد استنساخ خطابه في كتيب بالفرنسية والعربية.

وأخيراً ... كان هذا هو الدور الذي قامت به حدتو في دعم[١٤٤] (تنظيم "الضباط الأحرار) والتأثير الذي مارسوه عليهم مما أدى إلى وضع نهاية للنظام شبه الإقطاعي في مصر.

وبهذا ندخل مع هنري في سجل تاريخ حركة التحرير الوطنية المصرية.

وها نحن نقف أمام فشل النضال الفلسطيني للتحرر في تحقيق أهدافه. وهذا فصل من قصة أخرى تبدأ أحداثها بنهاية الاتحاد السوفييتي.

جنيف يونيو ٢٠٠٦

---

142 اغتالته مجموعة أبو نضال في ١٩٨٣

143 لواء قديم في الاحتياط، عضو المجلس الإسرائيلي المناصر لإقامة دولة فلسطينية.

144 والإخوان المسلمون

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٢٣٤٨٢
الترقيم الدولي (I.S.B.N) : 3 - 89 - 5222 - 977

ولا نبالغ إن قلنا أن مصر تمر بأزمة طاحنة: ٦٠ مليون نسمة[1] تعيش فوق مساحة تبلغ ٣٥ ألف كيلومتر مربع فقط، وعاصمتها مدينة يفوق تعداد سكانها ١٠ مليون نسمة.

وعندما انجذبت في زيارتك... يا "جيل"... لمنظر هذه الكتلة البشرية الهائلة، وهذا الكم الهائل من الغبار والضوضاء، لا شك أنك حاولت جاهدا أن تتبين ما الذي يمكن أن يوحي بهذه الصورة التي كنا نحدثك عنها بحب كبير... ولعقد من الزمن ... صورة (أم الدنيا).

ولا ننسى أن نضيف إلى الغبار والضوضاء الموجة الظلاميه الأصولية السلفية.

حديثنا لم يكن تعبيرا عن حنين، وتوق إلى الماضي.

ولكن مع تصاعد العنف واستفحاله ... نسترجع أحداث النظام القديم، وما كان من أمر الاحتلال البريطاني .

وأقل ما يقال ... هو أن ديناميكية الحركة الوطنية... التي ننتمي إليها... قد دفعت عبد الناصر إلى القيام بإصلاحات زراعية كان لها الأثر الكبير في تحسين أوضاع العمال الزراعيين، والمزارعين المستأجرين، ونمو الحركة التعاونية، وضمنت حماية اجتماعية للعمال، وتردد الأطفال على المدارس في المدينة وفي الريف، بل بلغ النشاط درجة (الانفتاح على السوق العالمي)، ووفر العمل لحاملي الدبلومات.

ويلاحظ أن انتفاخ الطبقة الوسطى نتيجة هذا النشاط ... يؤكد أن التاريخ لم ينته كما يزعم البعض لا في مصر ولا في غيرها، ورغم ضعف اليسار... والتكيف الهيكلي الذي تشترطه مؤسسات بريتون وودز... فلقد أصابها العطل بعد مظاهرات (الجوع) التي هبت في يناير ١٩٧٧، و لكن استعادت هذه المؤسسات حيويتها منذ ذلك التاريخ، وقبل اغتيال السادات.

ورغم تتابع الإصلاحات منذ ذلك الحين (إلا أن هناك طرحاً يؤيد مراجعة قوانين الإصلاح الزراعي لإدخال تعديلات تهدف... كما يزعم... تحقيق مرونة أكبر في عمليات شراء وبيع الأراضي! ولكن يترتب عليه الإضرار بمصالح مجموع المزارعين المستأجرين[2]).

تسببت إعادة قراءة المرحلة الأولى من حياتي إلى فقدان الاتجاه من جراء انفجار العواطف التي أججت ذكرياتي... لا سيّما عندما تناولت بالحديث من هم قريبين مني.

---

[1] عام ١٩٩١

[2] تقرر إعادة النظر في قوانين الإصلاح الزراعي عام ١٩٩٧.



[القاهرة الحديثة في الثلاثينات من القرن الماضي]



دار العالم الثالث
٣٢ش صبرى أبو علم - باب اللوق - القاهرة
جمهورية مصر العربية
ت.فاكس: ٣٩٢٢٨٨٠
Email: elguindimohamed@hotmail.com

وعندما نظرت في مذكراتي .. كنت كالتائهة... وكل ما رجوته ... ألا يؤدي إعادة ترتيب الكلام عن هذه المرحلة أن يزج دون سابق تعمد بعض هذه الذكريات إلى مرتبة دنيا ... وأعني ببعض الذكريات ... ذكريات ما قدمه الشيوعيون المصريون إلى الحركة الوطنية من قيمة مضافة.

وعندما نلقي نظرة إلى الوراء نستطيع أن نجزم أن نشاط الشيوعيين قد حبذ انتقال المجتمع المصري إلى مجتمع المواطنة المتقدمة.. أي الاعتراف بحق اشتراك أفراد المجتمع المدني في إدارة شئون البلاد.

ولم يمثل الشيوعيون سوى حفنة متناثرة من الأفراد ... إلا أنها مجموعة ديناميكية تعمل في الميدان،.. بل تعمل حتى من داخل السجون والمعتقلات ... ترغم السلطة على انتهاج خط سياسيٍ يتسق ومعايير الكرامة الوطنية, والعدالة الاجتماعية.

ودفع الشيوعيون ثمناً باهظا.

وتأثر بهم العدو الأيديولوجي بما في ذلك الأخوان المسلمين.

تعمدت الإشارة إلى هذه الإضافة ... لأن التوجه الحالي للحوار ينزع إلى التقريب التوفيقي بين طروحات القضايا ذات المحتوى الأيديولوجي النضالي، وغيرها... وهذه عملية محرفة للتاريخ.

كان محتوى النشاط الشيوعي في مصر محتوى تحرري ... التحرر من الاحتلال الأجنبي... والتحرر من قمع (إقطاعي)... والتحرر من تبعية اقتصادية.

وكانت الأحزاب الشيوعية في المتروبول الكولونيالي السابق قد اختزلت النضال الوطني واعتبرته مجرد عراك أنجلو|فرانكو| أمريكاني، مما دفع الشيوعيين في المنطقة إلى تقزيم أهمية دور اليسار المصري في هذا السياق.

ولم أشعر بأدنى حرج عندما اعترضت على مقولاتهم ... كنت مناضلة على مستوى القاعدة، مع تكليفي بمهام معينة، وذلك في حركة مارست تقليد طويل... وطويل جداً من النضال من أجل الاستقلال ... ابتداء بالنضال ضد الاحتلال البريطاني.

ورثت هذه الحركة بدورها قدرة سكان هذا البلد... التي تدعو إلى الدهشة ..على مقاومة الغزاة واحتواء ودمج الغرباء واستيعابهم، كما تحمل داخلها مجموعة ثقافات تذوب في تربة نيلية وتمتزج بترابها... لا ننسى أن مصر وضعت تحت الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢، وكانت مصر آنذاك قوة إمبريالية تولت بناء صرح الدولة المصرية الحديثة (وأقامت الدولة الحديثة أيضا في السودان في حدوده الحالية)، ونافست مركز الإمبراطورية العثمانية بما بذلته من جهود من أجل التحديث ... وكان نظام الحكم ملكي وراثي ... يدير أملاكه بكل استقلالية ... مجهزة بجيش جندت عناصره محلياً، وطبقت قواعده منذ عام ١٨٢٢ في صورة تشبه قانون التجنيد الإجباري.

وهو البلد الوحيد حتى اليوم الذي أقام دولة – قومية في العالم العربي.

بدأت أنقب في ذاكرتي، عقب اغتيال هنري (٤ مايو ١٩٧٨)، بحثًا عن عناصر ذات دلالة تتصل بنشاط هنري الذي أصابه التشنيع من الذين هم دون المتوسط من حيث الذكاء...

جمعت عندما بدأت الحديث عن خبرتنا المصرية، نصوصاً متفرقة، مبعثرة ... كثير منها شخصي ... قد تعود أحداثها إلى طفولتي ... وتحدثت عنها هنا.

باريس، الجمعة ٣ أغسطس١٩٧٩

أسبوعان من الحرية... ومكان أقيم فيه في حي مونبرناس .. بالقرب من حمام سباحة. عندما قابلتكم يا بناتي في مصر تولدت لدي طاقة كبيرة. وكان هدفي أن تقبلوني ... فأنتما تعشن على الهامش مثلي، رغم أن اختياراتكن غير اختياري، أنا قادرة على قبولكم ... وأنتما تمثلان الأخر... وستقابلن أيضاً كثيرا من الظلال الحياتية المطمورة ... وستشعرون بعطشٍ وشجون ، وشعرية وسعادة... كلها ممتزجة مع بعضها البعض في أغوار سحيقة للاوعي.

مصر في المقام الأول هي خبرة ثورية اكتسبناها داخل منظمة هدفها المباشر هو تحرير التراب الوطني من قوات الاحتلال الأجنبي.

وكان الهدف الطويل المدى،هو تحرير الشعب المصري من التبعية الاقتصادية والقهر الاجتماعي.

ويظل متبقيا من هذه الخبرة تقارير مكتوبة من المكان الذي نفى إليه هنري موجهة إلى رفاقه... يبلغ عدد صفحاتها المائة ... كتبت جملة واحدة... ولم تقرأ... أرسلت من منفاه الفرنسي في مدينة ديين الفرنسية.

لم أتوقف عن الإعراب عن غضبي الشديد بسبب ما تعرض له من مضايقات ... دفعته إلى العودة إلى باريس... وكان قد بدأ يكرس في منفاه ولأول مرة بعض الوقت لاسترجاع الذكريات النضالية!

وتعبر خطاباته التي أرسلها من مدينة ديين ... عن سعادته في أن الوقت يسمح له بالتفكير بينما يمارس رياضة المشي لمسافات طويلة). ودون أن يفقد الاتجاه أو أن يختلط عليه الأمر... كان يقول (لا أعيش في ظروف العمال المهاجرين في فرنسا... ولا أقاسي من أحوال المناضلين من أمريكا اللاتينية...) دون أن يحاول التفاخر ولا أن يتأوه على مضض ... ويردد (الإقامة ستطول في المنفى)، ودون أن يأسف.. إلا لتوقف دورة

التدريب المخصصة "لأوتو"[3] و"تشارلز"[4]. ولكن كنت أعرف هنري: يتميز بالجلد من أجل مساعدة مناضل، وخدمة قضية، ذو شعور مرهف حساس إن كان هو المتسبب شخصياً في إحداث توتر ما.

ومتى تقرر مصيره في المنفى... بدأ الرفاق في حساب تكلفة (إقامة داخلية) لمدة طويلة... في أحد الفنادق في فرنسا!

كيف يمكن تفسير الخط اليونسي ...؟

إنه استعداد دائم لتقديم الخدمات دون مقابل أو مصلحة تذكر... إلى درجة قد تبعث أحيانا الشك لدى الآخر.

لم يكن وجودي بالقرب من هنري يمثل سلوكا عاديا (وإلا لتحولت إلى الرهبنة الكاثوليكية لأصبح راهبةٍ في دير... كما كان مصير بعض أفراد أسرتي)... بل كان بمثابة تدريبً وتكوين ... ويمكن ملاحظة تكرر تلك الظاهرة في جميع المنظمات التي نشط فيها هنري.

ولم تهدف أي من هذه المنظمات إلى الاستيلاء على السلطة... ولا حتى المتمصرة منها... كان الهدف المباشر ... هدف وطني.

وتمكنا من خلال النشاط السري القيام بمبادرات، دون الانغماس في ثرثرة وحديث طويل لا طائل من ورائه.

غير أن انقطاع الصلة مع حركة الواقع لم يكن أمرا بسيطاً، وقد يفضي بك ذلك إلى الجنوح وارتكاب مبالغات تبعدك أكثر عن هذا الواقع.

ولكن كان هذا هو خياري ... لذلك تحملته.

بل أكثر من ذلك جذبني هذا النمط من الحياة، وعوضني عن الكثير مما افتقدته في حياتي الاجتماعية السابقة .

أشعر بعاطفة قوية نحو أفراد الفريق الذي كان عصب المنظمة... ولقد تواصل نشاطهم ..، دون أن تكون هناك مصالح سياسية مغرضة... ودون أفكار مبيته... ودون انتهازية ... نجهل أحيانا هوية الرفاق... رافضين أن نبني علاقاتنا على أساس شخصـــي.

---

3 اسم مجموعة ماركسية في أفريقيا الشرقية.

4 اسم حركي لأحد كوادر حركة التحرير في زمبابوي.

يوم السبت ٤ أغسطس

ينبغي أن استجمع أفكاري قبل أن أصاب بخرف الشيخوخة...! لأن العمل السري والتجول المستمر لا يترك متسعا من الوقت لاسترجاع شئ ... سوى شتات الذكريات.

ومن هذه الذكريات صور، ومشاهد البؤس الفظيع. لم أكن قد تعرفت عليها وأنا لا أزال طفلة, ثم لم أكن قد صادفتها بعد عندما أصبحت فتاة شابة ، واحتفظ في ذهني بصور بارزة عن مدينتي، وأشعر برغبة جامحة إلي العودة إلى مصر مع ترك كل ارتباطاتي مرة واحدة ...على أمل أن أعثر من جديد على ما يحمله جوها من عبق الرياحين، وروحها الفكاهية، بل وأيضا ضوضاءها وضجيجها.

فلقد كانت القاهرة في فؤادي ومشاعري لفترة طويلة من الزمن، وانحصر ذلك في الحي الأوروبي...! الذي يمتد من ميدان سليمان باشا الفرنساوي[٥]. ولم يمتد بصري إلى ابعد من العتبة الخضراء (كانت في الماضي حديقة خضراء حقيقية)، وبورصة الأوراق المالية، ومسرح الأزبكية، التي اصطحبتني إليه والدتي مع أخي ... لكي نتمتع بتمثيليات فرقة نجيب الريحاني الذي يتعذر وصفه[٦]. وفي أحيان أخرى يمثل محيط حياتي مسافة لا تتجاوز تلك التي تمتد من دار الأوبرا وميدان مصطفى كامل من ناحية، وسوق باب اللوق وشارع الفلكي حيث توجد مدرسة الليسيه الفرنسية، القريبة من محطة قطار المعادي، الضاحية السكنية التي تقع جنوب القاهرة ... وحلوان[٧] الواقعة في نهاية خط المترو وهي ضاحية معروفة بحديقتها اليابانية وينابيعها الطبيعية من المياه الكبريتية تديرها مصحة للعلاج الطبيعي بالمياه الساخنة، وكانت أمي تصطحبني إليها في الشتاء لتعالجني من سعالي العصبي.

وعندما نهرب من المدرسة ! نتوجه بسرعة إلى الحدائق العامة الواقعة بعد كوبري قصر النيل ... الذي تحرسه تماثيل من أسود من البرنز أقامتها الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس ... وتتصل منطقة الجزيرة بوسط القاهرة بميدان الإسماعيلية الذي عرف فيما بعد بميدان التحرير. كانت توجد به ثكنات الحامية البريطانية[٨].

---

5 الكولونيل جوزيف دو سيف المدرب في جيش محمد علي والذي رقي إلى رتبة جنرال بعد اعتناقه الإسلام (واستبدل تمثاله عام ١٩٦٣ بتمثال طلعت حرب، رجل يمثل الرأسمالية الوطنية في أول القرن العشرين).

6 دون منازع أفضل الكوميديين الذين أنجبتهم مصر قاطبة، سيد فن إضحاك المجتمع من نفسه.

7 يستخرج من ذلك الحين مصنع الحديد والصلب الحديد من هذه المنطقة.

8 هو المكان الحالي لفندق هيلتون.

وعندما تتوفر لدينا النقود ... نستأجر دراجات للذهاب إلى ضاحية المعادي أو إلى الأهرام للسباحة في حمام سباحة فندق مينا هاوس. وكنا نعرف جيداً منطقة جاردن سيتي، سكنها بعض الأهل (وسكنتها فيما بعد جدتكم، في عمارة قريبه من الكورنيش). ونعبر إلى جزيرة منيل الروضة بواسطة جسر... وكانت تلك المنطقة مخصصة للنزهة بالحنطور، كما عرفت الزمالك وتقع في الجزء الشمالي من منطقة الجزيرة، وتعرفت، في الوقت نفسه على والدكم.

وباختصار لم أكن أعرف من القاهرة سوى أحيائها الجديدة، والنيل، والحدائق...

وكنا (نصيف) في مدينة رأس البر بالقرب من دمياط عند مصب فرع النيل مع البحر الأبيض المتوسط. وبها منتجع للاصطياف يتردد عليه كثير من المصطافين، ويتجلى سحره في مبانيه البدائية المبنية من القش والخوص مع استخدام الحصائر التي تفرش في الداخل. ويختفي هذا المنتجع في الشتاء بفعل البحر، والعواصف. واستطعت بدقة أن أرسم صورته في مخيلتي وهذا بفضل أمي التي كانت تحدثني بحرارة (هنا نطقت بأول كلمة لك وكانت كلمة بحر[9]!).

أصبحت بورسعيد والإسكندرية بعد ذلك بكثير منتجعاً صيفياً. ولما لم تملك أسرتي لا عزبة ولا تجارة، لم أعرف شيئاً عن الأرياف ولا عن الأحياء الشعبية في القاهرة. وكانت الحياة رغيدة نسبياً بفضل وظيفة أبي: كان يعمل مديراً في البنك الأهلي. ولقد تأسس هذا البنك في نهاية القرن التاسع عشر... كما كان الأمر بالنسبة لبنوك أجنبية أخرى في ذلك الوقت، وكان غرض هذا البنك الأساسي هو تمويل سداد الدين العام، ورد أقساطه بفوائده المجحفة إلى القوى الأوروبية المقرضة، ولم تكن له صلة من بعيد أو قريب بالدور الاقتصادي الذي كان ينبغي أن تلعبه مؤسسة وطنية. ولا حتى على مستوى ما كان ينبغي أن يوفره لصغار موظفيه من مزايا.

لم أشاهد في القاهرة سوى بضعة عينات من البؤس : من (شحاذين) تسللوا خلسة إلى أحيائنا. إلا أن التسول قد يكون رد فعل نشط. وأحياناً يدل على شيء من العدوانية!. عدوانية على الذات عندما يتعمد المتسول إحداث عاهة في جسده يكشف للمارة عن الجزء المقطوع مثلا لإثارة شفقتهم. وتجد عند البعض شعورا بالكرامة. كما كان حال رجل مقعد مشهور، نظافته تفوق التصور في بلد مليء بالذباب، والقاذورات ... شعره مدهون بمادة صمغية ويقسم بخط طولي يفرق بين الجانبين، رسم وكأنه بمسطرة في وسط رأس ضخمة

---

9 العبارة تدل على البحر والنيل في آن واحد.

يحملها جذع رجل. يسهل اقتفاء أثره بين حشود الناس بفضل الصوت الذي يصدر عن قبقابه عندما يدق به اسفلت الطريق. وكنا نتعاطف مع هذا الرجل الذي لا يحرم نفسه أبداً، كما هو الحال في هذه المدينة الضخمة المذهلة، في أن يجاري الرجال الآخرين في مغازلة الفتيات اللاتي يمررن بهم، تصاحبهن كلمات غزل رقيقة مثل يا وزه (الأوز المسمن)، ويا حلوه (حلوه زي الشهد). وفي مقابل ذلك يتلقى ابتسامات.

كثيرا ما يدور الحديث حول الفقر. إلا أني أدركت لأول مرة وجود هذه الظاهرة عندما أصبحت عضوا في اتحاد النساء المصريات. شاركت في عمليات المسح من أجل التعرف على احتياجات الأسر من سكان الأحياء الشعبية في مدينة القاهرة. وكنت عندئذ قد أصبحت شيوعية. وولدتم أنتم يا بناتي . وشعرت في البداية باشمئزاز يقارب الغثيان من منظر إنسان مهلل جالس على الأرض المتربة في مرحاض عمومي، يقع في ممر عند مدخل إحدى المباني الصغيرة.

بؤس عار فتاك يلتهم كل المساحات بل يتسلل إلى الأحياء البورجوازية في العاصمة.

كانت تحرياتنا تجرى في مكان غير بعيد عن أحياء القصر العيني والفلكي. أي في حدود القاهرة القديمة.. قاهرة شبابي! وشاهدت في يوم شديد الحرارة والرطوبة، التصق فيه الغبار كالصمغ وجيوش الذباب تحط على صدغ متقيح لإنسان بلا رد فعل. وتنظر حولك لتجد العيون المريضة في كل مكان. وأرجل متضخمة، منتفخة يضرب لونها إلى اللون البنفسجي، أصابها العفن في بعض المواضع، وتحتل هذه المناظر المروعة مساحة الرؤية كلها، ولا ترحم المرء من أدق التفاصيل.

لا يوجد مجال للشعور بالرأفة أمام هذه المشاهد: سيجعلك الكرب والغم تفر من هذا الجحيم .. وتوجه السباب إلى هذا الإنسان! أو تدفعك ثورة الغضب إلى الاعتقاد أن لا شيء، ولا شيء أكثر أهمية من تقويض النظام الذي يترك الإنسان يتعرض لمثل هذا المذلة.

وكان التهرب في شبابي من صور البؤس الكريهة أمرا جائزا. أما في مرحلة التفكير (التي انتقلت إليها)، فقد دفعني هذا الوضع الأخرق إلى القفز قفزة نوعية: من مجرد المشاركة العاطفية إلى الالتزام الكامل.

بدون شك تترك حقائق المعايشة آثارها في النفس.

الساعة ٢ صباحاً

لم أستطع النوم. تأثرت من مشاهدة تجمهر مجموعات من شباب العالم الثالث في ساحة نوتردام على ضفاف نهر السين. شباب جاء من آسيا يرقص رقصة السيف، ومن

أمريكا اللاتينية يغني بمصاحبة الجيتار، شباب جزائري وحتى مصري، شيء لا يمكن تصور حدوثه منذ نحو بضعة سنوات، يرقصون بحماس، يصاحب التصفيق إيقاعاتهم .لا يمتلكون آلات موسيقية. شباب فقير.

ونحب الحياة في شوارع القاهرة بالليل، على عكس الجزائر العاصمة حيث يستكين الناس فيها إلى بيوتهم ابتداء من التاسعة مساء !.

أعرف جيداً ليالي القاهرة. عشت فيها ثلاثون سنة بدون سفر إلى الخارج (إما بسبب الحرب أو بسبب الولادة).

قمت يا "نيفين" بأول رحلة سفر إلى سويسرا قبلي. وكان السفر خارج مصر.. (حكاية) كبيرة، سواء بحرا أو جوا. ولم نستطع السفر بالقطار منذ إغلاق الحدود مع فلسطين إلا في اتجاه الجنوب ونحو السودان، الذي لم نسمع إلا عن الجزء الشمالي منه.

وما زال الصعيد صعيدا بسبب تكوينه الجغرافي (وادي النيل ضيق ووعر)، ومن بين سكان مصر النوبيون, يعمل بعضهم كسفرجية في بيوت العائلات الثرية، وبوابين يحرسون العمارات التي نسكنها...والباقي لا يعمل ... هجروا أراضيهم بسبب الفقر، ينعتون بالبرابرة بسبب أسلوب نطق لغتهم النوبية الخاصة، ولون بشرتهم السوداء. يتناثرون على جانبي حدود البلدين مصر والسودان، كما أن النوبيين هم الإثنية الوحيدة المتميزة للشعب المصري، إن لم نضف إليهم أيضاً سكان واحة سيوه.

أحمل القاهرة في قلبي ووجداني، ولا أتقاسم معكم يا بناتي ذكرياتكم القليلة عن الشارع المصري لتنقلكم الدائم بالسيارة!. كانت أسرة والدكم تعيش في وسط مغلق أنجلو شركسي. وكانت الفسحة تجري لفترة وجيزة سيراً على الأقدام في الشوارع المحيطة بالزمالك ...الرائعة آنذاك، هذا صحيح، مع ورودها الجميلة, وكانت الزهور الحمراء تنجو بمعجزة من زحف الرمال الغامرة الذي يغطي كل شئ. أما نحن فكـنا نذهـب لزيارة حي سيدنا الحسين، والمشاركة في احتفالات المولد النبوي، ومشاهدة حلقات الذكر خارج المساجد، أو للتردد على السوق القديم المفتوح وهو سوق معروف (تطل عليه العمارة التي نسكنها في شارع شامبليون[١٠])، أو لمشاهدة الصعايدة وهم يرقصون بالعصا أيام العيد وبإيقاع مثير كان مصدر إلهام لم يستطع أخي أن يقاومه واشترك معهم في الرقص.

---

[10] أطلق على هذا الشارع أسم شامبليون وهو مكتشف الكتابة الهيروغليفية توجد فيه القنصلية الفرنسية.

القاهرة والنيل !

صحيح يا بناتي عندما عدتم إلى القاهرة كان طعم مياه النيل له مذاق الكلور!. كيف نستعيد نقاء نسيم ليالي الصيف وأمسياته ...؟ وتنتهي النزهة بالسير على ضفاف النيل (كما هو الحال في باريس، ونهر السين). ونتوجه كغيرنا من الناس (متى سنحت الفرصة) نحو كوبري قصر النيل. ونستأجر في أيام العطلة أنا وأختي نيللي، وأخي جو فلوكه في النيل. وعندما اقتصرت مجموعتنا على الفتيات فقط كان من الصعب التجديف في اتجاه عكس مسار التيار ولا سيّما عندما تصاحبنا "سوزي" الهزيلة[11]. وكنت لا أتوقف عن التجديف وحدي دون أن أتحرك إلى الأمام. وكنا كغيرنا من الناس نغطس في النيل دون أن يعرف أهلنا، فالبلهارسيا تثير رعبهم ... وهي جرثومة طفيلية تعيش على جسم الفلاح وتجعله يبول دماً. وهو فضلا عن ذلك لايتغذى سوى بكسرة خبز وبصل، ويخوض حافيا في طين النيل وقنواته ومنها يصاب بهذا المرض اللعين.

نتنزه في موسم الصيف (من أبريل حتى نوفمبر)، سيراً على الأقدام مساء يوم السبت (يوم الأحد في ذلك الوقت يوم عطلة أيضاً) على طول ضفاف النيل للتمتع مع بقية الناس بالنسيم. إلا أن عدد الذين يتجولون حتى الفجر لم يكن كثيرا، وهم الذين يستغرقون في الأحلام، ويفترشون السجادة الخضراء على حافة النهر، التي تمتد يميناً إلى ما بعد كوبري قصر النيل، (ونتمتع بصفاء الجو في هذا الزمن البعيد، نتجاذب أطراف الحديث موشوشين لبعضنا في صوت خفيض حتى لا نقطع الهدوء الذي يخيم على المكان, وصوت مياه النهر التي ترتطم بخفه بحافة الشاطئ).

عدت إلى القاهرة عام ١٩٦٦. لأجد أن كل ذلك قد حل محله (على امتداد حديقة الأندلس) طريق مرصوف للمارة. عندما كنا أطفالا كنا نزور هذه الحديقة بصحبة أولياء أمورنا لأنها تتطلب شراء تذكرة دخول. وكنا نفضل الحديقة الكبرى على الجانب الأيسر الذي يؤدي إلى الكوبري لما فيها من أشجار ذات فروع وأغصان كبيرة تساعدنا في خيالاتنا عن إنسان الغابة. ولن أنسى هذا الولد البائس الذي انتابه الوجل، وقفز من أعلى الشجرة لكي يهرب من استهزائي به، وكسرت قدمه.

من يزعم أن من طبائع الفتيات التواري خجلا فقط ...مع امتناعهن عن إلحاق الأذى!

---

[11] كانت "شلبي"، صديقة الطفولة، وبنت عم هنري (وأنا أيضاً) من فرع عائلة أمها، ذات صوت كـالنغم وعيون رائعة، شعرها مزركش تتخلله خيوط من الذهب، وهي التي هربت معها.

أنت لا تعرفين جاذبية ومذاق الشارع (إلا أني تعلمت منك يا "نيفين" طعم الفاكهة البرية التي تنمو في جبال فرنسا). قد يكون هذا هو سبب عدم تقبلك له ؟. ولا تشعرين بمذاق ونكهة المطبخ الذي تطهى فيه الأطعمة على مهل وبكل حب. حزام أزرق للطاهي لا مراء من ذلك ... أمي تعد كافة أنواع الأطعمة دون وصفات معدة مسبقا. كفاها أن تتذوق. استوعبت أسلوب وطريقة طهو الأطباق الإيطالية، واللبنانية، والفرنسية. وبالذات الأطباق اليهودية المصرية. لم يكن هناك من يعد الملوخية، أفضل منها، طبق شهي دون أن تضيف إليه الثوم (لكي ترضي دلع بناتها)، أو طبق البامية بالطماطم والفلفل الأخضر, ويطهى معه قطعة لحم " موزه" أو بالفريك "بالكوارع" أو طبق اللوبيا والفول المدمس الذي تتركه طوال الليل على نار هادئة في مرجل من الفخار لينضج على مهل على نار صغيرة، طبق من الفول الوطني يتناوله أفراد شلتنا فجر يوم رأس السنة عند مطعم إيسيافيتش ... وهو مطعم شعبي يديره يوغوسلافي، في ميدان (الإسماعيلية). وبالطبع نتناول الطعمية التي تشبه فلافل الإسكندرية ...الأولى معدة من الفول، والثانية معدة من الحمص، أقراص مقلية بالزيت[12]، وكانت تمتاز بإعداد المجدرة وهي خليط من العدس الأسود والأرز يؤكل مع بيض مقلي وشربة عدس أو حساء من العدس الأحمر والبصل مع سلطة طحينة، مطبوخة بالبقدونس، وتعد الفسيخ وهو من أسماك البوري اللذيذة التي يقال أنها متعفنة بسبب رائحتها الخاصة، وفي الواقع، تعالج في براميل تدفن في الرمال، وهي طريقة فنية يعود استخدامها إلى عصر الفراعنة، ويجري صيد هذا النوع من السمك من بحيرة البردويل على ساحل البحر الأبيض المتوسط شمال شبه جزيرة سيناء، وتدخل إناث هذا النوع من الأسماك إلى البحيرة لتضع بيضها... وهي بطارخ ممتازة وشهية ومعروفة على نطاق المنطقة كلها. ويفضل أكل الفسيخ يوم (شم النسيم)، وهو عيد الربيع الذي ورثناه من عصر الفراعنة، وأحيانا نستأجر (فلوكه) في القناطر الخيرية، بينما يجلس أهلنا فوق النجيلة (الحشيش) لتناول وجبتهم.

وتخصصت أمي في إعداد أطباق أخرى اشتهرت بها: العجين ذات التعليقات المتنوعة تعده باللحمة المفرومة والصنوبر، أو مخ الغنم، والمنينة وهي من العجان التي تذوب، ويرش عليها السكر والمكسرات، أو الشربات أو العجوة، والكنافة التي تعدها النساء في البيوت، والزلابية والكعك الذي يؤكل في نهاية أسبوع الهانوكا[13]، أو الموضوعة على طبق كبير يرسل بعد ذلك إلى فرن الخباز. أعدكم أني سوف أجمع وصفات هذه الأكلات من السيدة كوهين.

---

12 نأكل الطعمية في باريس وجنيف بفضل المهاجرين المصريين واللبنانيين والإسرائيليين .

13 عيد يهودي "الأضواء" للاحتفال بذكرى انتصار الماكبيه (أنظر العهد القديم)

لمعرفة مصر العاصمة ...يجب استيعاب وفهم مزاج أهلها (وهو مزاج مختلف عما هو عليه في الإسكندرية)، وقد بلغ فيها فن الكاريكاتير القاهري الرفيع أعلى منزلة بين الفنون .

وكانت الصورة الكاريكاتيرية للمصري أفندي تجسد لي أثناء شبابي صورة البرجوازي الصغير، ببطنه المترهل قليلا ... يرتدي الجاكيت والطربوش الذي كانا في ذلك الوقت اللباس الرسمي للموظفين، والتلاميذ حتى مجيء عبد الناصر، وقد تسلطت على المصري أفندي زوجته التي تصلي وتصوم شهر رمضان دون أي تعصب ديني من جانبها، بينما يرزح هو تحت ثقل الأعباء اليومية، ويثأر من كل ذلك بإطلاق نكاته السياسية... ثقافة عميقة وكاملة. نتبادل النكات في القاهرة وأكثرها انتشارا كانت نكات مجالس الحشاشين.

وكان أبوكم بطلاً في محاكاة الجنرالات ذوي الكروش المنتفخة.

وأؤكد لكم يا بناتي، أننا عشنا في هذه العاصمة المذهلة وفيها كل هؤلاء الناس الخالين من العقد النفسية، يعربون عن أفكارهم بالرسومات الكاريكاتيرية (على نقيض سكان المدن الجزائرية المكفهرة الوجه بسبب ما عانوه من شظف العيش تحت نظام استعماري استيطاني رهيب)، هذه العاصمة التي تتجول فيها النساء بالليل بمفردهن دون خوف، كل شيء موضع ضحك وسخرية وفكاهة، كل شيء تغطيه لمسة إنسانية.

وإذا كانت هناك حاجة إلى حماية، يكفي أن نشتكي إلى "جابي موسى"[١٤]: فكان يمسك بالشخص وفي لحظة خاطفة يسدد إليه ضربة رأس (روسية) على جبهته وبين عينية، تسيل دماءه ويخاف المعتدي دون أن يحدث له ضرراً كبيراً. وهكذا كانت مدينتنا ... نرقص على شرفات الفنادق الكبرى. مدينة رفض أهلي مغادرتها حتى عندما طفت على السطح في فترة زمنية معينة.. التوجهات القومية الراديكالية المتطرفة.

كان أهلنا خواجات لا أجانب.

الأحد ٥ أغسطس

ألم يعترف لي هنري عند عودته من مدينة دبين أنه لم يستطع استعادة ذكريات وصور المقربين منه، لأن نشاطه النضالي أحتل مساحة تفكيره كله. ويكفيني أن أتناول القلم حتى تتدفق الذكريات. الأولى منها تعود إلى طفولتي استرجعت فيها صور رأس البر

---

14 من عائلة سورية كاثوليكية، يحب اللعب، مبذر، له جاذبيته.

ووصول أمي (مع أبي وقد احتلت أمي فيها مساحة الصورة كلها) وهي ترتدي روب للبلاج وتدخل إلى (الكراكون)[15] للبحث عني وهناك أعطاني شاويش يرتدي حلة بيضاء ... قطعة شوكولاته (وكانت أول مرة أهرب فيها). ذكرياتي كلها تدور حول الأسرة والشلة.. لم أشعر بالانتماء إلى أمة ما .. كيف يتحقق ذلك بينما أذهب إلى مدارس فرنسية، ولم تكن دراسة اللغة العربية إجبارية. ولم أتعلم عن مصرٍ إلا النذر اليسير، وتركز ذلك حول تدريس حقبتها الفرعونية، في الصف السادس، كما هو الحال في مدارس الليسيه في فرنسا. ولم توجد إلا مصرية واحدة أصيلة من بين كل التلميذات، وهي جارتنا أميرة حسن، وأبوها إقطاعي متفرنج وأمها إيطالية، وترغب في أن تصبح واحدة منا، أي يهودية، وتذرف الدموع عندما نقول لها بخبث أنها ليست منا، وأتساءل كيف كان من الممكن أن نشعر بمثل هذا الشعور المؤذي؟!... وكنا نتحدث الإيطالية والفرنسية في البيت، وسجلت (كمحلية) في مدرسة الليسيه وذكر ذلك في جواز السفر الذي حصلت عليه عام ١٩٣٦ عندما اعتزمنا الانضمام إلى خالي في البرازيل، "روبير ميليه" الذي يحمل الجنسية الفرنسية.

لم يحمل جواز السفر هذا أي معنى ينتقص أو يحقر من شخصية حامله. وكان معروفا أنه مع وجود جواز سفر أو بدونه، تنظم أحوالنا كيهود بصورة مستقلة، مثلما كان عليه الحال في العصر العثماني.

وكنا في مدرسة الليسيه المسيطرين: اليونانيين، والأرمن، والإيطاليين، وغيرهم، كانوا بالأحرى يترددون على المدارس التابعة لطوائفهم، بينما خصصت المدارس التي ترددنا عليها لمن هم أكثر فقرا من أبناء الطائفة اليهودية، واقتصرت عليهمً.

وترسل عائلات كثيرة بناتها إلى المدارس الإنجليزية، حتى يعدهن لتقلد وظائف السكرتارية. وأخريات يرسلن إلى مدارس الراهبات، لتربيتهن على الطاعة (كان هذا هو الذي صار مع أخواتي اللاتي تقدموني في العمر، الكسولات المخلات بالنظام)، وقد سحبن من المدرسة عندما نجح التبشير الكاثوليكي في اقتناص إحدى بنات عمي الصغيرات وضموها إلى حظيرتهم. ويرسل أصحاب الامتيازات، والعلاقات الاجتماعية(المهمة) بناتهم إلى الليسيه. وكان تعليمهم مكلفاً جداً. ولكن كل شيء بالنسبة لنا مدفوع بالكامل: التسجيل، والفترات الربع سنوية، والكتب والكراسات، والتجارب العملية في المعمل، ومريلة الشتاء من الحرير المطرز، وبدل الصيف من النسيج الأبيض الجميل، وعليه شعار (البعثة الفرنسية العلمانية). وكان غطاء الرأس (البيريه) إجباري.

---

15 قسم شرطة باللغة التركية

د. ديدار فوزي روسانو

رسائل إلى حبايبي

(الكتاب الثاني)

مصـــر

نقله إلى العربية:

د. مراد عثمان خلاف

الناشر:



دار العالم الثالث

انتبه ! كان علينا المحافظة على النظافة، ونسرح شعرنا لكي لا تخرجنا الناظرة من الصف. وعندما يدق جرس الساعة الثامنة والنصف بالضبط تقف الأخت الراهبة الناظرة "المزمازيل" اندريه على درجات المدخل الذي يطل على الملعب، وتقف الفتيات في صفوف متراصة، انتظارا لإشارة من الناظرة للتحرك نحو الفصول. وكنا نقابلها عند باب الفصل الذي يقع اختيارها عليه مصادفة، وتفتشنا مره أخرى بنظراتها الثاقبة. ويا ويل التلميذة التي لا تتفق مقاييس ثيابها مع المطلوب. وعندئذ تستدعى بالاسم، وتوجه إليها الانتقادات، ويصاحب كل ذلك ضحكات من الآخرين (يجيد الأطفال المضايقة)، وتسأل بسخرية هل سرحتي شعرك بشوكة! ... أو هل استخدموا شعرك كخرقه من القماش! ... فهذه أقل الأسئلة فظاعة.

تلك المرايل المدرسية المفصلة من القماش الأبيض! يا له من كابوس يحط على رؤوس الغسالات، وهن جالسات على الأرض بالقرب من وابور جاز مشتعل باستمرار، وفي درجة حرارة تقترب من الأربعين درجة مئوية، لأن الغسيل كان يتطلب مياه مغلية جداء، وحجر زهر أزرق حتى يبيض الغسيل في بلاد التراب والعرق. وبدون الرغبة في التطفل .. ما كنت سأعلم شيئاً عن هذا العناء: كان الغسيل يغسل وينشر في كل المواسم على أسطح العمارات التي كنا نصعد إليها مع أسرنا عشية يوم كيبور [16] لحضور وممارسة طقس يتميز بالقسوة وهو ذبح الديوك والفراخ. حرام يا أم نفيسة ما تعانينه ! بأصابعك المليئة بالشقوق، وابنتك الصغيرة التي تعاني من الحركات العصبية اللاإرادية، ولا تعلم شيئا عن المدارس ... جميلتان جمال لا يتمشى مع ما يعانونه من غلب وشقاء... وما زال أمامكم العناية ببعولكم عندما تعدون في آخر النهار إلى منازلكم.

لا أشعر بحنين لمصر بهذا المنظر

وكأن أبي وأمي لم يكن لهما جذور. ولم نرث قصص عن تاريخ العائلة، ولا حتى قصة خيالية ميثولوجية، توفى جدي وجدتي قبل زواج والداي. وفقدت أمي أبويها عندما بلغت من العمر ستة أشهر، وتولت تربيتها عمة من فرع الأم، باسم جراسيا ريكيز، المولودة باسم موندولفو، وهي من عائلة يهودية كبيرة في الإسكندرية "تزوج ابنها البكر جاك من فرانسين صديقة أختي نيللي.

لم تكن جدتكم تعرف العربية عندما تزوجت، ولكنها قالت لي أن أبيها تحدثها بطلاقة. وكان يرتدي الجندورة وهو اللباس المغاربي، ويحمل الجنسية الفرنسية!. واستنتجت من ذلك أنه جاء حديثاً من الجزائر (وصدر مرسوم كريميو لصالح اليهود عام

---

16 عيد يهودي للصوم والمغفرة، وهو اليوم الوحيد الذي لا يذكرني بأي حدث في الماضي.

١٨٧٠)، ومن المحتمل أنه كان هارباً من مضايقات المستوطنين (الكولون) الذين نافسهم أناس أكثر منهم تعليماً، وبدل اسمه من مالك فرانسيزيه إلى ميليه. مع إضافة اسم روسانو كاسم العائلة، وهو اسم أسرة أبي الذي لا بد أن يعود مسقط رأسه إلى إيطاليا (ففي منطقة كاليبراء، يوجد وادي ومدينة يحملان هذا الاسم)، واستعملوا اللغة الإيطالية كلغة الحديث في أسرته[١٧].

ولا بد أنهم نزحوا إلى مصر من زمن بعيد... ولكن لم نحمل جوازات سفر إيطالية. وكان جدي الأكبر "رابين" قد دفن داخل المعبد الذي يوجد في المقبرة اليهودية بالقاهرة تحيطه مظاهر الاحترام الكبير ، ويحمل الاسم اليهودي – العربي سعد (بطريقة عادية كما هو الحال مع اسم جاعون وموسى وهم من مثقفي الحقبة المأمونية). لماذا إذا العودة إلى اسم انجلو؟ قمت بعملية حسابية. ولد أبي حوالي عام١٨٨٥ أي بعد إنشاء المحاكم المختلطة(١٨٧٥) واحتلال الإنجليز لمصر (١٨٨٢). ويتمتع المرء منذ ذلك التاريخ إن كان أجنبياً بمزايا كثيرة. وتتحول الأسماء الأولى إلى أسماء أوروبية. ولقب ورثة سعد بأسماء مثل راشيل، وفلور، وماتيلدا، وأنجلو، والأطفال باسم أنجلو روسانو، ومنهم إيريس، ونيللي، وجوزيف، وديان.

الاثنين ٦ أغسطس

ما هذا العقل العجيب الذي يسجل بدقة صور تعود إلى الطفولة ! ابتسامة من هنري عندما تحدثت عن محاولة هروبي، وأنا مازلت صغيرة. وصورة أخرى عندما كانت أمي في الثلاثينات من عمرها. كانت ممشوقة القامة، عصابة رأس مربوطة على جانب, وأحد طرفيها يسقط حتى كتفها، وجوبه طويلة، وقميص بأكمام، ويد تحمل عصا مغروزة في الأرض، مثل قدميها، اعتداد بالنفس، وشخصية قوية وجذور متينة. صورة مفقودة أخذت كباقي الصور باللون الأسود، والأبيض ولكني أتذكر ألوان ما كانت ترتديه(عصابة رأس، والجوبه السوداء، والقميص الأحمر). كنت يا أمي يا عزيزتي في عطلة في جبال لبنان. وهي الرحلة الوحيدة التي قمت بها خارج مصر .

لم تكن من عاداتنا البوح بعواطفنا داخل الأسرة، ولكن يا الله... كم كنت أحب لون وجنتيك! ملمسهما كما لو كنت أغطس في البحر. وكثيرا ما ينتابني هذا الشعور عندما تتوقفين عن لعب دور السلطة الحاكمة بأمرها. وعندما تصبحين فريسة ضغط الدم العالي،

---

17 انقسم اليهود السافاراد إلى مجموعات لغوية: المجموعة الإيطالية (التي نزحت إلى الإسكندرية)، واللاتينو (وهم اليهود الإسبانيين) وهي اللغة التي يتحدثها المهاجرون من تركيا، والعربية في مصر وسوريا.

وأنا ساهرة إلى جانب فراشك ولجأ طبيب الأسرة في ذلك الوقت إلى استخدام الديدان الماصة للدم يضعها وراء أذنيك ... ويحرر وصفة طبية تتكون من قطرات اليود والثوم. وافاك الأجل وأنت في الستين من عمرك، بعد قضاء ثلاثة عشر يوماً في غيبوبة: ورم في المخ ...ولكن قلب ممتاز. وكنت في موسكو في ذلك الوقت

وما أعلمه عنكِ وعن طفولتك قليل. مقتطفات كنتِ تقصيها عليّ أحيانا في نهاية فترة العصر في الصيف على شرفة شقة جاردن سيتي، وقد زرعت الفل عليها في قصارى، أما عبقها فلم أجد له مثيلا) وكانت رائحة الفل تأتي في زخات يحملها إلينا نسيم النيل. وكان حديثك يعترضه من حين إلى آخر عبارة ... أوخ! عبارة استحسان وتقدير. كنتِ تحبين خالتك جراسيا كثيراً (عيون زرقاء، وشعر أبيض مرتب في خصلات، وقورة) وتفخرين بزوجها الذي كان من أسرة كافاجليري (صور باهتة في ذاكرتي عن شخص معاق). اعتقد أن مشاعرك نحو ابن خالتك جاك كانت أكثر من مجرد شعور بالصداقة. ولكن كان عليكِ الزواج من رجل لا تعرفينه، يكبرك بإحدى عشر عاماً، قصير القامة، وصلعته تحمل عدة شعيرات نادرة، لم تكن ظاهرة في أول مقابلة سمحت بها خالتك . عشتِ في أول الأمر في بني سويف، مدينة صغيرة من مدن الارياف ... كان من الممكن أن تشعري بشيء من الغيظ بعد إقامتك في الإسكندرية (وهي نوع المشاعر المنتشرة بين ذوات الألسنة السيئة التي كنتِ تلعبين معهن الكوتشينة). لكنك على العكس احتفظت بذكرى طيبة بعد تعلمك الطهو، واللغة العربية. وأنجبتِ هناك أول طفلة لك، إيريس المولودة عام ١٩١١، ذات الشعر الأسود الكثيف الذي كنت تمشطينه في خصلات كبيرة، وتطلب ذلك عناية أكبر بسبب البيئة المحيطة المملوءة بالقمل. أما الأطفال الثلاثة الآخرين فقد ولدوا في القاهرة، حيث أنهى بابا حياته الوظيفية في البنك الأهلي المصري كمدير.

ولكن من أين جاءتك هذه الشخصية الآمرة ؟!... ودماثة الأخلاق، وآداب السلوك؟ كنت أمية تقريباً، تقرئين بالكاد، وكان عليّ أن أكتب إليكِ المرة تلو الأخرى، ومع ذلك لا أتلقى منكِ سوى بضع كلمات بخط يصعب قراءته. تحبين الأوبرا بقدر ما أحبها بابا، تصحبيننا إليها ونحن صغار. وتدندنين طول الوقت ودون تتبع النغم .. فقط المقاطع الرئيسية في أوبرا "جوزيبي فيردي" (ريجوليتو، إيل تروفاتوري، لا ترافيتا...)، وتعيدي سماعها في كل أمسية، يغنيها مغني الأوبرا المشهور "كاروزو" الذي كنتِ تقولين عن صوته أنه يهز صرح القاعة، ونستمع إليه على جهاز الحاكي "هز ماستر فويس"، الذي كان علينا أن نشحنه يدوياً(بمانيفله)، وهو مشهور بمكبر الصوت الملحق به، وبعلامة الكلب الأبيض الجالس في وضع استماع. وبعد ذلك بكثير عندما كنت أنزل عندكِ مع صغيراتي، كنت أصطحبك لمشاهدة عرض أفلام الشاشة الكبيرة مع نيفين: "لام لايت"

لشارلي شابلن، وهو آخر فيلم شاهدناه معاً. كنتُ أحب كثيراً شجاركما: نيفين المعارضة، وأنتِ الجادة، وتهبطين إلى مستواها العمري بالإعلان عن مشاعر الحب مرة، ومرة أخرى بكسب رضائها بمذاق الخبز المقدد.

كان أبي يهيم بأمي. لم أره يغضب منها أبداً، وهو سريع الغضب، وكـــان غضبه فظيعاً، يجعلك تفقد توازنك، نختبئ أنا وأخي جو تحت السرير عندما يوبـــخ أخواتنا الكبار. وتصرين على عدم تأخير ساعة العودة إلى المنزل مساء يوم الجمعة لأنها مناسبة، وتقليد يهودي تؤدى فيه الصلاة، ويوزع فيه الخبز والملح، وهي الأمسية الوحيدة التي تقدم فيها وجبة دسمة (عندنا في مصر: العشـــاء المتأخر خفيــف، يقدم فيه الجبن الأبيض، والخيار والزبادي والبطيخ ...)، وحتى لا تغضبي منه كان يضع اللمسات الأخيرة على المشهد الدرامي الذي يعده... عندما يضع كوعه على ركبتيه، ويقدم حذاءه إلى أمي ... ويمد رأسه ليكشف عن صلعته... وما كان بوسع المصري أفندي أن يفعل أحسن منه. وكنا نقدر احترامه لأمي. فلم يقع شجاراً بينهما أبدا. ولا أعتقد أن أمي كانت تتميز عن غيرها. أنظر إلى قامة الفلاحة المصرية، وهي تضع فوق رأسها سبتاً أو بلاص مياه، وتتقدم سائرة إلى الأمام محافظة على توازنها دون أن تحمل شيئا بذراعيها. قارن ذلك مع منطقة القبائل في الجزائر ...المرأة المحنية بجذعها إلى الأمام تنوء بحمل من الحطب.

ويحمي الأحياء الشعبية في القاهرة (الفتوات).

ولكن على أن أذكر ذلك بشئ من الحزن...

بعد وفاة أنجلو فقدت أمي اهتمامها بالكوتشينة، وبإعداد الأطباق الشهية...

توفي أبي بعد نشوب الحرب العالمية الثانية. وقد بلغ من العمر ٥٥ عاما، وبعد خروجه على المعاش مباشرة. ووافته المنية فجأة بينما كان يرتشف القهوة في مقهى البورصة.

وكان يتمنى ذلك، ويدعو له في صلواته الصباحية. فكان يمقت السرير.

كيانه كله متوجه أساساً نحو الشارع كبقية سكان القاهرة. ونتذكر انفجارنا ضحكا في أمسيات الشتاء بمصاحبة سيلفيرا ...هل تتذكر يا شحاته؟ ودي بيانكو عندما تقول لأنجلو توقف عن محاولة استخدام جاذبيتك في كل مكان ... وكنت تجعلنا نموت ضحكا. عالم صغير من الجيران يحبون التردد علينا لتناول الأطباق الشهية التي تعدها أمي، ولسماع قصص غريبة مضحكة يقصها أبي. وكان غريبا قليلاً ومع ذلك كنت أحبه. وتعلقت به لا سيّما عندما اقترب تاريخ خروجه على المعاش، وقد أصبح هزيلاً. ولذا كنا أكثر انجذابا إليه عاطفياً . وفجأة أصبح لدينا إنسانا مألوفاً، حتى أنه اعترف لي.. وهو يرتكز على عصاه ذات الرأس المستدير عندما شاهد مرور إحدى الفتيات الجميلات في الشارع ... وبعد إيماءة تدل على الاستحسان ... قال أنه عندما كان يعالج في أوروبا

لشهور طويلة (أصيب بداء السكر في الدم) ... لم يجد امرأة أخرى أبدا، في حسن وجمال أمي.

الثلاثاء ٧ أغسطس

كنت مستبعدة، ومطموسة لأني كنت أصغر أخواتي (واليوم أيضا لأني بلغت من العمر مبلغه)، ولذلك عندما أكون بعيدة عن المقربين مني أطلق العنان للمكبوتات. ووجود أخ أكبر مني سناً ميزة. ومع وجود أخي جو أستطيع أن أقضي ما يحلو لي من الوقت في الشارع. أنتن اللاتي كنتم بنات مسالمات طيبات قد لا تصدقن ذلك ... لكن شاهدتكِ يا نيفين وأنتِ تأخذين خلسة تمثال صغير من الزجاج من إحدى متاجر ستكهولم. وأستطيع أن أؤكد أن أفراد شلتنا اقتربوا من عتبة المجرمين الأحداث. وكان أفراد الشلة يطوفون في الأحياء بالدراجات (لم تظهر الموتوسيكلات بعد) ... للسرقة من المتاجر، وأشياء صغيرة من الحقائب، والقفز فوق الجدران للتسلل خلسة إلى السينما، وتسلق الأشجار للقفز في الفضاء بمساعدة فروعها،والتدخين في المراحيض، والهروب من المدرسة (للتسكع) وبصورة متكررة أي شقاوة أولاد. وفصلت لثلاثة أيام من الليسيه. وعرف أبي بذلك عن طريق الصدفة (أخذت خطاب الفصل من صندوق البريد العائلي، وكنت أدخل التعديلات في شهادة الدرجات الربع سنوية لتحسينها قبل أن يقرأها أبي، وهو الأكثر اهتماما بدراستنا).

حدث ذلك بدون أن نكشف الخطة لأخي ، وكنا نحن الفتيات (نذهب إلى فصول ومبانٍ مدرسية وفي ساعات درس مختلفة عن الصبيان) كنا نخطط سراً للمغادرة إلى ... أمريكاً، وأصبح كل هذا النعيم الذي تعرضه الأفلام بالنسبة لنا لغة ومشاهد مألوفة[١٨]. وكنت أرتدي " شورت" (استلفته من أخي جو دون أن يعرف) لكي نبدو كالصبيان، ولكن شكلنا لم يسمح بذلك رغم تسريحة الشعر القصيرة جداً ، ركبنا القطار إلى بنها... أحمل في جيبي جنيهين، وتؤدي مدينة بنها إلى الإسكندرية أو بورسعيد الميناءين البحريين. وقررنا العمل كمحصلات تذاكر سينما بعد نزولنا في الفندق لسداد باقي تكاليف الرحلة. وكان ينتظرنا مفتش شرطة عند خروجنا من الفيلم لاستجوابنا... أسماء مستعارة، وأعمار غير صحيحة (لم نكن في ذلك الوقت في حاجة إلى حمل بطاقة تحقيق الشخصية)، وزعمنا أننا مرشدات فرنسيات في طريقنا إلى القاهرة. وكان ذلك جائزا تماماً (نبهت

---

18 وتشهد على ذلك أفلام يوسف شاهين.

الموانئ خوفا من وقوعنا ضحية شبكات الاتجار في البشر)، فلقد اعتقد آباؤنا أن خطاب الوداع كتبناه تحت التهديد.

ورافقتنا الشرطة في اليوم التالي إلى القاهرة: وكنا قد قفزنا قبل ذلك من نافذة الحجرة للهرب من العسكري الواقف أمام الباب، ولكننا توجهنا خطأً إلى مكان ملاصق لقسم الشرطة! وكانت نتيجة التجربة رقما قياسيا: يومان وليلة دون النجاح في الإمساك بنا! أما الفتيات الأخرى في المجموعة (اللاتي لم يعلمن شيئا عن هذه المغامرة) فلقد انهالت عليهن صفعات أولياء أمورهن لمجرد أنهن ناقشن يوماً ما هذا المشروع. ولم نعامل مثلهن. وأرسلوني إلى صديقة أمي الحميمة فورتيونا ماتاتيا، التي اصطحبتني إلى المسرح، ووضعت مكتبتها تحت تصرفي. ولكن يا للخجل عندما عرفت ما عانته أمي من آلام وهي مريضة مقعدة في السرير. وعندما شاهدت وجه أم سوزي المحطم وعيناها الغارقتان في الدموع ... كانت طفلتها الوحيدة. أي نعم كنت أفضل أن أتلقى (علقه) !.

كان هذا الهروب نقطة تحول ... طردت بعده من مدرسة الليسيه، وكان القرار هذه المرة قراراً نهائيا، قبلت في مدرسة خاصة، مدرسة جابيز التي أنشئت حديثاً، وكانت تسعى لزيادة عدد التلاميذ فيها. فقدت عاما دراسياً بأكمله ، لكن تعلمت العمل ضمن فريق، تحت العين الساهرة للسيد مادلين... أحد الناجين من الحرب العالمية الأولى، وكان يعرج بشدة، ذكي، مثالي، وطيب. درسنا الرياضيات، والفيزياء والكيمياء أما زوجته فدرست لنا اللغة الفرنسية، ولم تكن تهتم بنا كثيراً، بينما يتصرف السيد مادلين العزيز كأنه يمتلكنا، ويعالج بجدية ما ينتابنا من أزمات نفسية. كنا ثلاثة من بين ستة نجحوا في شهادة (المستوى المتوسط الأول) عام ١٩٣٧: وأعدت أسئلة الامتحان وتم ختمها وأرسلت من فرنسا. وأعيدت إجاباتنا إلى فرنسا للتصحيح، وأجرى لنا أساتذتنا في مدرسة الليسيه امتحانا شفوياً. ونجوت بالكاد من الحصول على علامة الصفر في الجغرافيا: بفضل بعض الأفكار التي أمدني بها أخي عشية الامتحان، وكتبت صفحة كاملة عن مواضيع عامة تناولت الجبال السويسرية.

وكان أخي جو من أفضل أصدقائي. أنقذ من الموت منذ سنوات عندما كان صغيرا، وغادر المستشفى وقد ضعفت ساقه، أنقذ بالكاد بفضل الروح المهنية العالية لرئيسة الممرضات (مكثت الليل بطوله لتنزع بأصابعها من حلقه المادة المخاطية التي تخنقه)، وحمل بعد ذلك اسما جديداً، وهو سلمون[١٩]، وكان هذا تقليد متبع في محاولة للتحايل على الرب (وهو في اليهودية مختلف تماما عن نظرية الإله المطلق المجرد)،

---

19 وأتساءل هل كان اختيار أمي وأبي اسم يوسف وسليمان لأخي كان سببه زواجهما في مصر؟.

وفي محاولة لكي يتصور الرب أنه أمام ولادة جديدة، ويعتبر أن موت الآخر كان ممثلا لإرادته فيرضى ويقنع....

وكان شعر رأس أخي ...حتى ذلك الوقت... طويلا مجعدا[٢٠]، وقامته تبدو أطول لنحافته: وكأنه جذع طويل لجسم يتكون من ساقين طويلتين مثل سيقان أفراد عائلة أمي[٢١]". استطعنا أن نمارس مرة أخرى لعبته المفضلة: المصارعة التي كان يتركني أكسب جولاتها أحياناً حتى أوافق على الاستمرار في المباراة معه (لا أحسن قبول الخسارة). وكان يكبرني بعامين ونجح في جذبي نحوه بذكائه وحيوية روحه !

تقاسمنا لمدة طويلة نفس الغرفة، وأظلمت الدنيا في عيناي، عندما وضعت في غرفة مع أخواتي البنات بعد الانتقال إلى منزل آخر. وكانت الروابط بيننا قوية للغاية، وتأثر في أحد الأيام، وصفعني على وجهي لأني تنزهت مع مجموعة من الفتيات، والفتيان على كوبري قصر النيل: وكانت عيناه تدمع، تحت نظرات أبي وأمي المندهشة، والمستهزئة المتهكمة قليلاً (شعرت بشيء من الغضب من موقفهم) . وقرر فيما بعد بمناسبة بلوغي ١٨ سنة أن يقلع عن أسلوبه في التعامل معي كما لو كان لديه حق التصرف في حياتي الشخصية، وقد وجهت إليه اللوم على ذلك. ورغم هذا لم يكن أخي جو مصابا بعقدة السيطرة (لا أقل ولا أكثر من أبي): رزين، مطموس، (شعور بالغضب المستمر... تغلي دماؤه) عضلات طويلة صقلتها السباحة، وركوب الخيل، ذقن منحدرة قليلا، وأنف سامية بارزة، طيب بالسليقة (تشهدن على ذلك يا بناتي؟)، رائع عندما ينسى تحفظه وخجله ليشترك مع الصعايدة في الرقص، وذو تفكير منطقي بارع في استنتاجاته (مثلا في الدفاع عن مواقف تيتو) وعدم دراية لدرجة مؤسفة بكل ما يتعلق بالنقود (بدد ميراثه في أقل من عام)، ومع ذلك فهو أفضل أولادكم .

لماذا تختلط الذكريات مع أغنية "دامية" بعنوان الأحد الحزين .. أغنية مرشحة للراغبين في الانتحار؟ ما اسم الفيلم الذي شاهدناه معاً... تلعب فيه البطلة دور عاهرة، وتضع السيجارة على طرف شفتيها، تجيد حديث الفكاهة أكثر من الغناء مثل جولييت جريكو.

هل تتذكر العرس البدوي الذي صحبتني إليه على طريق الهرم: "فنتازيا" بأسلحة نارية، ابنة أحد الأثرياء صاحب حظائر تربية خيول. كنت تريد أن تشاهد كل شيء. لماذا توقفت يا جو في ١٩٦٧عن الاستمرار في التحدي ؟

---

20 في الغالب إشارة إلى حماية خرافية: أي أن يعتقد أن الولد بنت في الأصل.

21 لقد ورثت طوله يا حفيدي يا إروين.

الأربعاء ٨ أغسطس

اعتنقت الماركسية دون أن يكون الدافع دافعا ثوريا ... بل اكتشفت ما يتضمنه من منطق، وخطاب، وجدل على درجة عالية من الوضوح.

إن التعليم قبل مرحلة الشهادة التوجيهية أو الدراسة الجامعية لا يتجه نحو شحذ التفكير، وبصورة عامه قد لا يحدث ذلك قبل أن يتفاعل المرء مع النظام القائم بغض النظر عن الأيديولوجية التي يختارها. ولقد استطاع أحد ممثلو المؤسسة السويسرية أن يجيب على جورج دوفال[٢٢]، وهو محلل نفسي ومعلم مربي صديق (كان بمثابة الأب لك يا مايرول)، صمم الخطوط العريضة لمشروع تبناه مع أعضاء فريقه يهدف إلى الارتفاع بوعي، وإدراك الشباب في المرحلة الثانوية. رفضت السلطات مشروعه وقيل له (إذا نجح مشروعك من هم إذن الشباب الذي سيعمل كباعة في المتاجر؟) وأنتم يا حفيداتي الصغيرات لا تتوقفن في الطريق. فبدون شعوري القوي بالرغبة في التحدي، لظللت دون حراك في موقعي في البنك في وظيفة أعد فيها أوراق النقد !

ولم أقترب بأي صورة من صورة الفئة المثقفة(الانتليجنسيا) عندما قابلت بمحض المصادفة ريناتو فارفاره في الإسكندرية عام ١٩٤١ (وهو ابن أحد الصحفيين الإيطاليين المناهضين للفاشية)، أثناء مروره متوجها إلى القاهرة، سلمني مجموعة من النصوص عن المادية التاريخية، وأوصاني أن أقرأ الصحف[٢٣]، وعلى الأقل صحيفة يومية قاهرية تصدر بالفرنسية في الصباح، البروجريه إيجيبسيان. وكان عضوا في مجموعة ماركسية في الاسكندرية، تنظم حلقة دراسية في القاهرة، وشجعني على حضور محاضراتها. وكانت مجموعة قانونية شرعية. مثل الرابطة الديمقراطية، التي كنت عضوا فيها، وأعمل مرتين في الأسبوع كموظفة دائمة في مكتبة هذه الرابطة، وكان ينظم الحوار بالفرنسية حول الوضع الدولي.

لم أكن غريبة تماماً عن مجرى الأحداث التي تدور في العالم: كان أبي يستمع إلى الإذاعات الأجنبية، يلتقطها بجهاز إذاعة ممتاز من ماركة فليبس، كانت قطعة أساسية من أثاث المنزل، وكان يهيم بالأخبار التي تقدمها السينما قبل عرض فيلم البرنامج، وقد استبدلت حالياً بالإعلانات بعد أن غزي التلفزيون الديار. كان عضواً في (الفرانك

---

[22] إنسان، مفكر حر، مدافع عن مدرسة فرينايت، استمر في معالجة نصوصه قبل وفاته في ٩ مارس ١٩٩٣ وقد بلغ من العمر ٨٤ سنة

[23] يا ليتك يا نيفين تتبنى هذا السلوك من أجل أطفالك حتى يهتموا بالمشاكل الأساسية لمجتمعهم (ولو بإلقائهم نظرة على صحيفة متروكة جانبا...).

ماسون)، اكتشفنا ذلك بعد مماته عندما كنا نرتب أغراضه الشخصية، وقد أصابته قرحة مستعصية من النازية، وكان يستمع إلى خطابات هتلر دون أن يتحدث الألمانية: هازاً رأسه أكثر من المتوقع عادة، يود أن يلقي بهؤلاء (النازي الأقذار) إلى الجحيم، وقد انتابه غضب شديد جعله يترك الغرفة. وكنت أستمع معه إلى الإذاعة ... فرصة لخلق رابطة مع هذا الأب الذي كان يدفعنا إلى البكاء ضحكاً، وأحياناً نخاف من غضبه، الذي تعودنا عليه ولكن مع ذلك لا نكف عن الاستغراب، أنهكه مرض السكر، ومات بسببه، قبل زحف الجيش الألماني نحو الاسكندرية، وقررنا جميعا أن ذلك كان من الأفضل له.

أحمل في داخلي شعور قوي برفض قاطع لتعلم اللغة الألمانية!!.

شعرت بضيق شديد عندما زرت أحد معارض المعدات الزراعية، وكان وصف المعدات بالألمانية بواسطة مكبر للصوت. وقررت في نفسي تعلم هذه اللغة حتى أتغلب على هذه العقدة[٢٤]. ولن يمنعنا ذلك من الاستمرار في كراهية كل أشكال النازية والتعصب.

كان أخي جو الوحيد من بين أفراد الأسرة الذي اكتسب وعيا سياسيا. أما أخواتي فكن من جيل الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى، بعد انقشاع ضباب الانفراج الدولي (احتلال منشوريا بواسطة اليابان في ١٩٣١، وانسحاب ألمانيا من عصبة الأمم في ١٩٣٣)، وفقدان الأمل فيما ترتب على التقدم التقني من نتائج ... منها (العمل اللاإنساني بحركات متكررة أمام خط إنتاج متحرك) وفي مجتمع مترهل، وبدون آمال .

لا يمكن الاعتداد بالجهود المبذولة في فترة الأزمات والبطالة: تركت أخواتي المدرسة قبل حصولهن على الشهادة الثانوية، ولم يفكرن أبداً في العمل. وبنفس التحفظ والسرية التي تحلى بها أبي، علمت بالمصادفة باهتمام أخي جو بالسياسة... عثرت على مقتطفات مقصوصة من الجرائد تناولت موضوع الجبهة الشعبية في فرنسا، والحرب الأهلية في أسبانيا.نا ننتمي إلى جيل النضال المعادي للفاشية، ونهضة الحركة الوطنية المصرية.وكيهود من مصر... كنا ملزمين بالاختيار.

---

24 صوت حنا شيجيلا والممثلة التي قرضت أشعار الأمير يوسوفي في "برلين الشرقية" داموس لهيتاي، ساحرة حقيقية , خلصتني من عقدتي، ثم طيبة ورعاية كلاوس الذي كرس ساعات طويلة ليفهمني كيـــف اســتخدم برنامج للحاسب الآلي.

يهودية من مصر

كنت شاهدة على ما اكتسبته مجموعة الشيوعيون اليهود المنفيون من مصر من خبرة نضالية، وكان هنري كورييل يقود المجموعة في باريس. وكان من أهداف المجموعة الإسهام في حل الصراع الإسرائيلي- العربي، بتيسير الحوار أساسا بين القادة الإسرائيليين والفلسطينيين.

وكان من بين الذين اتصلنا بهم، من قيادات منظمة التحرير الفلسطينية الموجودة في الخارج عصام السرطاوي الذي اغتيل عام ١٩٨٣، وأبو مازن (محمود عباس الذي خلف ياسر عرفات على رأس السلطة الفلسطينية)، ومن الجانب الآخر نخبة الأشكيناز الإسرائيلية ماتيتياهو بيليد ويوري أفنيري. واستمرت جهودنا بعد اغتيال هنري وحتى اتفاق أوسلو.

كنت ممنوعة من دخول فرنسا بعد هروبي من سجن النساء في باريس، لكي أنضم إلى المتعاطفين مع نضال جبهة التحرير الوطنية الجزائرية. وبعد عودتي إلى أوروبا كرست جل وقتي للإسهام في تسوية هذا الصراع. وآنذاك اشتركت في نشاط منظمة غير حكومية بعنوان (فلسطين وإسرائيل يعيشان معا)... برنامج كامل... اعترف به اليوم في كل مكان، ورغم ذلك يواجه أزمة بسبب غياب الإرادة السياسية. ولم أكن أتصور أن يحدث ذلك أبداً: ففي مصر حيث عشت في ذلك الوقت حتى الحرب العربية- الإسرائيلية في ١٩٤٨ ثم العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦، كنت أجهل كل شيء عن القضية.

وفي معرض ذكرياتي كنت أكتب عن أحوالي كيهودية من مصر.

الجمعة ١٠ أغسطس ١٩٧٩

لم أكن حتى نشوب الحرب العالمية الثانية إلا يهودية! عاصرت التصورات والجدال المستمر حول حركة الكيبوتز (المستوطنات الزراعية التعاونية) ولا أتذكر شيئاً عن الحوار الذي دار حول الصهيونية. وعندما سافرت خارج مصر فهمت خصوصيتنا

رسائل إلى حبايبي
(الكتاب الثاني)
مصـــــــــر

تأليف :
د. ديدار فوزي روسانو

نقله إلى العربية :
د. مراد عثمان خلاف
الطبعة العربية الأولى
٢٠٠٦

الناشر :
دار العالم الثالث
٣٢ صبري أبو علم/ باب اللوق، القاهرة
ت وفاكس : ٣٩٢٢٨٨٠
Email: elguindimohamed@hotmail.com

مقارنة بالمجتمعات اليهودية الأخرى التي كانت موجودة في أوروبا الوسطى وفي المغرب. وكانت طائفة السفاراد تعود أصولها في مصر إلى الحقبة العثمانية،

كيف أصف ذلك؟ لم أعان من عقلية الجيتو[٢٥] . كنا مؤمنين بالديانة اليهودية دون تطرف، وكانت عائلاتنا منفتحة على العالم الخارجي. وأعني بذلك على الأقل البورجوازية اليهودية القاطنة في القاهرة والإسكندرية. ولم يكن ذلك بسبب تأثير الثقافة الفرنسية في حد ذاتها (ويختلف عنا في ذلك يهود المغرب).

ولأني عشت في مجتمعات ذات ثقافات متعددة، لم أعتبر الثقافة الفرنسية في مصر، ثقافة كولونيالية مستعمرة، ولا هي ثقافة مستعمرة (لم نأتِ مصر كغزاة فاتحين ... كنا جميعا تحت احتلال بريطاني لم يحاول أبداً دمجنا). وكانت مدننا بالمناسبة في الإمبراطورية العثمانية القديمة مدن مفتوحة متعددة الجنسيات. وأتذكر كيف اندهشت من القرار الذي اتخذه أحد الأشخاص الذي جاء من رومانيا لدى مروره بالقاهرة، بالانضمام إلى (حركة اليهود من أجل تحرير فلسطين) والبقاء في البلاد وكان يردد (هذا واضح أنك كطفلة لم تلق عليك حجارة لأنك يهودية...).

شكل اليهود طائفة الأقلية الثانية في مصر، بعد الطائفة القبطية. أما باقي الأقليات فكانت طوائف أجنبية، أو جماعات سكانية في منتهى الصغر. ولعبت مصر من الناحية التاريخية دوراً أساسياً في تكوين الشعب اليهودي: فالتنقل كان سهلاً وثابتاً بينها وبين كنعان، وترك العبريون مصر بتوجيه من موسى. وتزوج "شمشون" بعد الاستيلاء على "كنعان" وبعد تكوين المملكتين، بابنة أحد الفراعنة.وكان يوسف من قبله قد أطلق ساقيه للريح هربا من المجاعة، وأصبح شخصية هامة في مصر ... تزوج ابنة كبير كهنة هيليوبولس ..!. وكان يكفي في ذلك الوقت، للحصول على حق الإقامة أن تبدي الإخلاص إلى الفرعون, وتحترم تقاليد وأعراف البلاد حتى يسمح لك بالإدماج ... ولا يهم كثيراً من هو الذي سبق الآخر في اعتناق مفهوم التوحيد[٢٦].

قد يكون التأثير الهيليني كافياً لشرح السبب في حدوث التحولات الداخلية في المفهوم التوحيدي اليهودي الذي كرس سيطرة الرجل على المرأة، وفقدت بذلك سلطتها

---

25 لم يجبر يهود مصر أي قانون على الاقامة في الحي اليهودي (إلا أثناء حقبة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله).

26 حان يوبوت عالم تاريخ مصري قديم صديق ليديا مزراحي كان يتردد عليهم في باريس ... أبرز الفرق بين الإله المرئي لأخناتون (قرص الشمس ضوء الخالق في باطن الطبيعة وعلاقة ذلك باليهودية أو الإله اليهودي الغير مرئي الغيبي الميتافيزيقي الذي يقع خارج وفوق نظام الطبيعة).

ومكانتها الاجتماعية[٢٧]. ما هو الطريق الذي سارت فيه هذه العمليـة التكوينية حتى تنتهي باتباع ممارسة دينية تتنكر لحقوق المرأة؟!!

تحتل المرأة في المعبد الصفوف الخلفية في الشرفات العليا، حتى أنه عندما تؤدى الصلاة المقدسة التي يشترك فيها جميع المؤمنين من نساءً ورجال أي في يوم كيبور تقف هي بعيدة عن الـ(سيفيرز) التي بها التوراة يحملها الرجال ويتنقلون بها فقط بين الصفوف السفلي المخصصة للرجال. وبما أنه لا يسمح لهن بلمس هذا الكتاب المقدس فإنهن يتظاهرن بتقبيله من على بعد... إنها فضيحة[٢٨]! وكان الأولاد في وقتي يتعلمون العبرية ويحتفلون بالتفليم[٢٩]. ومن المؤسف لم تسنح لي فرصة تعلمها بينما تعلمت العربية في مدرسة اللغات الشرقية في باريس.

كانت توجد في مصر الفرعونية دائماً طائفة أو عدة طوائف يهودية (مبعثرة على نطاق القطر في العصور الهيلينية والرومانية). ولقد ذكر في العهد القديم أن اليهود ظلوا في مصر حتى بعد الخروج. وتحولهم إلى الشتات . وأصبحت مصر وطنا وملجأ للمنشقين من الممالك العبرية. كما كان الأمر بالنسبة للشعوب الأرامية. وظهرت مستوطنات من المرتزقة اليهود. كما تكونت في العصر الفارسي مستوطنة عسكرية من جنود مرتزقة حضرت من مملكة يهوذا لتستقر في جزيرة فيلة (في مواجهة أسوان): وبنوا معبدا في (تل اليهودية) يشبه ذلك الموجود في أورشليم. ووصل الإسكندر وخلفائه إلى مصر (البطالمة)، وأصبح اليهود هيلينين. ولعبوا دوراً أساسياً أشبه بالدور الذي لعبه الإغريق ولا سيّما في الاسكندرية، وهي حينذاك من أكثر مدن العالم القديم علماً ومعرفة، عاش فيها فيلون المشهور... رجل الفكر والعمل[٣٠]، وكان من أسرة ميسورة الحال من النبلاء اليهود. وكما كان الأمر بالنسبة لليهود عندما تحولوا إلى الهيلينية. تعرب اليهود بعد الفتح العربي (ترجمت التوراة إلى الإغريقية ثم إلى العربية). وازدادت رفاهية الطوائف الأخرى في العصر الفاطمي، واجتذب اليهود من كل مناطق الشرق علماء كبار

---

27 يسعدني أن أعلم أن مجموعة من النساء اليهوديات المتدينات في القدس أصرت على حق الصلاة أمـام الجدار الغربي (المعروف باسم حائط المبكى) أسوة بالرجال... وأنه في ألمانيا ظهرت أولى الحاخامـات مـن النساء وهي سويسرية , وقد بدأت عملها بالفعل.

28 وتوجد في الشتات منذ ذلك الحين طوائف يهودية ليبرالية غيرت تماماً من هذه الممارسات.

29 يسمى في أوروبا بار ميتسفا.

30 يتدخل لدى الإمبراطور جاديجولا في روما لصالح طائفته المهددة.

مثل عالم اللاهوت[٣١]، والطبيب [٣٢] ابن ميمون، الذي حط رحاله في مصر عام ١١٦٥، وأصبح لفترة من الزمن حاخام كنيس بن عيزرا الذي كان يحتفظ فيه في القاهرة بكتابات ومخطوطات الجينيزا[٣٣] ، وتوفي في القاهرة عام١٢٠٤ ودفن بناء على طلبه في طبريا في الأراضي المقدسة. وأقام اليهود في الإسكندرية والفسطاط (القاهرة القديمة) وفي رشيد ودمياط وكان منهم التجار الأغنياء والعلماءً وأيضاً العمال المهرة. وقيل أن طائفة يهودية سكنت مدينة المحلة الكبرى، المدينة العمالية، بل وجدت قرية من الفلاحين اليهود بالقرب من مدينة بنها.

ولا غرابة في ذلك: استضافتني في عام ١٩٥٩ أسرة يهودية تقطن على حافة الصحراء المغربية! (يرتدي الرجال قبعة "بيريه" والنساء يلفون رؤوسهم بوشاح أو منديل رقبة).

عشت جزءاً من حياتي في مصر عندما كانت لا تزال ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية الإسلامية. ولا أعلم كثيراً عن الإمبراطوريات الأخرى الموجودة في ذلك العصر، ولكني تعجبت كيف استطاعت الإمبراطورية العثمانية أن تجمع بين عالمٍ متعدد الثقافات دون حدوث صدامات كبيرة. وكانت الطوائف الأجنبية والدينية مستقلة ذاتياً, ومنها الطائفة اليهودية، التي توقفت في القرن التاسع عشر عن دفع ضريبة الجزية، وأرسل كثير منهم أطفالهم إلى مدارس الأليانس الفرنسية. وكان التعايش في مصر بين الطوائف يتسم بالهدوء كما كان الانتساب إلى الطائفة الإسرائيلية مصدراً للأمن والمكانة الاجتماعية[٣٤].

وكانت لغة التعامل اليومي هي الفرنسية (وليست العبرية) وكانت العربية مستعملة في حارة اليهود التي تمتد من العتبة الخضرة حتى الموسكي. وقد اكتظت بالسكان في القرن التاسع عشر، وانتشرت الأسر الأكثر يسراً وسكنت وسط المدينة، ثم سكنت بعد ذلك في الضواحي القريبة (جاردن سيتي، والزمالك، والمعادي ...).

---

31 مرشد الضالين يحاول التقريب بين أفكار أرسطو واليهودية.

32 كان الطبيب الخاص لصلاح الدين وابنه.

33 وثائق الطائفة اليهودية في القاهرة (المدنية والدينية) بعضها يعود إلى القرن الحادي عشر تم اكتشافها في مخبأ يصعب الوصول إليه بينما كان يتم ترميمه الكنيس في عام ١٨٩٠.

34 بلغت أعدادهم منذ استقرارهم في مصر لعقود طويلة ٦ آلاف إلى ٧ آلاف فرد، وسجل ٦٥,٦٣٩ ألف يهودي أسماؤهم في ١٩٤٧ وقد جاءوا من جميع أنحاء الإمبراطورية الغثمانية القديمة، وانقسموا إلى ثلاثة طوائف ذات ممارسات وطقوس مختلفة وهن (السفارديم، والقرائين، والأشكيناز)

لم تكن ثقافتنا لا مسيطِرة ولا مسيطَرة عليها، ولم تكن عنصرية. ولم أسمع أبداً في أسرتي عن آراء تحتقر بأي صورة من الصور سكان القاهرة من خارج طائفتنا، ومنهم من كان يعمل لدينا كخدم. كما لم أسمع أبدا في أسرتيّ، وهذا قبل زواجي، من يستخدم عبارات مهينة، مثل عبارة (فلاح) عندما يجري الحديث عن المصري.

وكنا نحب كثيراً الفلاحة الشابة التي جاءت من الريف المجاور تحمل اللبن بانتظام لوالدتي... لبن الجاموسة الطازج، والجبن الأبيض القريش مع البيض الطازج الذي كانت أمي تطعمني إياه... وكانت تخلطه باللبن العسل لتقويتي. صحيح كانت تطرق الباب من ناحية سلم الخدم وتفترش أمامها كل ما تحمله على عتبة الباب.. ولا يسمح لها بالدخول خوفا من القمل والميكروبات التي لا ترحم !

ويجري الترتيب الهرمي لمشاهير الناس حسب ثرواتهم. ولقد أصاب كثير منهم ثروات ضخمة نتيجة مضاربات البورصة أثناء الحرب العالمية الأولى، هذا ما قاله لي إميل عدس (وهو من أسرة أصلها من حلب، وكان يتاجر في القطن والمنسوجات)، تزوج أختي الرائعة الجمال نيللي كزوجة ثانية وكان يحمل الجنسية البريطانية، وثقافته إنجليزية، وكان الحاكم الآمر في البورصة ويلعب مع الملك لعبة (السكة الحديد) ويسامره... وتكونت ثروات أكثر تواضعاً تعتمد على ما يكتسبه الفرد من المهنة التي يزاولها ... مثل الثروة التي جمعها "الميتر" جاك جربوعة، المحامي المشهور الذي كان يعيش مع طنط راشيل، أرملة أبيه الشابة الجميلة، ولقد تولى رعاية وتربية أولادها. وكنا نقضي عيد الربيع اليهودي عندهم(وهو احتفال بذكرى الخروج من مصر). وتنتسب ابنته أليس سورييل[٣٥] عن طريق الزواج إلى عائلة شيكوريل، وهي عائلة من أصحاب الثروات الكبرى. وتزوجت إحدى بناتها ببيير منديس فرانس قبل أن يتوفى بسرطان الدم. وتزوج ابنها موريس المهندس الزراعي المتخصص في زراعة الأرز، من أخت مدام جاستون وييت، مستشرق مشهور (وكان عضوا في فريق الأساتذة الذي قام بامتحاني لدى التحاقي بمدرسة اللغات الشرقية)، الخ الخ.

كان (فقراء) الحي اليهودي مقارنة مع كتلة البؤساء، يعدون من أصحاب الامتيازات: وتستند المساعدات التي تقدم لأفراد الطائفة إلى قواعد ونظم مؤسسية. كان تعليم أطفال الطائفة مجاناً. ونحتكم إلى المحاكم المختلطة (استمرت في العمل حتى عام ١٩٤٩)، وكانت المجالس الدينية تنظم الشؤون الاجتماعية للطائفة (كما هو الحال بالنسبة

---

35 امرأة جميلة بوجه خاص... متفتحة ولا تحمل أي ضغينة ضدي لأنها اضطرت أن تذهب إلى قسم الشرطة ليلة إلقاء القبض عليّ في باريس.

لجميع الطوائف الدينية)، ولم يحدث صدام بالمرة. بل حدثت بالأحرى صدامات بين البرجوازية المحلية الصاعدة الناطقة بالعربية، وفلول الغزاة القدامى من الناطقين بالتركية (الشركس)، وكلاهما يمثلون أغلبية مسلمة... أي أنهم يتبعون نفس المحاكم القضائية.

وعند ذكر "الباشا"... وهو مؤسس فرع الأسرة المصري الذي ينتمي إليه أبوكم..

تحضرني إحدى الروايات التي سمعتها... عندما رفض جدكم أن يمتثل أمام قاضي محلي من الأهالي، وسبه قائلاً يا فلاح يا قذر (سيس فلاح) قبل أن يغادر المحكمة!. وباختصار لم يكن تاريخ اليهود في مصر له أية علاقة... ولا يمكن مقارنته بأي صورة بما حدث لليهود من معاناة في أوروبا.

ولقد تسبب انتشار الفاشية في أوروبا في انقسام الطوائف. وسادت القوانين العنصرية التي صدرت في إيطاليا الفاشية عام ١٩٣٨ وأحدثت صدعا غائرا بين الإيطاليين واليهود. ووقعت أحداث عنف بين النوادي الرياضية: المكابي ضد ليتوريو (وكان الصراع يدور بالضرب بالكراسي في نهاية المباريات... وهو أسلوب مصري صميم في العراك).

ووقعت فضيحة داخل أسرتي: عندما تزوجت ابنة عمتي روز ابنة راشيل وأخت أنيس، من الإيطالي الكاثوليكي، صديق القنصل الفاشستي. وهذه فضيحة عارضة فقط. وكانت هناك فضيحة أخرى أكثر مأساوية هي فضيحة أسرة جاندوس: كان الأب يهودياً والأم كاثوليكية معجبة بالزعيم الفاشستي " الدوتشي"، وبفضل عبارات الحب بينهما هدأت الأمور، وانقسمت الطائفة الإيطالية إلى طرف فاشستي، وطرف مناهض للفاشية، كما انقسمت الطائفة اليونانية إلى مناصري (ميتاكساس الدكتاتور) والشيوعيين. وحدثت هذه التوترات مع اقتراب إعلان نهاية العمل بالامتيازات الطائفية (معاهدة ١٩٣٦مع بريطانيا)، وقبول عضوية مصر في عصبة الأمم عام ١٩٣٧، والإلتزام بالاختيار. وقررت أسرتي بعد تردد لم يستمر طويلا السعي للحصول على الجنسية المصرية، وأعلن أبي جهاراً عن رغبته في أن يموت في بلده[٣٦].

وأقامت البرجوازية الوطنية التي بدأت في التوسع في العشرينات حواجز لحماية مصالحها: حتى أن اكتساب الجنسية المصرية، في حالة من يتقدم للحصول عليها من غير المسلمين يتطلب تقديم دليل يؤكد أن أجداده ولدوا في هذا البلد، أو في إحدى ولايات الإمبراطورية القديمة، وأنهم لم يكتسبوا جنسية أجنبية أخرى منذ عام ١٨٤٨. وكان هذا

---

36 بينما كان قد اشترى قطعة أرض في القدس (الأرض المقدسة)

هو وضعنا . وفضلا عن ذلك طلب منا الإثبات: أي ينبغي أن أنبش رفات أهلي الموتى بحثا عن شهادات ميلاد ؟ !! هذا ما قالته والدتي التي كانت تعرف بالكاد من أين جاءت أسرتها. ومهدنا الطريق بمجهود المحامي وبعض المساعدات المالية من هنا وهناك.

ونتبين مدى التعسف عندما يحصل المسلم بصورة تلقائية على جنسيته حتى ولو لم يكن قد ولد في مصر. وهذا لا يقل تعسفاً عن تعسف القانون الإسرائيلي الذي يعطي الجنسية لكل يهودي يحط رحالة في إسرائيل، بينما الفلسطيني المولود في البلاد، ولجأ إلى الخارج بسبب الحرب لا يحق له العودة. ولكن قليل منا في مصر وقع فريسه في براثن المغامرة الصهيونية.

واجتذبتنا حركة الكيبوتز ونحن شباب، ولم يكن هدفها تأكيد الهوية أو الذات، ولكن بالأحرى لأنها دعتنا إلى تجاوز الذات. وكانوا يرسلون إلينا وثائق إعلامية تتناول استصلاح الأراضي، وكيفية إعدادها للزراعة، ومتطلبات الحياة التعاونية، ونظمت حوارات، في صالة سينما مترو الكبيرة، التي أمتلئت عن جعبة أبيها بالمتابعين. وكانت فكرة العيش في الهواء الطلق ترفع درجة حماس أفراد مجموعة المرشدات التي تكونت متأخراً، ولم يكن قد تضايقن بعد من تسرب ذرات رمال الصحراء إلى الأطباق والمواعين أثناء عملية الطهو... وقد تحمسن إلى أقصى درجة للسير مسافات طويلة في الصحراء الموحشة مع فتيان الكشافة من فرقة الماكابيه، ابتداء من الفجر حتى غروب الشمس، وكنا نعود بعد هذه المسيرات وقد دميت أقدامنا (كان حذاء التنس في ذلك الوقت من القماش ويحمي بالكاد الأقدام من الحجارة والمواد الحادة). وكنا نرتدي الشورت أو الثوب الأزرق الفاتح أثناء أيام الاستعراضات (استعراض اليوبيل الخمسيني)، وكان رباط العنق أبيض اللون مع نجمة داود محاطة بالأزرق، إلا أننا نتمسك فقط بتقاليد اليهودية التي كانت تأخذ شكل رقصة الهورا الشيطانية العجيبة، نرقصها ونردد كلماتها حول نار موقدة.

ونظمت جارتنا مجموعة مرتبطة بالنشاط البريطاني وهي "فيوليت" التي تبلغ بالكاد عمرنا أو أكثر قليلاً، وهي من أسرة يهودية إسبانية جاءت من أزمير وكانت تتحدث بلغة اللادينو، ونظم جيراننا بنفس الطابق في عمارة شارع البستان مجموعة من الفتيات للقيام بنشاط خارج نطاق الأسر. وكان هذا تجديد حقاً.

شجعني والدي أن أتابع مع أخي دروس العبرية التي كان يلقنها الحاخام: ولم يهتم هذا الحاخام كثيراً بي، ونموت مللاً بينما كان أخي جو يقاسي الأمرين في محاولة فك طلاسم النص، وكان الحاخام يطلق أصوات مثل "ها...أكمل" التي كانت تتباعد كلما أستغرق في أحلامه (ونساعده أن ينجرف في هذا التيار)، ويدندن بالعبرية. وعندما أجاد أخي جو "التفليم" (العماد) (كثرت أخطاؤه بطريقة عجيبة... وهو يرتدي الشال الأبيض)، وكان يرفض قيود الصلاة في الصباح ثم الصيام. وسراً يؤديهما حتى لا يجرح شعور

والده، ولم يطلب هذا الأب...على أية حال تقديم مثل هذه التضحية أكثر من مرة في العام، ولم تعترضني المشكلة التي اعترضت أخي جو: كنت مؤمنة، وأمارس الطقوس عن وعي إلى أن اقتنعت بالماركسية.

كنت أقف إلى جانب الرجال أثناء الصلوات التي يؤديها أفراد أسرتي، حتى أبتعد عن ثرثرة النساء، ونأكل في الأعياد خبز "اعزيم" (دون خميرة) أثناء السبعة أيام الخاصة بعيد البيساح (عيد الربيع اليهودي)، وأصوم يوم كيبور، دون غش. ولكن لم يتجاوز كل هذا النشاط نطاق الممارسات الطقسيه. نشعر ببعض المشاعر العاطفية (عند سماع صوت البوق الذي يعلن نهاية الصوم). دون أن نشعر بأي رغبة ولو دفينة للخوض في أي حوار لاهوتي . وقد يكون هذا هو تفسير سهولة انضمامي إلى الماركسية!... بدون أزمات. ولم أتوقف عن صيام يوم كيبور علنا بعد زواجي كي أؤكد لأمي أني لم أصبح غريبة عليهم. فمعنى أن تكون يهوديا في مصر هو أن تنتمي إلى أسرة وإلى طائفة تعني بأعضائها.

وباعتباري من أفراد الطائفة الإسرائيلية لم يعن ذلك اعتناقي ما تؤمن به الصهيونية (ولقد كانت موجودة بصورة قانونية، وممثلة في مصر حتى الحرب العربية – الإسرائيلية الأولى).

ولم يوجد في أسرتي الكبيرة إلا فرد واحد مارس نشاطا صهيونيا: وهو ابن خالتي جاداليا دايان. وكان والده يدرس العربية في الليسيه فرانسيه في القاهرة. وغادر مصر إلى فلسطين وقد بلغ من العمر ١٧ عاماً، ثم عاد جداليا إلى القاهرة بعد استعطاف والده الذي ألحقه بوظيفة "جيدة"!. ولكنه غادرها بعد ذلك بقليل ... لعجزه عن تحمل تقاليد مجتمع محافظ. وتحمس لمبادئ الكيبوتز، أي بمعنى آخر تحمس لمنظمة مكونة من أعضاء متساوين في الحقوق وفي الواجبات، مؤسسة على مفاهيم المبادئ الاشتراكية ... وقد اختارت إيستر الأخت الكبرى لجداليا أن تكون راهبة مدرسة في لبنان! أما أنا فلقد اجتذبتني الشيوعية.

وعندما انضم جوزيف حزان بعد بضع سنوات إلى المنظمة كان بإمكانه أن يحكم علينا إن كنا بالفعل غريبا الأطوار: وهو من أسرة يهودية تعود أصولها إلى سوريا، لاعب كرة سلة ممتاز (وكان طويل القامة)، وعضو في نادي الماكابي، ومشهور في حيه في الظاهر. ولا أتذكر شعوري بأي توتر: كان أبي قد توفى، وأحيط انتمائنا إلى الحركة الشيوعية بهالة من السرية، وتدفعني نزعتي المناهضة للقيود المحافظة إلى الانفصام عن قواعد مجتمع طائفي بورجوازي.

ولكن من حظي أني أصبحت عضوا في منظمة مناضلة تفضل العمل الميداني على التقوقع في حوارات أيديولوجية بيزنطية لا طائل من ورائها، مثل موضوعات الجنسين، والديانات. وتحول النشاط بعد ذلك مرة واحدة إلى شيء ملموس.

لنسأل لماذا أصبح اليهود من بين طليعة من ساهم في إنشاء ثلاثة من أهم المنظمات الشيوعية في الأربعينات ؟

ألخص أفكاري بالنسبة لهذا الموضوع بعد قراءة نص كنت قد أعددته "لجاك ديبوني" مراسل جريدة لومانيتيه الفرنسية في الجزائر،

أجرى معي مقابلة تحدثنا فيها عن نضال هنري قبل اغتياله بقليل، وكان الغرض من المقابلة إضافة نتيجتها إلى برنامج سلسلة تاريخية عن الجزائر يعدها "هنري أليك".

واليكم ما قلته في ذلك الحين :

(كانت ثقافة الشريحة البورجوازية داخل الطائفة اليهودية في مصر هي ثقافة فرنسية أو ثقافة مزيج عندما تتصل بالآداب العربية)، لم يكن ذلك خيارا، ودور هنري استثنائي (بل في الواقع كان مجمل خط سيره وسيرته استثناء). ففي مواجهة انتصارات الفاشية والنازية في أوروبا (مع التداعيات الحاصلة في مصر)، تتصاعد مشاعر الحماسة والحيوية في صفوف أعضاء الطائفة من السياسيين وتغذيها الحركة الوطنية المصرية، وكان ذلك رغم فقد امتيازاتهم السابقة. كما ظلوا بمنأى عن صراعات المشايعة والموالاة (التي لم تعنيهم في كثير أو قليل)، وانضم الشباب إلى الاتحاد/ أو الرابطة الديمقراطية التي أنشئت في القاهرة[٣٧]. وهو تنظيم قانوني. وتكونت الرابطة أساساً من اليهود، والأجانب (سواء أكانوا من مصر أو مجرد عابرين لها)، وأيضاً من المثقفين والنخبة المصرية (الأقباط وبعض من تعود أصولهم إلى الشام)، وأحياناً من بعض أفراد العائلات المسلمة الكبرى.

ويدور معظم الحوار حول السياسة الدولية (واعتبر البعض أن الرابطة أداة في يد الإنجليز). وأتذكر الخطب المطولة في المؤتمرات العامة (كلفت بقراءتها) قامت بصياغتها المشاركات الصينيات يشجبن فيها الإمبريالية اليابانية! أو مثلا روايات شبه خرافية (يفقد شديدو الحساسية الوعي عند سماعها) مثل رواية ضابط فرنسي نجح في الهرب من معسكر اعتقال ألماني يشرح فيها تجربته وما كان يمارسه علماء النازي من تجارب على المسجونين، مستخدمين أساليب مختلفة تؤدي إلى ردود فعل تجعلهم يلحسون الطعام من

---

37 حسب ما قاله راؤول كوريل ... هو الذي أنشأ هذه الرابطة مع ريموند آجيون (إبن عمه) والشيوعي السويسري جورج بوانتيه.

على الأرض وينبحون كالكلاب. ثم ترتفع درجة الحرارة الجمهور عندما أعلن الشيوعي الفرنسي جاك دكومب غزو جحافل الألمان الاتحاد السوفييتي. ولم يتقاعس أحد عن إبداء الرغبة الصادقة في التطوع للدفاع عن موسكو ... لو توفرت وسيلة للذهاب (أعرضت، الحكومتين البريطانية والفرنسية في مؤتمر ميونيخ، وبآذان صماء عن نداءات ستالين، ولم يدفعنا ذلك إلى تبرير موقفهم المخزي... حتى ولو اعتبر البعض الحلف الألماني السوفيتي السابق خيانة...).

وأشترك اليهود المناضلون من الرابطة مع قيادات أخرى في إدارة نشاط قيادة المنظمات الرئيسية التي أصبحت فيما بعد الحركة الشيوعية المصرية[٣٨]... (حلت هذه الرابطة عام ١٩٤٣ بسبب نشاطها الشيوعي). إلا أن الحركة لم تنشأ من فراغ: عندما جرت تصفية الحزب الشيوعي المصري الأول عام ١٩٢٤ استمرت رغم ذلك مجموعات أجنبية في النضال وكانت مرتبطة بالحزب الشيوعي في بلادها. وكانت المجموعة اليونانية "بيتريدس" أكثر المجموعات نشاطاً. وأجريت اتصالات أيضاً مع مجموعة المعلمين الشيوعيين في الليسيه الفرنسي، ومع الشيوعيين الذين كانوا في زيارات عابرة مثل: الفرنسي النشط في منظمة القوات الفرنسية الحرة "آندريه مارتي"[٣٩]، والبريطاني "سام بارديل"، الذي أصبح مسؤولاً فيما بعد عن قسم الشرق الأوسط في الحزب الشيوعي البريطاني، وتزوج من إحدى فتياتنا[٤٠]، ومثل "روبيرت براوننغ" الذي اشتهر بالتخصص في بحوث الحقبة الهيلينية[٤١].

وينبغي ذكر مجموعة من المصريين تكونت عام ١٩٣٥ (ومنهم يوسف درويش، وهو من أصل يهودي، نفيَ إلى الجزائر بعد أن قبع في السجون لسنوات طويلة، وهو محامي متخصص في الدفاع عن النقابيين)، مشهور بجريدته (الفجر الجديد)، عرفت فيما بعد بجريدة تنظيم الطليعة العمالية، وكان من بين أعضائها شيوعيين فرنسيين "جاك

---

38 حركة تحرير الشعب لمارسيل إسرائيل، الحركة المصرية للتحرر الوطني، هنري كوريل وإيسكرا لهـلال شوارتز

39 بطل التمرد الذي حدث في الأسطول الذي أرسل إلى البحر الأسود ضد البولشيفيك في ١٩١٩ وأصبح بعد ذلك شخصية هامة في قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي، ورغم ذلك طرد من الحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٥٣

40 روزيت آريه، عمة ألبير

41 وفيما بعد، بعد مرور عقود من الزمن تزوج روثي حبيبة شبابه (قصة حب كان ينبغي كتابتها)!

ديكومب" وإيطاليين "ريناتو ميلي ودينا فورتي"، وهم من الكوادر المناضلة ظهرت فيما بعد في القسم الدولي للحزب الشيوعي الإيطالي.

لست أدري ما الذي يفكر فيه زملائي، ولكن من ناحيتي أود أن ألقي بعض الضوء على الدور الذي لعبه اليهود المناضلون في ولادة الحركة الشيوعية المصرية، وتأثير الظروف المحيطة آنذاك: لم يكن هؤلاء المناضلين قادرين على الانضمام إلى [42] الأحزاب الوطنية الشرعية مثلما حدث للأقباط لأنهم لم يحصلوا على حق المواطنة أي حق الانتخاب والانضمام إلى الأحزاب السياسية ؟، وكيهود تحمسوا وابتهجوا لانتصارات الاتحاد السوفييتي على ألمانيا النازية، وكان ذلك من مميزات بيئة تعددية دولية "كوسموبوليتيه"، لم تؤثر فيهم الصهيونية، وكانت ثقافتهم فرنسية، ويمتلكون القدرة على الاطلاع على الأدب الماركسي بلغات أخرى (لم تترجم بعد هذه الأدبيات إلى العربية[43])، وجاءوا من نفس الرابطة، وكان التحامهم حول الهدف الوطني سهلا وهو الجلاء عن الأراضي (المصرية والسودانية).

لم توجد اختلافات أساسية كبيرة بين المنظمات التي اندمجت لخلق الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني، وأصبح هنري سكرتيراً عاماً لها حتى نفيه القسري عام ١٩٥٠.

وتمصرت الحركة في تلك الفترة...! وفرضت تداعيات الحرب العربية – الإسرائيلية الأولى (١٩٤٨-١٩٤٩) على الشيوعيين اليهود المحتجزين مغادرة البلاد، والبعض غادر بالفعل وكله آمل أن تكون فترة نفيه مؤقتة، وقرر البعض أن يعيد بناء حياتهم في أوروبا، كما قرر البعض الآخر، في النهاية، النضال من أجل الاشتراكية في إسرائيل (وأصبحوا مواطنين في هذا البلد)، بل عاد البعض الآخر ممن حمل الجنسية إلى أرمينيا السوفييتية.

وأبدت في أوروبا، ولأسباب ما زال يلفها الغموض، الأحزاب الشيوعية المكلفة بمتابعة منطقة الشرق الأوسط، (الأحزاب الكبرى المرتبطة برباط الأخوة) (الإيطالية، والبريطانية، والفرنسية) شكوكها العميقة وتخوين سكرتير الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني المنفي بالقوة، ومجموعة المناضلين المنفيين الذين يتولى قيادتهم في باريس. وبالطبع في غياب "أممية" شيوعية، كان من المؤكد صعوبة السباحة في هذا الخضم من

---

42 سحبت الجنسية من هنري بعد ذلك بخمسة عشر عاماً

43 ترجمة الحركة المصرية للتحرر الوطني إلى العربية... مجموعة من ١٣ عملاً رئيسيا لماركس وإنجيلز ولينين وستالين

تقديم الناشر

سبق أن أصدرنا للمؤلفة الجزء الخاص من كتابها الذي صدر في باريس بالفرنسية بعنوان مذكرات لمناضلة شيوعية (١٩٤٢-١٩٩٠) ويتحدث الكتاب عن مذكراتها في مصر وباريس والجزائر. وقد صدر هذا الكتاب في باريس عام ١٩٩٧ عن دار لارماتان وقد أصدرت دار العالم الثالث الترجمة العربية للأجزاء الخاصة بالجزائر وفلسطين في الكتاب الأول عام ٢٠٠٤.

ونصدر اليوم الجزء الأخير وهو عن مصر وقد نقله إلى العربية د. مراد عثمان خلاف. وفي الأصل الفرنسي بدأ الكتاب بالجزء الخاص بمصر وقد جاءت الأجزاء التالية عن الجزائر وفلسطين. وقد فضلت المؤلفة أن تبدأ في الطبعة العربية بالأجزاء الخاصة عن الجزائر وفلسطين وهي الأنشطة التي قامت فيها بدور كبير وقد سبب لها نضالها لمساعدة جبهة التحرير الجزائرية إلى صدامها مع السلطات الفرنسية التي كانت تحتل الجزائر واعتقالها عند إقامتها في باريس عندما كان الشعب الجزائري يناضل ضد الاحتلال الفرنسي.

ولكننا رأينا أن الجزء الخاص بنشأتها ونضالها في مصر الذي بدأت به نضالها المتشعب الأوجه لا يقل أهمية عن النضال التالي الذي تواصله حتى الآن وهي تقيم في جنيف وقد تعدت الثمانين من عمرها. ورغم ذلك فإنها تواصل انتماءاتها واهتمامها بالنضال والكتابة عن مشاكل العالم الثالث ووقوفها إلى جانب شعوب تلك البلاد ونضالها. فإلى جانب الجزائر وفلسطين كانت رسالتها عن السودان التي أصدرنا لها كتابها عنه «السودان إلى أين» التي قدمها الكاتب الفرنسي آلان جريش رئيس تحرير «الموند ديبلوماتيك».

المنظمات المندمجة مرة، والمنشقة مرة أخرى، ويتهم بعضها البعضَ بالتخوين والعمالة والإمبريالية (اتهم هنري بأنه عميل المخابرات البريطانية، والمكتب الثاني الفرنسي، وعميل إدارة الاستخبارات الأمريكية)... ولم يكلفوا أنفسهم مجرد التحري لتبين الأمور، تباً لهم ! بل أكثر من ذلك لم يكن مفهوماً بعد السبب في الهجمة المقنعة الموجهة ضد هنري وزوجته بمناسبة قضية "مارتي"، ملمحين إليهما في الجريدة اليومية للحزب الشيوعي الفرنسي (لومانيتيه) باعتبارهم (أشخاص مشكوك فيهم) والصمت الرهيب الذي اعتور الحزب الشيوعي الفرنسي بعد مداخلات سكرتير عام الحزب الشيوعي السوداني عبد الخالق محجوب (كان ماراً بباريس عام ١٩٥٤) ومطالبة الحزب الشيوعي الإسرائيلي "أوزي بيرنشتاين، وتوفيق طوبي)، بالكشف عن عناصر المعلومات... إن وجدت والمتصلة "بهذه الشخصية" التي يشك فيها المكتب السياسي للمنظمة الشيوعية المصرية التي كانت تربطهم بها روابط قوية !".

واتهمت بالزور والبهتان مقالة يونيتا عام ١٩٥٧ التي ذكرت أن سبب توجيه إصبع الاتهام إلى حركتنا كان أساساً لكون غالبية قيادتها من اليهود. وكانت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني قد تمصرت وفي قياداتها عمال... وحدثت هذه التغيرات قبل نشوب الحرب ضد إسرائيل بكثير مثل عضوية: محمد شطا (حميدو)، عامل نسيج، وسليمان رفاعي (بدر)، وفؤاد حبشي، وكلاهما من الفنيين الميكانيكيين العاملين في القوات الجوية، ومحمد على عامر الوفدي السابق، وعبدو فضل (مبارك) طالب أزهري، وعبد الخالق محجوب (راشد) الطالب السوداني في القاهرة (السكرتير العام القادم للحزب الشيوعي السوداني).

وساعدت الحركة المصرية للتحرر الوطني منذ إنشاؤها في ١٩٤٣ وكان يقودها هنري كوربيل في ذلك الوقت.. المتمردين اليونانيين للإفلات من المذبحة البريطانية المعدة لهم، وناضلوا من أجل تكوين نقابة مصرية كان لها ممثلها في المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات العالمي (سبتمبر ١٩٤٥).

أما معرفة ما إذا كان المناضلون اليهود بمشاركتهم في هذه المواقع القيادية لدى ولادة الحركة الشيوعية هي من بين العوامل المعرقلة لنمو الحركة؟ فهذا أمر آخر...

أذكر مواقف الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني، وكانت مواقف طليعية (وليست في ذيل الحركة الوطنية)، ولم يفرض هؤلاء المناضلون أي شروط في مقابل الخوض في عملية تضامن نضالي نشط استمر حتى في المنفى، كما لم تؤد مغادرة المناضلين اليهود إلى تقوية التحالف الوطني: وعندما قام حكم عبد الناصر عام ١٩٧٢ بدمقرطة الجامعة واصدر قوانين مجانية التعليم على كافة المراحل، وبعد مرور ربع قرن على تحالف الطلبة والعمال عام ١٩٤٦، (أستشيط غضباً) عندما أفكر في ذلك، توقفت الحركة

النضالية الصاعدة ولم تحرك ساكنا. إن ادعاء بعضهم بأن سبب الفشل هو وجود المناضلين اليهود في مراكز القيادة ... أقل ما يوصف به مثل هذا الطرح أنه نوع من العته، والوهن الفكري. بل على العكس لماذا لم يعتبر هؤلاء (الافندية) أن وجود هؤلاء المناضلين اليهود يعتبر من دواعي شرف وفخر الحركة الشيوعية المصرية ووسام يعلق على صدرها ،أن يكون فيها من يحمل مثل هذه الآفاق الفكرية الواسعة الرحبة بدلا من التقوقع في التوجهات البرجوازية العرقية المغرضة المعتادة ".

السبت ١٨ أغسطس

ألقي القبض مرة أخرى على المناضل الشيوعي المصري شحاته هارون. وهذه المرة في إثر المظاهرات الشعبية التي جرت في يناير ١٩٧٧ ضد إلغاء الدعم الذي طالب به صندوق النقد الدولي... مما يمس هذه المرة الاحتياجات الأساسية الضرورية لسواد الناس. وألقي القبض أيضا على رفعت السعيد، وزكي مراد، وأحمد طه، ونبيل الهلالي، وغيرهم، ووجهت إليهم تهمة عضوية حزب غير شرعي كالمعتاد. ويبدو أن ديمقراطية السادات لم تنسحب على الحريات السياسية... لا يستطيع أن ينتخب من كان مسجوناً (وقد اقتربت الانتخابات).

اندهشت عندما علمت أن شحاته شيوعيٌ وكان ذلك في أوائل الخمسينات.

كنا أطفالا عندما سكنا نفس العمارة (١٣ شارع البستان) وكان أهلنا يتبادلون الزيارة (واحتفظ هو بالطريقة القديمة التي كان يناديني بها أبي، وأتذكر الأطعمة التي كانت تعدها أمه التي لم يتجاوز حجم جسمها، حجم ورفع قوام بنت صغيرة). وكانت حاضرة في حفل زواجك يا نيفين. كنت تعرفين جانبها الغريب المضحك مع إجاباتها، وكلها نكت حديثة دائماً. انسانة تتميز بالسخاء والكرم، ومرهقة، وقلقة، متوترة (لم يصدق حظه السعيد ... نجح شحاته في أن يبقي إلى جانبه مارسيل الحنونة الجميلة مدى حياة بأكملها).

إنها حالة فريدة حقاً أن يهتم محامي أعمال، يهودي ومصري ظل شيوعياً رغم تمسكه بيهوديته، بحل مشاكل طائفته والاهتمام بشؤونها حتى في أحلك الظروف. كان يشعر بارتياح كبير حتى وهو في السجن: يخرج بجلابيته ويجلس على الأرض في وضع اليوجا... ويتخذ مظهر المعلم. ولم تدر بخلده أبداً فكرة الهجرة. فلقد ظل متمسكا برغبته في أن يظل يهودياً مصرياً[٤٤] لحما ودما.

---

44 نظمت له جنازة وطنية.

في مقابلة مع الدكتور "أرنون" الاقتصادي المشهور... وهو من أصل هولندي أصبح فيما بعد إسرائيلياً، رافقته في جولة في سبتمبر ١٩٧٦: كان علينا أن ننتظر على مقهى لأكثر من ساعة وصول بقية أعضاء مجموعتي، واغتنمت الفرصة لأطرح عليه بعض الأسئلة المتصلة بنشاطي السياسي . وقدمت له بعض المعلومات عني. وكان هذا اللقاء كافياً ليدفعني إلى تدوين كل ما دار في مذكراتي.

(غادر الدكتور أرنون هولندا، التي لم يعرف اليهود فيها مذابح إبادة، وكان يحتل منصباً مريحا... وحتى نكون متسقين فيما نقوله ... قال لي ... أنه مع ظروفي كيهودية، كان علي أن أضع نفسي تحت تصرف إسرائيل بعد إنشائها!. وأضاف ... اعتقد أن أعضاء مجموعتكم كان عليهم أن يفعلوا المثل)!!.

وقلت له... أنت لا تستطيع أن تجعلنا نقارن أنفسنا بتاريخكم الأوروبي. كانت تجاربنا وخبرتنا من نوع آخر. وحتى إن كان منكم من لم يتعرض لأي اضطهاد، فقد عشتم رغم ذلك كما عاش جميع اليهود الأوروبيون تحت سوط معاداة السامية.

غير أن الأوضاع تغيرت في مصر بعد حرب السويس.

كنا أصحاب امتيازات ونفوذ اجتماعي، وباستطاعتنا السيطرة نفسياً (الفتيات اليهوديات نفذوا حكم القانون داخل البعثة العلمانية الفرنسية في القاهرة)، كنا متأكدين متى انتهينا من الدراسة أننا سنشغل وظائف إدارية مرموقة في كبريات مؤسسات القطاع الخاص (كانت هذه المؤسسات تسيطر آنذاك على الجزء الأساسي من نشاط الاقتصاد الصناعي, واقتصاد الخدمات)، إلا إذا اخترنا العمل في قطاع المهن الحرة. ويتمتع غالبية سكان الحي اليهودي في القاهرة بضمان الحد الأدنى للمعيشة، ومدعومين من طائفتهم، وكما هو الحال في أماكن وأحياء أخرى، كان يوجد في هذا الحي فتوات لضمان الأمن والأمان، وهم على استعداد للتدخل فوراً لصد اعتداءات الأخوان المسلمين: وكان العراك عنيفاً بين المجموعات المعادية... ولم نهرب كغيرها في أوروبا للاحتماء بأحيائهم لتفادي عنف المجموعات الأخرى التي تدعمها السلطات.

وكان من حظنا الطيب أن ننجو في ١٩٤٢ من خطر تقدم جيوش رومل الذي أوقفت جيوش مونتجمري زحفه على مصر عند العلمين.

واختار اليهود المناضلون في النهاية عام ١٩٤٨ النفي خارج البلاد للحصول على موافقة السلطات بالإفراج عنهم من معسكرات الاعتقال. واعتقل أغلبهم بوصفهم شيوعيين لا لكونهم يهوداً. والفارق أساسي له دلالته. فلم يتعرضوا لأساليب التحطيم النفسي أو الاحتقار. وانجذب بعضهم إلى العمل في المزارع التعاونية الاستيطانية "الكيبوتز" فكان ذلك في تصورهم عمل إنساني عقائدي وبطولي، ولم يكن الغرض منه اللجوء إلى بلد آخر.

لم يكن تفضيل المثقفين اليهود في مصر... عندما وقع اختيارهم على الهجرة إلى فرنسا بدلا من إسرائيل... أمرا يمكن اختزاله بكل بساطة في قضية لغة أو ثقافة ... فقد هاجر الكثير منهم إلى إيطاليا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية، والبرازيل والأرجنتين ... وكان لهؤلاء المهاجرين القدرة الكافية والملكات النفسية والفكرية التي تمكنهم من التكيف بدون عناء مع ثقافة جديدة، شريطة وجود دافع منطقي لذلك.

بينما تعلمون بلا شك ...يسيطر على سلطة الدولة في إسرائيل الاشكناز... لأسباب تاريخية ، ولقد اختلف المثقفون من العلماء و الفنانين اليهود الكبار في مصر عن يهود وسط أوروبا ، فهم أعضاء مهن حرة أو تقلدوا مناصب إدارية عليا في القطاع الخاص (إلا إذا كانوا من رجال الأعمال). ولم يسمح نشـــاطهم بفسحة للتفكير في تدعيم روابطهم مع الســـلطة للسيطرة عليها أو على جزء منهـــا، لذلك سرعان ما فقدوا بجرة قلم أوضاعهم القديمة ذات الامتيازات الاجتماعية. وتمكنوا رغم ذلك من الاستفادة في هذه الأثناء من توفر إمكانات الوصول إلى المناصب الإدارية العليا بينما نحن لم يكن أمامنا إلا الهبوط إلى مدارك البروليتاريا !

ليس من الضروري أن يكون تفضيل الإقامة هنا أو هناك أمرا أساسيا، فالقدرة على الاستمرار في العمل النضالي هو الأساس. هل تعتقدون لوهلة أن شحاته كان بوسعه أن يلعب دوراً في إسرائيل؟ أو أن تؤدي مجموعتنا وظيفتها إلا كوسيط بين قوى السلام في معسكر الصراع؟ وقد تمتعت بثقة الجميع، فلم يكن لها مصلحة تسعى من أجل تحقيقها، سوى ما يمليه عليها ضميرها الشيوعي. أما أنا فلا أشعر بأي عقدة.

أود أن أتوقف وقفة قصيرة عند هذه النقطة لأفكر في ظروف، وأحوال اليهود المناضلين من مصر الذين يوجدون في الشتات..

كيهودية من مصر، لم تكن لي تجربة ولا خبرة بمذابح (البوجروم) القيصرية الروسية الإستئصالية المعادية للسامية. حررت نفسي من الوسط الأصلي الذي انتميت إليه، دون أن أبحث عن أي وسط آخر. لم تسمح توجهات حياتي المتعددة بغير ذلك، ثم أنه كان خيارا شخصيا.

هاجر أخي مباشرة بعد وفاة والدتي عام ١٩٥٤ إلى العاصمة سان باولو في البرازيل حيث تعيش الآن أسرته، وهي أسرة يهودية أيضاً، تزوج منها بعد وفاة زوجته الأولى. وقررت أختي الكبيرة إيريس الإقامة في مدينة فلورنس. قضت حرب السويس على روابطنا الأسرية، وكان آخرها عندما غادرت أختي نيللي مصر... طردت مع زوجها، وصودرت جميع ممتلكاتهم (كان يحمل الجنسية البريطانية). واختار كلاهما جنيف للإقامة، ونزلا بفندق. وغادرت بدوري القاهرة إلى جنيف مع ابنتاي في نهاية صيف ١٩٥٧. ونقل والدهم إلى المجر في السلك الديبلوماسي. وبعد أن ألحقت ابنتاي

بمدرسة داخلية في مدينة فانس بفرنسا انضممت إلى مجموعة الشيوعيين اليهود المنفيين من مصر المقيمين في باريس.

لم أعان من اضطراري التنقل من مكان إلى آخر. تغلب على شعور بالإحباط عندما رفض عثمان الموافقة على طلبي للاحتفاظ بإبنتايّ معي في الرباط، بعد هروبي من السجن في فرنسا... وتغلبت على هذا الشعور عندما انتقلت إلى منفى بعيد... وأبعد ما يمكن. صحيح.. التهبت مشاعري، وتعاطفت مع تجربة اعتبرتها ثورية: تلخصت في تدريب مجموعة من الشباب المتضرر من الحرب، بالتنسيق مع فريق مكلف بتكوين، وإنجاز هذه التجربة في بلدة مغربية صغيرة حدودية مع الجزائر. وكنت على أية حال قد بلغت في ذلك الحين من العمر ٤٠ عاماً ... ووقع اختياري على مشروع بلا مستقبل.

واليوم أتساءل ما هو السبب في ترحالي الكثير ؟

كانت القبائل مكونة في غابر الزمان من مجموعات من السكان الرحل، ثم استقر بعضها على ضفاف الأنهار. وتعتبر مصر حالة من الحالات الخاصة تشهد على استقرار السكان الدائم الذين وفدوا إليها سلمياً أو عن طريق الغزو. واشتعلت فيها الثورات وخبت. لم يفكر أحد في الهرب. ولكننا نسأل لماذا هرب العبريون؟ صحيح انهم تحرروا من الاستعباد والقهر "الأسيوي" إن لم يكن أيضا من العبودية، ولم يتضرر سكان مصر. في نهاية المطاف من نظام الحكم الفرعوني أكثر من غيرهم، ولم يعترض موسى أي عقبات تمنعه من الارتقاء إلى أعلى المراتب ...مرتبة المنقذ لقومه! ويتلخص تاريخ اليهود في التيه بعد خروجهم من مصر وقيام المملكتين في فلسطين، في الإقامة في مكان ثم هجره والرحيل عنه ... غالبا هربا من المذابح. ويذكر العهد القديم (الذي حرره اليهود) قصص المذابح التي تعرضوا لها دون توقف، مثل المذبحة الكبرى التي ذكرها "كتاب أستير" وأنقذتهم منها حيلة[٤٥].

ثم لماذا حافظوا، وفي جميع الأزمنة، على هويتهم الدينية، وشريعتهم؟ يقسمون في صلواتهم بأنهم عائدون إلى أورشليم (العام المقبل).

ومع ذلك لم يعد كل الشعب اليهودي إلى فلسطين كما كان بوسعه أن يفعل بعد انتهاء نفيه الثاني ... بل انتشر وتفرق في ربوع الأرض، متحدثا بلغات ولهجات مختلفة، يرتدي ثياباً مختلفة، ولكنه حافظ على طقوسه وشعائره الخاصة، ووعده بالعودة إلى بلد أصبح في خيالاته "أرضا مقدسة".

---

45 أنظر الفكر التبريري المثير للانتباه كتاب لإبراهام ب. يوهوشا: إسرائيل- اختبار أخلاقي، كالمان ليفـــي ٢٠٠٥

لماذا هذا الوسواس المتسلط على العقول للمحافظة على هوية خاصة؟ فلنضرب مثالا بأسبانيا، نجح مثقفوهم في شمال البلاد و في جنوبها ... في القرن الحادي عشر في بناء مستقبل باهر،

ولماذا نادى سلمون بن جابرول، وهو من أفضل شعراء اليهود العرب في ذلك العصر ... "إخوانه"، أن يتحدثوا ويكتبوا بالعبرية؟. ويردد ...تأكيدا لتماسكهم الطائفي[٤٦]. وبعبارات أخرى من أجل الإبقاء على كيان "أمة" وليس للمحافظة على ديانة فقط.... لا يوجد لدي تفسير لذلكّ، قد يكون مرده أزمة هوية كانت تعيشها أفراد هذه الطائفة. كما قد تكون التوجهات الأكثر حدة والمناهضة للسامية التي بلغت درجة ارتكاب المذابح هي التي تجذرت في عمق شعور اللاواعي العصابي النازي المنادي بالإبادة العرقية.

أعدت قراءة ما كتبت، وبعد أن اتخذت قراري بالاعتكاف، بدأت أقرأ بعض الكتب، والذكريات المدونة عن يهود اضطروا إلى الفرار من بلادهم العربية خشية المذابح. ولم أطلع على جميع الكتب في هذا الشأن: أتخوف من قصص هؤلاء الرجال أو النساء الذين تأثروا بشعور حقيقي أو بدونه من التجارب المعاشة ليهود أوروبا.

لم أعتقد أن عمليات استئصال وإبادة ارتكبت أيضا في البلاد العربية التي خرجت من تحت عباءة الإمبراطورية العثمانية، ووضعت بعد ذلك تحت الانتداب البريطاني أو الانتداب الفرنسي . ولكن ها أنذا بعد أن قرأت مذكرات مثقف عراقي يهودي، أشعر بأني في حاجة إلى إعادة التفكير مرة ثانية، وبطريقة راديكالية شبه حاسمة تقريباً... أؤكد، كما كان الحال في مصر، أن اليهود التقدميين في الدولة العراقية الشابة ناضلوا من أجل تحرير العراق من الاحتلال البريطاني.

احتلت القوات البريطانية في مطلع حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ المنطقة الواقعة بين بغداد والخليج. وفضلا عن نداء السلطات الدينية العثمانية من أجل الجهاد.. نادت المدن المقدسة الشيعية أيضاً بالمقاومة المسلحة ضد الكفار، باسم الدفاع عن (الدولة الإسلامية)[٤٧]. واستمرت قوات القبائل في الجهاد حتى عام ١٩١٧. إلا أن العثمانيين هزموا، وتكون العراق الجديد من محافظات الإمبراطورية الثلاثة القديمة. ووضع تحت الانتداب البريطاني (حتى ١٩٣٢) في مؤتمر السلام المنعقد في (باريس في يناير ١٩١٩)، وهذا رغم (النقاط الأربعة عشر التي أعلن) الرئيس ويلسون التمسك بها. وظلت نداءات المطالبة بالاستقلال، التي رفعها آيات الله، وممثلي مجموع العراقيين إلى الولايات

---

46 أنظر بياتريس ليروا: المغامرة السفاردية– من شبه الجزيرة الآيبيرية حتى الشتات، فلامريون ١٩٩١

47 أنظر بير جان ليوزارد: المسألة العراقية فيارد ٢٠٠٢

المتحدة الأمريكية بدون جواب. وبعد استئناف النضال المسلح في إثر القرار المتخذ، هزم القادة الشيعة ونفوا. ووافق مجلس النواب تحت تهديد السلاح على أول دستور لمملكة العراق، وأقيم نظام حكم موال للنخبة السنية.

وطبقت أحكام الخدمة العسكرية الإجبارية عام ١٩٣٤، وهو من بين العوامل التي ساعدت على تجميع الطوائف، إلا أن قمة الهرم ظلت سنية. واحتضن الحزب الشيوعي العراقي، الذي انشأ في ذلك العام، جموع الشيعة المغبونة، وعناصر من البروليتاريا الحضرية الناشئة. وكما في أماكن أخرى ... اعتنق الضباط الشباب التوجهات الوطنية، بل حتى المنحازة منها للألمان، في موقف يكشف عن معارضتهم للإنجليز. كما كان الحال في مصر، ولكن مع الفارق ... فقد توارثوا في العراق (وسوريه)، توجهات القومية العربية التي ولدت في إطار مناهضتهم للسيطرة التركية في العصر العثماني. ودلت المؤشرات بعد ١٩٣٤ على عدم استقرار الدولة القومية الجديدة، وتوالت الانقلابات العسكرية.

استولى رشيد علي الكيلاني على السلطة عام ١٩٤٠ مستنداً إلى مجموعة من الضباط. ولقد حامت الشبهات حوله ... مع ورود أنباء تشير إلى تعاطفه مع الألمان مما استدعى تدخل الإنجليز عسكرياً عام ١٩٤١ وأعادوا إلى الحكم الملك فيصل الثاني. الملك الشاب، يصاحبه رئيس الوزراء "نوري السعيد"؛ وهي شخصية معروفة بولائها للإنجليز. وفي نفس الوقت ،حدثت الزيارة السريعة والخاطفة التي قام بها ستة طيارين ألمان حضروا للإعراب عن تضامن حكومتهم مع الوطنيين العراقيين، وترتب على ذلك انهيار السلطة الحاكمة في غضون يومين وليلة. وتركت بغداد فريسة لنهب (البدو) الذين تجرؤا وخرجوا من تحت خيامهم، مما أثار الرعب بين الأسر اليهودية التي فقدت عدة مئات من أبنائها.

وكان كاتب المذكرات الآنفة ما زال طفلا في ذلك الوقتً. واختار عندما أصبح يافعاً، أن يتابع دراساته في مدرسة إسلامية... من شدة تعلقه باللغة العربية، وشارك بكتاباته في إحدى المجلات الأدبية العربية.

وبسبب إيمانه الوطني العميق... محي من ذاكرته تماما الحقبة المعاش في طفولته، كما قضى أيضا على مشاعر الارتياب، والشك التي عامله بها رئيس تحرير مجلته اعتقادا منه بتعاطفه مع الصهيونية. كان شديد التعلق ببلاده العراق وبثقافته العربية.

وأثبتت (مجموعة الأدباء) التي انتمي إليها تميز العلاقات القائمة بين اليهود والمسلمين في بغداد الأربعينات، وكذلك بين مجموعة (السياسيين) الشيعة، واليهود، والأكراد الذين كانوا أسوة بالسنيين في قيادة الحزب الشيوعي، الذي لم يعترف به رسمياً

بعد. ولكن على نقيض السنيين اعتبر الآخرون الأقليات الأخرى عندما تكون خارج الحزب مواطنين من الدرجة الثانية.

أما فيما يعني بأوضاع اليهود في هذه المدينة القديمة، مدينة بابل حيث سبق أن أقاموا فيها قبل المسيحيون والمسلمون ودونوا فيها التلمود. فلقد أوصدت المهن الحرة أبوابها في وجه اليهود (انخفض عدد اليهود العراقيين الذين يسمح لهم بدراسة الطب إلى طالبين في العام فقط). وتبين لي فيما بعد أن التطورات أخذت هذا المنحى أيضا في مصر. ويمكن فهم سبب وجود هذه الحالة في مصر. فقد كان هناك عدد قليل جداً من المثقفين اليهود ممن درس بالعربية في نفس الفترة الزمنية[٤٨]. كما أدت الحروب المستعره بين الدول العربية وإسرائيل إلى التفريغ التدريجي لمصر، والعراق من يهودها.

ولكن لنعد إلى قصتي لنذكر بأنهم ينشطون في سياق نضال ضد محتل أجنبي. وهذا هو الأساسي.

الثلاثاء ٢١ أغسطس ١٩٧٩ مدينة كونكيه الفرنسية

وصلنا إلى منزل فوتييه[٤٩]، في مقاطعة بريتاني. صاحبني "موريان"[٥٠]، في قطع المسافة من باريس، ولقد ضقنا ذرعا من عدم وجود بحر وفضاء فسيح في باريس. ركضت في الصباح الباكر عندما وصلنا على الشاطئ المهجور, وغطست في المياه الباردة مع "ناتالي"، ١٩ سنة، ابنة أحد اللاجئين الأسبان، كانت فريسة مخاوفها إلا أنها رياضية، وصحتها ممتازة. عدنا مرة أخرى إلى شاطئ البحر مع أنبيك ابنة موريان. وتحدثوا فيما بينهم عن علاقاتها الصعبة مع أهلها . وابتعدت بما فيه الكفاية حتى أكتب.

لم نكن نتحدث فيما بيننا عن أهلنا. كنا في حركة دائمة. وتقلصت مجموعتنا بعد ذلك. واقتصرت على أخي جو، وأنا وبعض المقربين الذين رافقونا منذ الطفولة: "جوزيف كالامارو" ذو حساسية مرهفة، وصوته المبحوح الذي يدفع المرء إلى خيالات العصر الرومانسي، و"سلمون إيلي" المجامل، الرياضي، الذي كان يصاحبني في رياضة السير لمسافات طويلة فيما بين الخامسة والسابعة صباحا، وحول نادي الجزيرة في الزمالك. وكنت أقطف حبات البسلة من حديقة خاصة ملحقة بذهبية (عوامة ثابتة في النيل) لأقدمها

---

48 ولكن الاستثناء هو الحاخام الأكبر حاييم ناحوم

49 انظر فيما بعد

50 جان-لوي هورست، جندي فرنسي هارب رفض الاشتراك في حرب الجزائر (أنظر المجلـــد ١، الفصـــل الخاص بالجزائر)

إلى أمي (آه ... كم اشتاق إلى استنشاق هذه الروائح العطرة، ويالها من متعة ... أن يغتسل المرء بدش بارد بعد أن يتصبب عرقاً)، "إلياس نعوم" لطيف ومكتئب شيئاً ما، "هنرى آده"، أعزهم... وتعرفنا بالفرنسي "جاك ديليون" جارنا في شارع شامبليون، وهو اليوم ممثل في أفلام بوليسية. يتسلق فانوس الشارع في المساء كالنسناس، بعد عودته من مشاهدة مسرحية. ثم "إيتيان باكي" من كالانا وهو أيضاً جارنا، ربيب أسرة إقطاعية في كالابرا، وكان أهله (آخر صرخة من حيث الموضه). وبعد سقوطي من على دراجة، لازمت الفراش ووضعت قدمي في الجبس لمدة شهرين (كنا نلعب ألعاباً بهلوانية على الطريق إلى الهرم)، وكان يكرس وقت فراغه ليقرأ لي الشعر والروايات. ويؤلف بعضها. وقد ألف قصة كنت بطلتها (اسمي كان في الرواية "سيلينيه" وهو أسم آخر "لديان" إلهة الصيد) !

باختصار نشعر بالتهميش . سواء في طائفتنا أو في البلد الذي نعيش فيه. وهو ماضٍ أحتفظ فيه داخل ذاكرتي المرئية بألوان الغسق، وفي أنفي أحتفظ بروائح الخيل والياسمين، شوارع تحفها الأشجار من الجانبين، للأسف استأصلت منذ زمن. ولم يكن أحدا منا قد أصبح شيوعياً في ذلك الوقت. واستقر المقام بجميع من تكلمت عنهم في أماكن أخرى: في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي البرازيل، وفي فرنسا، وفي إيطاليا... وكان طريقي مختلفاً.

٢٣ أغسطس ١٩٧٩

الهواء منعش في مقاطعة بريتانيا. ذهبت إلى سوق السمك وفيه تتم عملية البيع بمناداة صائدي الأسماك على بضاعتهم ... وأكد لي "فوتييه" أنه يعرف كيف يجهز ثعبان البحر الذي اشتراه. لم أصدق عيناي: يعد مع البصل والطماطم، ظل في هذا الخليط حتى فقد طعم البحر. وفي مصر تقدم الأسماك الكبيرة النيلية باردة ومغمورة في الليمون أو في خل مع إضافة الثوم. وفوتييه يعيش في جو شبابي (رفيقته، محياها كالطفلة، نجحت ببراعة في إعداد وثيقة تسرد وقائع إضراب النساء في مصنع في مقاطعة بريتانيا). ذو كبرياء (قبله المعهد العالي للسينما وكان يكفيه بعض الجهد لكي يندمج في النظام)، وكرس فوتييه نفسه للأفلام النضالية، شيوعي، وعضو متفرغ في جبهة التحرير الوطنية الجزائرية، ألقاه " أخوته" في النضال في السجن في تونس ... من أنصار بن بيللا، مكتشف السينما الشعبية في الجزائر ... عاد لتوه اليوم إلى طائفته الأصلية ماراً بمرحلة نضالية في مقاطعة بريتانيا. قرر أن يدون مذكراته. هذا جيد: غير أن سماع جوانب الحياة المعاش في أي وقت قد تسبب ضيقا، ولكن الاستماع إلى تفاصيل مشاهد نبحث عنها مع الاستعداد الشخصي لتلقي المعلومات، يسهل من عملية الاستماع ويثريها. ولقد استفدت من مرور الوقت ببطيء لأدفع إلى الأمام بقصتي.

كثيراً ما كنت أتعجب من قلة عدد الناس في الريف الفرنسي والجزائري، أما في مصر فالناس في كل مكان في القرى المكدسة الواقعة على طول شاطئ النيل، وفي منطقة الدلتا يتكدسون فوق قطعة الأرض دون أن يفقدوا ولو قيد أنملة منها . كتل بشرية ملتصقة بالأرض المتآكلة التي تفتقر إلى التنظيم، وأكواخ مصنوعة من الطين المجفف في الشمس. بضعة مباني، ومزارع، وأبراج للحمام، طليت بالجير وتحول لونها إلى الأبيض (كما هو في شمال أفريقيا)، عدد قليل من الأشجار، شارع أو اثنين رئيسيين في قرية يسكنها المزارعون والعمال الزراعيين (يقيم فيها عمال موسميين يرتحلون من أماكن أخرى إلى الضيعة التي بها عملهم ..يشتركون في جني المحصول، ومنهم نسمع قصص تفوق الخيال[٥١]. وتضفي العزبة نوعا من الشرعية (شبه الإقطاعية) على النظام العام، وهي ضيعة مروية تزرعها عائلات من الفلاحين لحساب السيد المالك، الذي كلما زادت أهمية مسكنه (قصره) كلما علا شأنه وغالباً ما يكون غائباً عن الضيعة معظم الوقت، يديرها وكيل ينوب عنه. وعندما يمر في المناسبات يتميز حضوره إلى (العزبة) بإعداد الولائم، احتفظت بمذاقها ومذاق المش، وبدرجة أقل مذاق لحم الضأن المشوي في الفضاء الطلق. وتصل إلى أسماعنا من هذا الريف وبصورة متكررة إشاعات تؤكد وجود سجون خاصة في هذه العزب. ونادى الوفد بإلغاء نظام الضرائب التقليدي، مع استثناء الملاك الصغار، بل نادى بإنشاء نقابات لفقراء الفلاحين. ولكن اقتصر النداء بهذه المطلب... في النهاية على الشيوعيين بعد أن أفردوا لها مكانا خاصا في برنامجهم عندما ادرجوا هذه القضية في بند الإصلاح الزراعي.وحدثني "ريناتو" كثيرا عن حياة القرية... سافرت معه في أول رحلة قمت بها إلى داخل البلاد، عبر الطريق الزراعي الذي يربط بين القاهرة والإسكندرية... وعن الحركة القروية (الكومينونية) أثناء فترة الثورة والنضال (١٩١٩-١٩٢١)، تلك الحركة التي نجحت في إعلان قيام جمهوريات مستقلة بذاتها، وأشهرها جمهورية زفتى، وهي مدينة لا تبعد كثيرا عن القاهرة. وعندما توقفنا عند أكبر قرية على الطريق لم تسنح فرصة لطرح أسئلة على رجال ذوي منظر مهيب كانوا في استقبالنا بجلاليبهم المصنوعة من الحرير الدمشقي المخطط (علامة على شئ من الرفاهية). كما لم أتمكن من فهم موضوع المقابلة (رحلة تجمع بين قضاء الأعمال، والقيام باتصالات سرية)، وبالطبع كان الكلام كله بالعربية. بل لم تسنح حتى فرصة التعرف على

---

51 أنظر التابو، رواية ليوسف إدريس (رفيق مات مؤخراً): يصور بإحساس إنساني مرهف سلوك عمال إحدى الضيعات عشية ثورة ١٩٥٢

وسبق في المجلد الأول أن تحدثت في المقدمة عن تعرفي بها في القاهرة عام ١٩٥٠ عندما ساعدتني هي وزوجها عثمان فوزي، وكان ضابط من الضباط الأحرار ساهم بدور بارز في ثورة يوليو.

وقد ظهر من هذا الجزء كيف أنها أقنعت زوجها بالانضمام إلى التنظيم الشيوعي المصري «الحركة الديمقراطية للتحرر للوطني». وبدأ نضالها في هذه الحركة منذ اهتمامها بالعمل السياسي والنضال الوطني في مصر. وقد ذكرت في مقدمة العدد السابق عن مساعدتي هي وزوجها وقت هروبي من السجن واختفائي عندهما. وقيام زوجها فوزي بنقلي بسيارته إلى بور سعيد حيث قمت بالسفر سرا على أحد البواخر الفرنسية إلى فرنسا.

وقد نشرنا قبل ذلك في عدد من المؤلفات أن مجموعة من الشيوعيين اليهود عاشوا في مصر وكان لهم دور بارز في النضال الوطني في مصر وكانوا يقفون ضد الصهيونية ويساندون نضال الشعب المصري الوطني ضد الاستعمار ومن أجل التحرر الوطني والاجتماعي ومن هذه المجموعة التي نشرنا عنها في كتب سابقة كتاب هنري كورييل "من أجل سلام عادل في الشرق الأوسط" وكتاب شحاته هارون "يهودي في القاهرة" وغيرها.

ويقدم هذا الجزء من كتاب المؤلفة تأكيد لهذا الموقف الذي مازالت تواصله حتى الآن رغم تغربها عن مصر.

محمد يوسف الجندي

نسائهم: فكان الرجال يخدمون علينا بأنفسهم مقدمين الشاي الأسود المركز مع السكر، يصاحبه خبز (بتاو) مصنوع من الذرة.

تبينت أثناء الرحلة ما يتعرض له الديمقراطيون من خطر مع تقدم قوات الفيلد مارشال رومل في ليبيا. يكفي أن أكون يهودية، ومتعاطفة مع رابطة الديمقراطيين حتى يدرج جهاز البوليس السياسي اسمي على قائمة المشكوك فيهم، وهذه القائمة كما نعلم كانت مجهزة لتسليمها للفاتحين.

ولم نتوقف عن مناقشة الوضع. ففي البنك مع "تيربي" اليونانية (التي تزوجت بيتريدرس سراً بسبب القواعد التنظيمية السارية في ذلك الوقت على العاملين في البنك والتي تشترط المحافظة على عزوبية الأعضاء، وأيضاً لأن زوجها كان مطلوب القبض عليه لأنه شيوعي). ومن أصدقائي خارج البنك دافيد ناعوم وجو ماتالون وهم من كادر المنظمة الشيوعية مستقبلا. التي لم يؤسسها هنري بعد. عزم الاثنان السفر إلى السودان كخط رجعة، وعرض دافيد عليّ وعلى أخته بيرثي أن نسافر معهم. إلا أن "بيرثي" لم تحصل على موافقة أمها، وقررت المجموعة أنه من غير الملائم أن تسافر فتاة بمفردها (ولو أن المناقشات الحامية تركزت على ضرورة التخلص من التقاليد البورجوازية) ! ولم أذكر بعد شيئا لأمي. وحضر ريناتو من الإسكندرية واقترح عليّ السفر مع مجموعتي إلى فلسطين (وكان عليه أن يسافر فلن يغفل النازيون عن أن أباه مناهض للفاشية ويهودي). وكان علينا أن نتخذ قراراً بسرعةً: فلقد أخلى الإنجليز مواقعهم، وبدؤوا في إحراق الوثائق الرسمية.

استمر الاجتماع في المنزل لساعة متأخرة من الليل. لم أدرك مدى الخطر الذي يحدق بنا، كما وكأنه أمر لا يعنيني، ولا علاقة لي به، إلا أني شعرت بقلق أمي، والتوتر الذي بدأ يشتد (ودون أن أفكر في شئٍ، بدأت في التدخين لأول مرة في حضورها). وبحثت أمي، وأخي، وأخواتي تحذير ريناتو ولا سيّما لأن اسمي كان مدرجاً في قائمة البوليس السياسي . ولكن عثمان، الذي لم يرغب في أن أترك، وأغادر البلاد مع ريناتو، أكد لنا بأنه يستطيع كضابط في حالة الخطر أن يقوم بإجلائنا مع جميع أفراد الأسرة إلى السودان. وكنا نثق به. وافقت على عرضه. وكنت ألاطف أمي دون أن يكلفني الأمر شيئاً. وكانت المسألة تتعلق بهروب، وليس بعمل يدعو إلى الفخر.

لم يحدث رحيل جماعي: فاليهود الديمقراطيون فقط هم الذين فكروا في الالتحاق بفلسطين أو السودان (أراضي يمكن الوصول إليها بخط السكه الحديد، ويحتلها الإنجليز). وابتهج الوطنيون بتقدم الألمان: فكان هذا في رأيهم يخلصهم من الإنجليز، الملعونين لعجرفتهم، ووجهت إلى الوطنيين ضربة قاسية عندما حاصر الإنجليز القصر الملكي

بسياراتهم المدرعة لتسوية شأن داخلي. وأتذكر الجنود الذين تتعثر خطاهم من شدة السكر وهم يترنحون في طرقات القاهرة، ينتزعون طرابيش المارة، وينطلقون وراء الفتيات الشابات لمضايقتهن، وأنا بالمناسبة، تركوني لأتصرف بمفردي، بينما أطلق كل من أخي جو ودافيد سيقانهم للريح، ولأواجه وحدي هذه الأجسام الضخمة للجنود الأستراليين والنيوزيلانديين أو ما اعتقدته كذلك ... وما الفرق !

ولم يعرف المصريون شيئا عن الفاشيست الإيطاليين إلا بعد مصادقة الشباب الرياضي من أعضاء النادي الإيطالي ليتيريو، كما تعرفوا على أفكار النازيين، وقد سبقتهم مخططاتهم الإعلامية المتمتعة بكفاءة عالية، تبثها محطة إذاعة يتحدث فيها مفتي القدس، ذاكرين بوجه خاص التقدم الساحق لجيوشهم (حاول ثلاثة من الضباط الشباب من المعجبين... ومنهم أنور السادات، أن يلتحقوا بجيش المحور بعد خطف طائرة). أما جماعات الفاشيست المحلية (القمصان الخضر) فكانت فلكلوراً لا أكثر... واقتصر الحدث الكبير والوحيد (اشترك فيه أنورالسادات) على العميلين الجاسوسين النازيين اللذين اخترقا الوسط الأرستقراطي في القاهرة: أحداث تصلح لكي تكون قصة تجسس مثل (جريمة فوق النيل) للكاتبة آجاثا كريستي، وتستطيع أختي نيللي أن تحدثكم عن تفاصيل أحداثها التافهة (كانت من بين المدعوين على الذهبية "العوامة"عندما أغارت الشرطة عليها).

وبعد فتح القوات الألمانية الجبهة الروسية عجلت الانتصارات السوفيتية الساحقة في وضع نهاية للحرب، ولم نتعرض، في نهاية المطاف، إلا إلى بضعة أيام من القصف بالقنابل. ولم تعلن مصر الحرب على المحور إلا في (١٩٤٥) وسقط من الضحايا أحمد ماهر باشا رئيس وزراء مصر بعد أن اغتاله أحد المهووسين بعد أن أعلن الحرب على المحور ، وأكد موقفه من بعده خليفته النقراشي باشا. وعندئذ تبينت المشاعر الدفينة التي تحولت إلى كراهية عنصرية: انتظروا قليلا أنتم اليهود، سوف يقضي الألمان عليكم جميعا، صاح بهذه الكلمات أحد بائعي الصحف وبأعلى صوته (وكان كبار السن منهم يضطرون للركض وراء المارة وقد قبضوا بأسنانهم على طرف جلاليبهم، لكي يبيعوا الصحف اليومية). وعندما توجهت في ذلك الصباح إلى العمل، كنت أقرأ وأنا أسير كما هي عادتي (كانت القصص التي أقرأها في تلك الأيام ضخمة، مثل ذوي النوايا الحسنة للمؤلف جول رومان، وجان كريستوف لرومان رولان، وثيبو لروجيه مارتان دو جار ...). لم أعد نفسي للصدمة التي جاءت بعد صياح بائع الصحف، بطء تفكير آنذاك... ومع ذلك تراكمت الذكريات، بل حتى صورة وجهه اللطيف رغم ما قاله . وكنا نعيش كيهود أحداث الحرب وأعصابنا مشدودة، إلا أننا لم نضطر كغيرنا تحمل تبعاتها

المأساوية[52]. وهذا بفضل التقدم السوفييتي الساحق ... الذي لن أنساه أبدا. وكما أسلفنا ...لم نورث ذاكرة غيرنا ممن تعرض للمعاناة . فلقد تمتعنا بأفضل ما كان موجودا في عالم متعدد الأطياف، ومثير للذهول... ودون أن نعي ... كنا آخر سلالاتنا.

٢٥ أغسطس مدينة كونكيه الفرنسية

كثيرا ما تتميز وسائل الإعلام بتصوير رديء لأحداث التاريخ: اقتصر تصوير الفيلم الروائي الوثائقي القصير للمخرج فوتييه على تصوير مشروع التعمير في "واد فوده"... (وهو الشاهد الوحيد على المغامرة التي نقلنا فيها الجبال ... المقشطة الحواف، الملتهبة صيفا) ويبلغ طول هذا الفيلم عدة أمتار فقط كجزء من شريط فيلم كرس أساسا لتتبع تحركات رئيس دولة في اليوم الختامي لأول مرحلة من مراحل نشاطنا في ميدان التعمير الوطني (١٩٦٣). لم يصور حتى بولفيك، ولا أورباح، ولا حرحات، ولا الطبيب... وأنا .. إلا عن بعد، و موريان مره واحدة مع هايك زوجته...

هل كان شعوري هذا يعود إلى خيبة أمل؟ شعور بالحزن لعدم مقابلة أخي جو بسبب هذا السور الذي كنا نبنيه ... شعور صعد إلى حلقي وكاد يخنقني: تأجل بدء احتفالات إنجاز المرحلة الأولى للمشروع عدة أيام بسبب ارتباطات الرئيس، وإصراره على الحضور للمشاركة. كان أخي في رحلة (لتغيير الجو، والابتعاد عن البرازيل قليلا) دعته إليها أختي، وكان في انتظاري في جنيف. لم أرى أخي إلا للحظة عابرة، وكنت في ذلك الوقت في باريس عام ١٩٥٤وقابلته قبل أن يسافر لبدء حياة جديدة مع زوجته البرازيلية، أبلغته بالتليفون من الجزائر بتأجيل تاريخ الاحتفال بإنتهاء المرحلة الأولى للمشروع ...ورجوته المرور على الجزائر. لكنه كان مضطرا للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإجراء محادثات مع رؤسائه في شركة وارنر براذر. بل أتساءل إن لم يكن قد حاول في نهاية المطاف تفادي الحضور إلى بلد يذكره بمصر، وهو ماض كان يود نسيانه بعد وفاة زوجته الأولى(توفيت بأزمة قلبية ... عمرها يناهز ٣٠ عاما، عشية سفرها إلى لندن لإجراء عملية جراحية للقلب) وتوفت والدتي من بعدها ... مصر ... وأخي جو ... "نوره" الحساسة ... الراقية طويلة القامة، ورقيقة مثله.كانوا أيضا جزءا من تربة مصر. المكان الذي وعينا فيه ...

---

[52] شاهدت صورة سريعة للكارثة بعد انتهاء الحرب: أرسل إلينا ضابط إنجليزي كان من بين مجموعة الجنود الذين حرروا المعسكرات الألمانية، وأصبت في النهاية بصدمة عندما شاهدت فيلم مسيو كلاين الذي أعـــاد إلى الأذهان مرحلة فيل ديف (بالنسبة لي وحتى ذلك الوقت لم يكن الفرنسيون إلا أفراد من المقاومة)

أم الدنيا...

لا تحمل المذكرات التالية أي تاريخ: وهي تعلن تقريبا عن أول اتصال قمت به بالعناصر الوطنية المصرية عن طريق زملائي، وأسرهم المختلطة المكونة من شركس وإنجليز، وعلى عناصر ارتبطت بقوة بالتراب الوطني.

يستطيع من لم يعش في مصر التحدث عنها معتمدا على الخيال – حديث منسجم، ولكنه حديث جامد – عن الفن الفرعوني مره، ومره أخرى عن السكان كعنصر مجتمعي منظم على أساس ديني أو اثني، أو مجرد الحديث عن أناس مقهورين.

هل صحيح أن هذا الشعب، شعب مقهور؟ من ينسى قصص تناقلتها الألسنة في القاهرة حول هذا أو ذاك من الأبطال من (قطاع الطرق) المتمردين، ومجموعات الفلاحين التي تهاجم بانتظام، وبلا هوادة الأملاك الزراعية الكبرى (مثل أملاك أسرة أباظة في الزقازيق). هل هناك من ينسى هؤلاء القرويون الثوريون الذين أعلنوا قيام جمهوريات مستقلة... أو غليان سكان المجتمعات الحضرية... أو إشعاع الحضارة المملوكية في القرن الرابع عشر، عندما احتفلت القاهرة بعالم الاجتماع الأول في التاريخ، العلامة ابن خلدون، وقد أصبحت القاهرة بغداد الثانية في عصر الحضارة الإسلامية. كما احتفلت بتلك الحضارة طوال القرن الحادي عشر حتى الثالث عشر الفاطمي، أو عندما أعادت الدولة المصرية بناء القاهرة، من الذي هلل وأشاد بالعالم ابن ميمون؟. وما قولكم في حضارة الإسكندرية البطليمية، وحضارة طيبة عاصمة الإمبراطورية الفرعونية الجديدة؟ ورغم أن صورة مصر أثناء حملة بونابارت وخليفته كليبر (١٧٩٨) صورة خرجت عن سياق التاريخ، ووصف رحالة أوروبيون في نهاية القرن السادس عشر القاهرة (بأنها مدينة كبيرة جدا، مترامية الأطراف، مع وجود مبان كبيرة جميلة)[٥٣].

---

53 هانز لودفيج فون ليشتنشتاين: رحلة إلى مصر، ١٥٨٧ (المعهد الأفرنسي للآثار الشرقية)

غير أن مصر الشابة تكشف عن هذه الخاصية من منظور وطني دون أن تتحول إلى ظاهرة شوفينية. بدأت نهضة مصر في القرن التاسع عشر العثماني بعد صدمة التدخل الفرنسي[٥٤] . وظهرت أسر غازية وأخرى أنشأت دولاً (أراضي دولة السودان بحدودها الحالية، بعد حملات الغزو التي نظمها محمد علي، ثم الخديوي إسماعيل الذي بنى المدينة الأوروبية غرب مدينة القاهرة القديمة)، منفتحة على الخارج، ويعتبر البعض... العنصر الأجنبي من بين العوامل الاقتصادية والثقافية الديناميكية الهامة . وهذا إلى حد ما... رغم مطالبات القوى الأوروبية المجحفة(حصلت بمقتضى اتفاقية ١٨٤٠ على موافقة السلطان بإلغاء، وتحريم قيام احتكارات الدولة في مصر)، وتداعيات الاحتلال البريطاني في ١٨٨٢، بسبب الدين العام الذي بدأ في التراكم إثر موافقة الخديوي إسماعيل على حفر قناة السويس (وفي نهاية المطاف انصب كل ذلك لمنفعة المصالح الأجنبية, واضطر الخديوي مرغما أن يبيع حصته للأوروبيين)، وإلغاء ضريبة الدولة (الإتاوة)، وإنشاء المحاكم المختلطة.

لم يغير كل ذلك من الوضع. وكانت العلاقات، حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، مع البلدان الأم الأجنبية علاقات سائبة، وكانت الطوائف الدينية المهمة المكونة من أبناء البلاد تعيد استثمار رؤوس أموالها محلياً.

وظل النظام الطائفي في الإمبراطورية العثمانية (ومنه النظام الطائفي الذي استمر في مصر من عام١٥١٧ حتى عام ١٩١٤) موجودا رغم تشتته. ونشاهد في المدن، الطوائف وقد تولى رعاية مصالحها شخصيات بارزة من أعضاء الأسر الكبيرة من الطبقة البورجوازية المالكة للأموال، والقادرة على تحقيق اكتفائها الذاتي بحرية... لذلك تحدثت عن انتماء يهودي عادي دون أن تكون هناك ضرورة لوجود انتماء عقائدي يهودي... مما كان يستغرب له زملائي الفرنسيين رغم اختلافهم على أساس اثني، وديني، ولغوي، إلا أنهم يتواصلون فيما بينهم بالفرنسية، وبالعربية أيضا مع الناس في الشارع، بخلاف من كان عليه حال رعايا الإمبراطورية البريطانية (من الهنود، والمالطية والقبارصة...)، وهي مجموعات صغيرة قليلة الأهمية، تتحدث فيما بينها بالإنجليزية

وسكنت أغلب الطوائف الأجنبية المهمة في مصر،من يونانيين وإيطاليين، في مدينة الإسكندرية، ومنهم مجموعات أخرى مكونة من (الأرمن، والسوريون، والمغاربة الذين سجلوا أنفسهم كفرنسيين). بلغ تعدادهم في ١٨٥٠ حوالي ١٥ألف فرد من الأجانب

---

54 في ذلك العصر لم يوجد سوى كاتب واحد مشهور باللغة العربية (الجابرتي)، هذا ما يسرده لنا ريمون استنبولي في محاضرته عن بونابرت، مركز التاريخ المعاصر في السوربون (٦ يناير ١٩٩٦)

المسجلين في القنصليات. وعشية الحرب العالمية الثانية بلغ تعدادهم ٢٥٠ألف فرد. وغالبا يتولى من أصابه النجاح في قطاع الأعمال تقديم المشورة لطائفته، إلا أن اليوناني الصغير ظل بقالاً، والإيطالي ميكانيكاً، والأرمني إسكافي، والهندي ترزي رجال وسيدات... متخصص في قص سروال ركوب الخيل...!

وتكونت كيانات منفصلة للمقيمين الأجانب. وسيطر بطبيعة الحال المقيمون الإنجليز، (وهم مجموعة منفصلة مكونة من عناصر غير دائمة الإقامة)، على الوظائف العليا في الجيش، وتربعوا أيضاً على قمة المؤسسات المالية والمصرفية. وكان نادي الجزيرة في القاهرة مقصورا عليهم فقط: استمر هذا الوضع بعد انتهاء الحرب، ورغم أن زوجي ضابط في الجيش المصري،كان علينا أن نحصل على تزكية من حامل للجنسية البريطانية (زوج أختي) للحصول على عضوية هذا النادي. ولقــد حاولوا بالفعــل انتهاج سياسة انفتاح منذ احتلال إيطاليا للحبشة، وأقاموا جمعية صداقة أنجلو- مصرية لجذب المثقفين المحليين. ولكن بدون نجاح: فلقد ظلوا محتلين. وحتى نكمل الصورة، ظل نظام الوراثة الملكي... الذي دافع عنه هذا المختل دانلوب.. بالنسبة للكثيرين مدعاة لإلقاء النكت سخرية منه.

أحتفظ رغم ذلك في ذاكرتي بذكرى طيبة لعالم إنجليزي في منطقة برج العرب دعانا للعشاء، ليكشف عن بعض خبايا المسار القديم لنهر النيل الذي كان متصلا بواحة سيوه (أوضح لي السبب في نفور الإنجليز من المصافحة باليد ... يتسبب في انتشار الجراثيم ... حسب قولهم).

وكان المقيمون الفرنسيون يعيشون في جماعة منغلقة على نفسها في مدينة الإسماعيلية، إحدى مدن القنال، وكان محظور دخول الضباط المصريون ناديهم حتى قيام حركة الضباط الأحرار عام ١٩٥٢، (وكان والدكم بطل ملاكمة، ولذا سارع باستعمال قبضة يده). وكانوا أكثر لطفا في القاهرة وكثيرا ما كان الحديث يدور حول المزايا التي تولدت عن حملة نابليون، واستفاد منها محمد علي[٥٥]، رغم وجود شعور مستمر بشيء من الإحباط بسبب حملة جنرال أسكرته هالة المجد، وضرب سكان القاهرة الثائرين بالمدافع، ونهب الجهلة من العسكر الفرنسيين روائع الفن المعماري العثماني (في بعض الأحيان لمجرد إشعال نار للتدفئة).

---

[55] وأدعى أنه يسير على دربه

إلا أن الجدل لم يتوقف حتى اليوم، ويستمر بحث مثالب ومناقب هذه الحملة العسكرية (العلمية)... وتأثر بها فكر فريق من مثقفينا المصريين بسبب استمرار تأثير الثقافة الفرنسية (التي تستند إلى المنطق، والقيم الإنسانية) حتى عام ١٩٥٦.

وتكونت في العاصمة نخبة مثقفة: سيطرت على وظائف الرقابة في إدارة الآثار المصرية، وبحوث علم المصريات، ودرسوا في البعثة الفرنسية العلمانية، وفي القطاع الخاص. بل اعتنق بعضهم السريالية الاجتماعية.. ومن بين من يمثلهم(مجموعة جورج حنين، ورمسيس يونان). وكنا نتردد أثناء الحرب على أفراد المقاومة من الشيوعيين أو من الديجوليين، وهم غالبا .. من المسافرين العابرين(وكان مركز "الصداقة الفرنسية" في ميدان سليمان باشا ملتقى لهم).

وتعتبر طائفة الأقباط الأرثوذكس (من الكلمة اليونانية إيجيبتوس) من الجماعات الدينية، التي جاءت من عمق البلاد، وظهرت في البداية في الإسكندرية إبان عصر بيزنطة. وانتشر رهبانها حتى بلغوا إثيوبيا (الحبشة. مملكة أكسوم). وقاموا بمعارضة قرارات علماء المسيحية في مجلس خلقدونية (٤٥١). واستندت لغتهم إلى المصرية القديمة، التي انتشر استعمالها حتى القرن العاشر، واستمر الحديث بها حتى القرن الثامن عشر (وظلت لغة اللاهوت في الكنائس القبطية في مصر)[٥٦]. والأقباط متميزون عن مسيحيي بيزنطة وروما (كما توجد أيضاً جماعات من الكاثوليك والبروتستانت).

ويكون الأقباط كنيسة وطنية مستقلة، يترأسها بطريرك الإسكندرية، الذي يقيم في القاهرة(الأنبا شنوده). ومرت بهم فترات تاريخية حالكة، وسقط منهم كثير من الشهداء. ويحتل الأقباط دائماً مناصب هامة في الحياة المدنية، وفي الجيش، وعلى كافة مستويات الهرم التنظيمي الاجتماعي. ولقد حدثت هجرة مهمة للنخبة القبطية أثناء حكم عبد الناصر، إلا أن الجماعات القبطية ما زالت منتشرة، ومستمرة في نشاطها في كل أنحاء مصر، ولا سيّما في الصعيد، ومصر الوسطى، وأيضاً في الدلتا والفيوم. ويمثلون نسبة ٢٠ في المائة من السكان[٥٧]. ولا ينبغي أن يختلط أمر جماعة الأقباط مع الجماعات المسيحية الأخرى التي وصلت إلى مصر العثمانية أثناء عصر النهضة ولا سيّما السورية- اللبنانية (مثل أسرة لطف الله سليمان)، التي لعبت دوراً هاماً في نهضة الثقافة العربية في مصر:

---

56 في كنائس إثيوبيا، تنتشر اللغة الجيزية

57 حدثت في الفترة المعاصرة، صدامات بين المسلمين والأقباط تعود إلى انتشار التوجهات الدينية الراديكالية الظلامية

وأسست الأسر المسيحية ذات الأصل السوري- اللبناني جريدة الأهرام اليومية المتميزة، ودار المعارف.

وتكون الجماهير الإسلامية الجزء الأكبر من السكان. وسيطرت بصورة قوية على القاهرة في زماني، وتعكس المساجد، والمدارس.. الصرح العمراني في القاهرة القديمة، وتنتشر فيها خانات القوافل التي يعود تاريخها إلى العصر الذي كانت فيه العاصمة تشارك في التجارة الدولية. وبنى الفاطميون أكثر المساجد شهرة (الأزهر، وسيدنا الحسين)، والمملوكية (قلاوون، والسلطان حسن)، والعثمانية (مسجد القلعة)، و يعود تاريخ أكثر المساجد قدماً، إلى القرن التاسع، وهي حقيقة إبداعاً فنيا بمئذنتها الحلزونية (مسجد ابن طولون).

ثار سكان القاهرة تحت راية الإسلام ضد الاحتلال الفرنسي، وباسم الإسلام طالبت مصر... المحافظة على اللغة العربية بعد أن احتلها الإنجليز. ويشيد رجالات القرن التاسع عشر المصريون جميعاً بانتمائهم إلى الحضارة الإسلامية ومنهم رفاعه الطهطاوي الذي أبدى إعجابه بالأمة الفرنسية، وقاسم أمين أبو الحركة النسائية المصرية، وجميعهم يميلون إلى الحداثة، ويتطلعون إليها. وأيضا الجماعة التي أحاطت بالمجدد الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥)، تلميذ جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧) ... وكلاهما رفاق طريق.. وقائد ثورة ١٨٨٢ ضد الاحتلال في مصر، وهم من الوطنيين، وإصلاحيين، ومتسامحين ثقافياً[٥٨].

واتخذ الأفغاني مواقف ثورية أثناء النضال ضد تقدم الكولونيالية الأوروبية: وشجب بلادة "العلماء"، وأصدر نداءاً للفلاحين ليتحرروا من النظام المستغل، وأهاب بالأخوة لإقامة الاشتراكية في العالم أجمع (وأعلن تأصل الاشتراكية في الشريعة الإسلامية، وفي طبائع الشعوب التي اعتنقت الإسلام). وكان أقل طموحاً، بل انتقد بعد عودته من المنفى الفكر الثوري لأستاذه عندما تقلد منصب مفتي للديار المصرية (١٨٩٩)، ومع ذلك فلقد ميز محمد عبده بين الإيمان (الأبدي)، والقانون والأخلاق الاجتماعية (التي يمكن تكيفها حسب الظروف). وكانت جماعات الداخل، وليس الإسلام هي المحرك وراء النضال الوطني من أجل الاستقلال السياسي.

وجدت سلطات مركزية محلية في مصر في كل الأزمنة ، وظهرت في نهاية القرن التاسع عشر، مع مجيء عرابي باشا توجهات، ومشاعر الانتماء إلى أرض الوطن،

---

58 منفيون إلى باريس أصدرا صحيفة بالعربية العروة الوثقى (١٣ مارس – ١٦ أكتوبر ١٨٨٤)

ولو أنها كانت تحت سيطرة عثمانية (منذ القرن السادس عشر)، ومسلمة، ولكنها متميزة عن المركز بلغتها العربية, وهي عامل توفيق لأنها لغة القرآن الكريم)، ومتميزة أيضا عن مجموع العرب بعمق تاريخها الذي يربطها بأول حضارة إنسانية (مصدر إعجاب الأوروبيين، وعنصر تفوق آخر). ويعلن عرابي باشا عن انتمائه إلى أرض الوطن ويفخر بذلك، ويلحق باسمه كناية "المصري"، ويعرف نفسه كقائد لجيش مكون من فلاحين[٥٩].

ساندت الهوية المصرية استقلال نظام الحكم المصري عن سلطة السلطان، واكتسب هذا الموقف أهمية كبرى حتى أن الخديوي إسماعيل أعلن انتمائه إليه في القرن التاسع عشر، وقد أيدت إحدى أميرات العائلة الخديوية (عرابي باشا) في وقفته ضد من خلف الخديوي إسماعيل (الخديوي توفيق) لأن هذا الأخير استسلم إلى الإنجليز. كما تعلقت هذه الهوية بأهداب الليبرالية: اضطر الخديوي إسماعيل أن يجمل من مسار سلطته المطلقة بإنشائه مجلس النواب (استمر في العمل مع توقف لمدة سنتين فقط وحتى عام ١٨٧٩ وبعد أن خلع الإنجليز الخديوي عن العرش). علما بأن الحركة المسلحة التي قادها عرابي باشا، وقفت ضد الاستسلام إلى الإنجليز، وإلى الخضوع للسلطة المطلقة، وطالبت فيما طالبت به و(باسم الجيش والشعب)، إنشاء برلمان، ووضع دستور جديد للبلاد. ولم يشر دستور عام ١٨٨٢ إلى ديانة الدولة[٦٠]. وألغي هذا الدستور بعد احتلال الإنجليز لمصر عسكرياً.

يجدر التنويه بهذه النخبة التي قامت بتقليم أظافر السلطة المطلقة، وتنظم حركة مسلحة ضد سطوة خارجية، ويعكس ذلك كله بالضرورة مستوى معين من التماسك الاجتماعي.

تركت الهوية الإسلامية بصماتها على الثورة ضد المحتل الفرنسي، كما حالت الهوية المصرية دون حدوث استعمار كولونيالي استيطاني، (كما كانت حالة الجزائر). وقاومت هذه الهوية في الواقع الاحتلال البريطاني من ١٨٨١-١٨٨٢ حتى عام ١٩٥٦. ويرى أنور عبد الملك[٦١], أن مصر في عصر محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٩)، مع ظهور

---

59 في مذكرات عرابي باشا التي نشرت مؤخرا في القاهرة يعرب عن استيائه ممن كان اصله إلى الناطقين بالتركية من المماليك وغيرهم

60 أشار إلى ذلك د. عصمت سيف الدولة: الأحزاب ومشكلة الديمقراطية في مصر، دار المسيرة، بيروت ١٩٧٧

61 الأيديولوجية والنهضة الوطنية – مصر الحديثة، طبعة أنثوروبوس، باريس ١٩٦٩

اليابان، هما المثالان الأكثر حيوية، والأكثر استرعاء للانتباه لحركة تقدمية قامت في العالم اللاغربي في العصر الحديث. إلا أن مشروع التصنيع أصابه الخراب بسبب منع احتكارات الدولة (وافق السلطان على ذلك كما أسلفنا) الذي فرضته القوى الأوروبية.

وعلى العكس، قام في الريف، نظام جديد لملكية الأرض يحبذ تكوين بورجوازية من ملاك الأرض، من غير العناصر القديمة المكونة من الطبقة العسكرية الناطقة بالتركية التي كانت على رأس البلاد منذ القرن السادس عشر. وزرعت الأرض حتى ذلك الوقت لفائدة هذه الطبقة (دون أن يكون لها حقوق السيد الإقطاعي الأوروبي). وامتلك محمد علي مجموع الأراضي ووزعها في شكل إقطاعيات على بطانته (مع إلزامهم باستثمارها)، وعلى الأعيان المحليين من الفلاحين (مع إلزامهم باستغلالها ودفع إيجاراتها ومكوسها إلى الدولة). وطبق خليفته عام ١٨٥٨ قوانين حقوق الملكية الخاصة، والوراثة (بدد عمكم محمد أراضي الأسرة، وهو من أصول شركسية في جلسات كرست لاحتساء الخمر وغيره، وهو الأخ الأكبر لجدكم من أبيكم). ومع إدخال القطن طويل التيله وتنفيذ الأشغال الكبرى، توسعت مساحة رقعة الأراضي الزراعية من ٢ مليون فدان في مطلع القرن إلى ٤,٨ مليون فدان في ١٨٨٢.

واكب التحالف بين الملاك العقاريين المحليين، والنخبة الجديدة مع جهود تحديث الدولة، وانتشار التعليم، وتحول الجيش حتى أصبح جيشاً وطنياً (ظلت الكوادر العليا والقيادات في الجيش ناطقة بالتركية إلا أن أغلبية المجندين كانوا جنودا محليين جندوا عن طريق القرعة الإلزامية) وقاد عرابي باشا ثورة عرفت باسمه، وهو ضابط من العناصر المحلية. ويشهد مفكرون مثل الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣) وهو سليل أسرة من الصعيد، وخطباء شعبيين مثل عبد الله النديم (١٨٤٣-١٨٩٦)، بالطبيعة الوطنية لهذه الثورة. وكلاهما خريج الأزهر، احتضنوا في صدورهم تاريخ مصر ابتداء من عصر الفراعنة مروراً بالحضارة القبطية حتى ظهور الأسر الإسلامية الكبرى، ومنها الخديوية، وحافظوا على سعة الصدر، والقدرة على استيعاب أدوات التحليل والنقد الفرنسية، والتقنيات الجديدة، وأساليب الحوار السياسي.

يجب الرجوع إلى صحافة العصر حتى نتبين حدة النقاش الذي دار حول المطالبات المقدمة إلى مجلس النواب، والشعارات التي أيدها الشارع (أن المسلم اعتمدً عليكم أيها المصريون، ويجب العمل على تقوية العروة الوثقى، وعلى عودة الأقباط والإسرائيليين[٦٢]. حتى تدعم الوحدة الوطنية، وحتى نصبح كلنا كرجل واحد نعمل من أجل

---

[62] من بين اليهود الذين ناضلوا حينذاك في الحركة الوطنية، وأكثرهم شهرة كان يعقوب (أبو نظارة)، كنت لمدة طويلة أتصوره في مخيلتي كأنه هنري ومثله أيضاً الأفغاني، بسبب عاطفتهم الثورية المتقدة.

(الكتاب الأول)
المحتويات

ص

***

تحقيق هدف واحد، ألا وهو الحفاظ على مصر للمصريين) كما نادى بذلك عبد الله النديم (في مقال له حول المسألة الوطنية). وقادت العناصر المدنية من الشعب المقاومة من ذلك الحين وحتى وصول الضباط الأحرار إلى الحكم: بعد احتلال القاهرة (بلغ عدد المسجونين السياسيين آنذاك ٣٠ ألف مسجون)، قرر المثقفون الذين تجمعوا حول النديم، الاستمرار في المقاومة السرية (نفي، وأنشأ عند عودته جريدة تربوية ساخرة "الأستاذ").

وأنشأ مع ظهور جيل مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨) ومحمد فريد (١٨٦٨-١٩١٩)، الحزب الوطني وجريدته اللواء. وهما من نفس التوجه: مؤمنون بالقيم الإسلامية، ويرجعون الهوية المصرية إلى عصر الفراعنة، ويطالبون بالجلاء عن الأرض، وبإنشاء نظام برلماني. مشبعون بالتعليم الذي تلقوه في مدرسة الحقوق (كانت تعد الحقوقيين الذين يترافعوا في الشؤون المدنية والتجارية أمام المحاكم المختلطة، بناء على تشريعات خاصة مستلهمة من مدونات القوانين الفرنسية)، ، وأفقهم رحب يستوعب الثقافة الفرنسية ويرحبون بالأجنبي مثل (جولييت آدمز، صحفية، كانت تؤيد مطلب الاستقلال الذي رفعه الحزب الوطني كشعار).

إلا أن فرنسا، التي كان الحزب الوطني يعتمد عليها اعتماداً كاملاً، أدارت ظهرها لكل شيء، (حتى قبل وفاة مصطفى كامل)، لكي تتعامل سراً مع إنجلترا، منافستها. وتوفى محمد فريد في المنفى. ولم يعد الحزب الوطني قائداً للثورة. ولكنه أصبح مدرستها، هكذا قال "جاك بيرك"[٦٣].

سعد زغلول ...محترف سياسي، ومحامي قبل أن يصبح وزيراً، ثم عضواً في المجلس (١٨٥٦-١٩٢٧)، ابن أحد الأعيان من ملاك الأرض، أشعل (ثورة الأمة بأكملها)(١٩١٩-١٩٢٢). وضعت مصر، مع تشرذم الإمبراطورية العثمانية، تحت الانتداب البريطاني. وعملاً بإعلان الرئيس ويلسون قام وفد من الوجهاء الممثلين لجميع فئات الأمة تحت قيادة سعد زغلول بالسفر إلى لندن وفرساي، ومهمته المطالبة باستقلال مصر. ومنها جاء اسم (الوفد) الذي أصبح اسم الحزب. وفي أعقاب نفي سعد زغلول المتكرر جاءت انتفاضات المدن. وتكونت في الأرياف حيث طالب الفلاحون بظروف حياة أكثر إنسانية، جمهوريات مستقلة كما أسلفنا (زفتى، والمنيا، وأسيوط). وانتشر صدى شعار الجلاء حتى وصل السودان (تحرر من الاحتلال البريطاني المصري، بعد أن أعيد غزوه باسم مصر عام ١٨٩٩)، وكان لشعارات (وحدة وادي النيل) أنصارها.

---

63 في مؤلفه (المهم لمن يبحث عن مصادر موثوق منها) مصر، والإمبريالية، والثورة، جاليمار، ١٩٦٧

غير أن استقلال مصر الذي أعلنت عنه من جانب واحد إنجلترا عام ١٩٢٢ كان استقلالا شكلياً فقط: وظل تأمين طرق مواصلات الإمبراطورية، وحماية المصالح الأجنبية والاقليات، والسودان، والدفاع عن مصر، تحت سيطرة بريطانية. ومع حادثة اغتيال (السردار) سير ليستاك القائد البريطاني للجيش المصري، وحاكم السودان العسكري عام ١٩٢٤، ظهرت فرصة لقطع العلاقات بين مصر والسودان، (حتى عام ١٩٣٦)[٦٤]. وظلت الهوية المصرية قائمة: وقد أصبح الخديوي سلطانا على مصر تحت الحماية البريطانية، وتوج ملكا، وتمصر بينما ساد القانون العرفي البريطاني. ولم يكن هناك في الواقع ما يدعو إلى الشعور بالفرح !.

وكان هنري قاسياً جداً في أحكامه على الوفد. ومحقا في ذلك. وإن كان القصر، والديوان البريطاني، وحزب الأغلبية يسارعون جميعا إلى تسميم الأجواء السياسية بمنازعاتهم، إلا انهم متفقون على شئ واحد وهو الإبقاء على نظام تسلطي قمعي. والمطالبة بإلغاء دستور ١٩٢٣.

وابتداء من عام١٩٢٨ كان حزب الوفد ينتصر بانتظام في الانتخابات، كما يطرد خارج السلطة بانتظام أيضاً، وكثيراً ما ارتضى هذا الوضع، بعد أفول حقبته الملحمية، وعند توقف المواطنين عن الاشتراك الفعال في الحياة العملية في البلاد. وكان هذا أمرا خطيرا: وتردى فكر النخبة، وبدا ذلك واضحاً مع المناقشات التي دارت حول قضية الخلافة، (ألغيت الخلافة في تركيا عام ١٩٢٤).

ونادى رشيد رضا وهو سوري مقيم في مصر (١٨٦٥-١٩٣٥)، تلميذ محمد عبده، ومدير جريدة المنار... وقد انزلقً خارج نطاق التجديد.. بعودة الخلافة، مهاجماً (الذين يودون محاكاة الغرب)!. وتصدى له بالطبع علي عبد الرازق (١٨٨٨-١٩٣٥) وجادله منطقياً، وأكد له استنادا إلى وقائع تاريخية أن الخلافة التي أقيمت بعد وفاة الرسول كانت مؤسسة تحيطها هالة من القدسية. إلا أن كتابه (الإسلام وأصول الحكم) كان سببا في رفع قضية ضده أمام المحاكم، ورغم أن من حق المؤلف الدفاع عن نفسه، بعرض قضيته في مقالات تنشر له في الصحافة، إلا أنه استبعد من مجلس (العلماء)، ولما كان لا يملك جريدة انتهى به المطاف إلى التزام الصمت .

---

64 أنظر كتابي حول السودان، نقل إلى العربية: السودان إلى أين ... ؟ دار العالم الثالث، ٢٠٠٣

وقد ورد على الأسماع صدى مثقفين حظوا بالشهرة، حاولوا التعامل المنطقي مع الإسلام : طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣) الذي ألغى فصلاً كاملا من كتابه في موضوع الشعر الجاهلي بعد أن واجه هجوماً مستعراً من نفس المجلس السابق.

واعتمد الوفد على شعبيته المكتسبة من الماضي، وعلى مبارزاته مع الإنجليز والملك وقرر دون أن يكون له برنامج محدد، وبصورة تجريبية، رسم السياسة الواجب إتباعها حسب أهواء البعض هنا أو هناك.

غير أن الحزب كان منتبهاً لمشورة المفوض السامي البريطاني فيما يتصل بالشيوعية. ويدهش المرء عندما يطلع على الأرشيف البريطاني، من درجة الرعب والهلع الذي تسببه البولشيفية للمفوض السامي اللورد اللينبي، الذي ينتابه وسواس مرضي يتصور له أنه محاصر من جميع الجهات بعملاء موسكو[٦٥]. وحدث كل ذلك، وتسبب في حرف رؤى المحللين لتاريخ الحركة الشيوعية المصرية، إما بتقليل أهمية مشاركة المناضلين، أو بالمبالغة فيها. ومهما يكن من أمر قام اتحاد نقابي عام في ١٩٢١(اتحاد النقابات العام)، بحشد حوالي ٦٠ ألف منتسب (حسب تقديرات المراقبين في ذلك الوقت)، وقادت نشاطه فيما بعد لجنة مكونة من تسعة أعضاء منهم ثلاثة شيوعيين. ومحام من أصل سوري-لبناني، "أنطون مارون"، الذي سجن مع حسنى العرابي ممثل المؤتمر الرابع للدولية الثالثة (١٩٢٢) وكان ممثلاً "للحزب الاشتراكي" الذي اتخذ فيما بعد اسم (الحزب الشيوعي المصري).

وكانت هذه هي الحقبة التي طال انتظارها بلا جدوى ... لكي يقوم الغرب أثناءها بثورة بروليتارية يفترض منها أن تحرر المستعمرات، وارتدت الشيوعية الدولية على أعقابها في إطار تحالفاتها مع البورجوازية الوطنية (وكان لينين يؤيد الحركة الكمالية التركية، وحاول دون جدوى أن يتصل بقادة الوفد).

واعتقدت حتى وقت إعداد رسالتي الجامعية، بفكرة مفادها أن هذا الحزب الشيوعي المصري، أرتاب من كل ما يتصل (بالبورجوازية الوطنية)، التي أسقطتها الدولية من حساباتها، دون فهم لواقع الحياة في البلاد.

تأكدت هذه الفكرة أثناء أول احتفال ليوم النقابات العمالية في مصر الذي انعقد في مدينة الإسكندرية، و(هي بوتقة تجمع بين أجناس متعددة). ومنذ ذلك الوقت صقلت هذه الفكرة، وإنما بصورة سطحية، مع قراءة بعض الوثائق. صحيح أن أولى النقابات التي

---

65 نادى لينين للقيام بالثورة العالمية عام ١٩١٩

أنشئت في مطلع القرن كانت بالضرورة مشكلة من العمال الأجانب (الذي يحميهم نظام الامتيازات الخاصة)، وأدركوا ضرورة التنظيم بعد الثورة الروسية في ١٩٠٥، وقاد جواهرجي يهودي روسي الأصل التنسيق النقابي الأول، وكان مقيما في الإسكندرية عام ١٨٩٩ (وكشف عن نشاط جوزيف روزينتال بفضل المقابلة التي أجرتها معه جريدة الأهرام في ٧ مارس ١٩٢٤).

غير أن الحرب العالمية الأولى، والأزمة الاقتصادية، والبطالة والزيادة المضطرده في عدد السكان غيرت وعدلت من الوضع كثيرا.

تمصرت الحركة النقابية العمالية مع مغادرة الكثير من العمال الأجانب المهاجرين من مصر. وعملت جهات مختلفة على سد الطريق أمام تقدم فئات رؤساء العمال، ورؤساء الإدارات، والحرفيين، ورؤساء المنشآت الصغيرة والوقوف في طريق حدوث دعم اجتماعي للجماهير في المناطق الحضرية، كما شجعت النقابات، ونجحت في الدفاع عن القضية الوطنية، دون أن تدخل إصلاحا في قوانين العمل.

و حدث أثناء سنوات الثورة في الفترة ١٩١٩-١٩٢١، ٨١ إضراباً، منها ٦٧ إضراباً عاماً، واستعادت الحركة حيويتها في ١٩٢٣-١٩٢٤. لكن لم يتمكن الحزب الشيوعي من الحصول على اعتراف بشرعيته. وألقي الشيوعيون المصريون في السجون مع ظهور أول حكومة وفدية بقيادة سعد زغلول، وأبعد الأجانب (ومنهم روزنتال)، بعد الحصول على موافقة سلطاتهم القنصلية. ودمر القسم الأكبر من تنظيم الشيوعيين نتيجة الاضطهاد: ومثل مصر عام ١٩٢٨ مندوب فلسطيني في المؤتمر السادس للدولية.

ويبدو أن الأهمية التي توليها الإمبريالية العالمية لقناة السويس ناشئة عن حجم المصالح الاستراتيجية والمالية المترتبة عن وجود القناة، وهي التي أحبطت موافقة موسكو الرسمية على إنشاء حزب شيوعي. وفي نفس العام (بمساعدة الإنجليز والفرنسيين.. يؤكد شريف ذلك)، أنشأ حسن البنا، وهو مدرس مجهول، جماعة الإخوان المسلمين في مدينة الإسماعيلية.

ومن موروثنا، حظر نشاط الحزب الشيوعي في مصر، (ولو أنها مؤسسة حصلت على الشرعية في إنجلترا) واعتبره البعض في مصر مناهضا للإسلام ... أضف إلى ذلك أحكام دستور ١٩٢٣ التي لم تطبق أبداً !. وقد ورثنا أيضاً ميولا تتجه إلى تضخيم دور البوليس السياسي، ثم التعتيم الكامل على كل ما يمت بصلة إلى الاتحاد السوفييتي، مضافا إلى ذلك ممارسة الاعتقال السياسي (دون محاكمة)، وحركات الإضراب عن الطعام، وظهور تقاليد إسلامية رسمية رجعية.

ورغم مرور الحزب الشيوعي المصري الأول ... كسحابة صيف، إلا أنه نجح في دفع الطبقة العمالية إلى الصفوف الأمامية للأمة: وحاول الوفد وغيره من الأحزاب

السياسية بل أحد أعضاءً البطانة الملكية (الأمير عباس حليم)، فرض سلطتهم على الحركة النقابية. بل حاول الوفد أيضاً أن ينشئ نقابة مركزية ولم يتمخض عن ذلك شئ. ولكن الفلاح الذي لا يكف عن العمل (وهو لا يملك الأرض)، ويعول عليه لإنتاج ثروات البلاد ... ترك ليغوص في مستنقع بؤسه.

وعندما بدأنا في تنفيذ عملٍ منظمٍ، كان الوفد في الحكم (استطاع هذه المرة البقاء لأكثر من عامين دون أن يستطيع الملك أن يركله خارج السلطة، وامتدت فترة حكمه هذه من فبراير ١٩٤٢ حتى أكتوبر ١٩٤٤).

وسقطت من الذاكرة بسرعة قوة القبضة البريطانية[٦٦] على نظام الحكم في البلاد. إلا أن الوفد حصل (بناء على معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا) على موافقة لإنهاء نظام الامتيازات الخاصة، وانضمت مصر إلى عضويةٍ عصبة الأمم. وتزامن مع فترة تولي الوفد الحكم حدوث معارك العلمين وستالينغراد الطاحنة، وإضفاء الشرعية على النقابات، وولادة منظمات فعّالة شبه سرية (تكون من مجموعها الحركة الشيوعية المصرية)، ومن هذه المنظمات .. الحركة المصرية للتحرر الوطني التي قادها هنري. وقد تطورت الرأسمالية الوطنية والطبقة العمالية محلياً في بلاد مختلفة في فترة ما بين الحربين العالمتين .

لم يكن لدينا مصطلحا آخر سوى عبارة (شبه إقطاعي) لنشير به إلى نظام يعتمد على الاستغلال البشع لفلاح بدون أرض (لم تشمل عملية إضفاء الشرعية على النقابات هذه الشريحة الاجتماعية الريفية التي تمثل في الواقع أغلبية السكان!) وكان هذا الاستغلال لمصلحة كبار الملاك العقاريين (وكثير منهم من قيادة الوفد)، وأفراد من البطانة الملكية، وفي دولة تابعة لقوى أجنبية، تنمو في ظلها المؤسسات التجارية والمصرفية ذات رأس المال الأجنبي.

وكانت مظاهر التبعية، والتشبه بالقديم حقيقية حتى أن أكثر الضباط وطنية يضايق الجندي الفلاح البائس مع عدم وجود سبب واضح يبرر مثل هذا التصرف ضد هذا الجندي البسيط الذي لم يتمكن من دفع مقابل إعفائه من الخدمة العسكرية المعروف (بالبدل)، وكم كانت كراهيتنا أن تظل مصر على هذا النحو. وفي محاذاة ذلك كانت هناك مصر من نوع آخر في طريقها إلى البزوغ.

---

[66] بأمر من السير مايلز لامبسن حاصرت الدبابات البريطانية القصر الملكي لإجبار الملك على إعادة الوفد إلى سدة الحكم (كان يؤيد الإنجليز)

بالتأكيد يستخدم الملاك العقاريون فوائض أموالهم في شراء أراض جديدة (٦ مليون فدان في ١٩٥٢) والدخول في مضاربات عقارية، ويستثمرون رؤوس الأموال أيضاً في الصناعات التحويلية – المنسوجات (وهنا يرجع سبب تردد الوفد في السيطرة على النقابة في هذا القطاع) وقطاع صناعة السكر في الصعيد – بل لم يجرؤ على الاقتراب من المؤسسات المالية. وأنشأ بنك مصر، وهو ترست حقيقي عام ١٩٢٠، وفرضت الحماية على المنتجات المحلية بدأ من ١٩٣٠، بينما فرضت قوانين ١٩٢٦ و١٩٢٩ قيودا على كيفية الحصول على الجنسية.

وعند انتهاء الامتيازات في ١٩٣٧ إثر التوقيع على اتفاقية مونترو فرضت الضرائب على الأجانب، وفي ١٩٤٧ أنشئ بنك صناعي، وطبق قانون الشركات المساهمة الذي يقضي باشتراك حصة من رأس مال مصري تمثل نسبة رئيسية من مجموع رأس المال. وأخيراً وليس آخر مجانية التعليم العام (بدأت من ١٩٣٦) وانتفخت من جرائه فئة الافندية المتعلمين . وعملت هذه القوى الاجتماعية الجديدة على زيادة التوجه الراديكالي في معالجة المسألة الوطنية كما شرعت هذه القوى في إجراء حوار حول ضرورة إحداث تغيير هيكلي.

يجب إجراء وقفة عند هذه الفترة الحاسمة التي مهدت الطريق للقيام بعمليات نضالية . بانتهاء عصر الامتيازات الخاصة ودخول مصر في عصبة الأمم ووصول شخصيات شعبية وغيرها إلى السلطة. أولاً شخصية الملك فاروق، الذي خلف والده فؤاد في ١٩٣٦: وكان يبلغ من العمر السابعة عشر عاماً فقط ... جميل المحيى كآلهة الإغريق، يتنزه مزهواً كالآخرين (نشاهده أثناء مروره في عربته التي تجرها الخيول) في شوارع العاصمة التي ملؤها الأمل، لا لسبب إلا أنه كان يتحدث العربية (وأكد في خطاب العرش في ١٩٣٨ وطنية الجيش). ثم شخصية أخرى، وهي شخصية زعيم الوفد النحاس باشا الذي جاء ليؤكد السيادة المصرية: قريب بشكله جداً من أفراد الشعب، مثل المصري أفندي، متزوج كذلك من امرأة مكورة متسلطة[٦٧]، وقد أنعمت عليه الطبيعة بحول حاد في عينه جعله أكثر ألفة وقرباً من النفوس!.

وتربع، طه حسين على قمة التعليم الوطني، وكان طفلا أعمى نشأ في أسرة موظف صغير يعمل في الصعيد، طالب تأصلت جذوره في التقاليد العربية الإسلامية في الأزهر، وأصبح أكاديمياً جامعياً مشهوراً على النطاق الدولي في فرنسا، وبطل النضال

---

67 "زوزو" الوكيل: ولم تكن قد أصبحت صاحبة أعمال كما صارت فيما بعد أثناء سنوات الحرب، مستفيدة من حكم زوجها المتواصل الذي استمر عامين

ضد الجهل والفقر. وفي كتابه مستقبل الثقافة في مصر (الذي نشر في ١٩٣٨ عشية انضمام مصر إلى عصبة الأمم)، يحدد موقع بلاده على خريطة منطقة البحر الأبيض المتوسط حيث يكمل الشرق الغرب بعضهما البعض، دون أن ينسى ماضيه الفرعوني. يرفضه البعض، ويعبده الآخرون (لاسيّما الطالبات اللاتي كن ...من أول دفعة من خريجات الجامعة من المصريات)، أنشأ جامعة الإسكندرية (١٩٤٢) وأعلن مجانية التعليم الأولي عندما عين وزيراً للمعارف في حكومة الوفد في ١٩٥٠. وقال أن التربية والتعليم تمثل الطريقة الوحيدة للسير في طريق تحقيق المساواة والعدالة ... وأنه لن يسمح بعد ذلك كما قال (لأقلية أن تعامل الأغلبية ظلما، ولا أن تضحي بحقوقها في الحياة العامة). وأصاب الوفد التطوير أيضا.

كانت هياكل أكبر حزب مصري معقدة. ويعتقد هنري أن الفئة الرئيسية التي تستحوذ على السلطة، تتكون من عدد يناهز الخمسة عشر مالكاً من ملاك الأرض الكبار (وكانوا يعينون في مناصبهم بالتزكية). وتتبع ذلك (المجموعة المنتخبة) من مندوبين وشيوخ، سابقين ومن لا يزال منهم في الوظيفة، بضعة مئات لا أكثر، وأيضاً من ملاك الأرض، كثيراً منهم يمارس مهنة حرة، ويتمتعون بثقافة أكبر، وذوي أفق واسع. ومارست هذه الفئة ضغوطاً على القادة، بل مورست عليها ضغوطاً من القاعدة، وانتظمت في (لجان وفدية). ونشطت هذه اللجان في القرى، وفي أحياء المدن. ومارس الشيوعيون تأثيرهم من خلال العمل معهم. أو حتى كصحفيين، ولم تقتصر الصحافة في ذلك الوقت على الصحافة الوفدية، فكانت هناك نهضة إعلامية (١٨ جريدة يومية في ١٩٤٩، منها ١١ تنشر في القاهرة و٣ باللغة الفرنسية)، وكانت لمدن مثل الفيوم، وطنطا وسوهاج جرائدها الخاصة.

أثناء هذه الحقبة... حقبة النضال من أجل إعداد الوطنيين لتولي إدارة شؤونهم (يمكننا أن نؤكد ذلك مع إطلاله سريعة إلى الخلف) ... أضافت منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطني – والحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (وهي المنظمة الشيوعية المصرية الوحيدة التي أعرفها)... إلى الحركة الوطنية، إضافة نوعية وهو أمرٌ معترفٌ به. ولم تقتصر هذه الإضافة فقط على مجرد وجود برنامج أول حزب شيوعي مصري الذي تضمن أهم المطالب الرئيسية، بما في ذلك النضال المشترك مع الشعب السوداني لتنفيذ الجلاء عن الأرض (أضاف هنري الحق في تقرير المصير في السودان)[68] وكانت

---

68 اعترف الرئيس محمد نجيب فيما بعد بهذا الحق

مسألة تتعلق بالتوقيت. وهذا ما كان يعتبر في العشرينات مطلبا فوضويا، طالبت به فئات اجتماعية عريضة. وطولب به حتى داخل الجيش، وشعر صغار الضباط من الشباب مباشرة بثقل التبعية (وما يمكن أن يؤدي إليه انقلاب مزاج المفوض السامي البريطاني ويذكرهم بذلك أحداث ليلة ٤ فبراير ١٩٤٢). ولم تنجح كل المعاهدات الموقعة وغير الموقعة منذ ١٩٢٢ من أن تقدم حلا للمسألة الوطنية. كما نرى شباب كبريات الأسر، مثل أسرة موناستيرلي التي تقيم في قصر فاخر يقع على النيل في منيل الروضة، يعتنقون الشيوعية من باب الوطنية. ومثل عثمان وهو أول من جندته.

اليقظة

لاهاي في ٣١ أغسطس ١٩٧٩

تقل برودة بحر الشمال في مصيف سكيفينج عن برودة مياه المحيط الأطلسي الذي تطل عليه مقاطعة بريتاني في شمال فرنسا. مياه البحر رمادية اللون، زيتيه، كما وكأنها ملوثة ... بناتك رائعات يا مايرول: صوت لوسيا الذي به حشرجة وهيأتها، وروحها الملاطفة قد أسر قلبي. ولم نكن بحاجة في الواقع إلى التحدث بنفس اللغة حتى نفهم بعضنا البعض. وفي فترة لاحقة أشعر أني في حاجة إلى أن أعاتبك لابتعادهن عن ثقافة مكملة لما حصلوا عليه في المدرسة. لماذا يدفعن ثمن تصفية حساباتك مع الماضي. الانفتاح على المستقبل أكثر إثراءً بكثير[69].

عندما تزوجنا في أول سبتمبر١٩٤٢(تسلمنا مرتباتنا في نفس الوقت، واستطعنا بذلك أن نتمتع بشاطئ البحر في أفضل المواسم)، وكان الألمان في العلمين، على مشارف الإسكندرية. وكنا نسمع صوت المدافع من فندقنا في منطقة "ستانلي بيه"[70]. وكباقي الشباب كنا نرقص كل مساء في المكان المعد لذلك خارج كبائن الاستحمام الخاصة. ذكريات بحر أملس السطح ، يستمر دفئ مياهه حتى بعد انقضاء موسم الصيف، مقارنة بالمياه الباردة لبحر متوحش تركته منذ قليل، وأتمتع به... ولكن بصورة أخرى.

لم يكن هناك زواج مثل زواجنا. استقر الأمر على أن استمر في العمل (كنت أول استثناء رسمي لقاعدة العزوبية النسائية في البنك) وتسبب سلوكي هذا في حدوث فضيحة في أسرة زوجي (وأصبحت فضيحة كبرى عندما هاجرت هذا الوسط النسائي لأتقلد

---

69 أشعر بالراحة كثيراً إذا ما استوعبت اختلاف نظرتك في تربية حفيدك. كأن لا يفتقد شيء أبداً ...

70 أوقف الفيلد مارشال مونتغمري تقدم الأربعة عشر فرقة من فرق جيش فيلق أفريقيا الذي يقوده رومل في نهاية أكتوبر ١٩٤٢ (حتى هذه اللحظة كانت القوات البريطانية تعود من الجبهة وهي ترفع علامة ٧ مقلوبة).

وظيفة سكرتيرة خاصة لمدير شركة كندية). كان ذلك كافياً ليعتبر مساسا بتقاليد الإسلام، وأن يكون ذلك بمثابة شرط أملته يهودية للزواج منها، فتاة شابة (متحررة!!)، لا تملك مليماً، وفضلاً عن ذلك أفقدته فرصة الالتحاق بصفوف الحرس الملكي. ومن الجانب اليهودي، فإن الزواج من مسلم لا يملك شرو نقير لم يكن أقل فضيحة (إلا أن أمي لم تتقيد بالأعراف)، ولو أن وجود أم إنجليزية وجدة شركسية من العوامل التي رفعت من مقام الأسرة في أعين البعض. إلا أني قررت مقدماً أن تكون علاقتنا الزوجية مؤقتة: تسلمت شيئاً من الميراث عندما بلغت سن الرشد، وانتظرت حتى نهاية الحرب كي أنهي دراستي في فرنسا. أما عثمان فكان يعلق آماله على استمرار زواجنا على عاطفة الأمومة التي ما من شك سيكون لها الغلبة في نهاية الأمر... أو هذا ما اعتقده ...

التقينا صدفة، في سهرة راقصة أقامها أحد أصدقاء أسرته، وهو "بورتي باناني"، زميل أخي جو في شركة وارنر بروذرز... عثمان رياضي، لفحته الشمس لونه أسمر، وشعره أشقر، كما تميز أيضاً بردائه العسكري، وابتسامته اللطيفة، وتصرفه السلوكي الرقيق (وهذا ما لمسته عندكِ يا نيفين يا جميلتي، بل حتى طريقـــة حـــكك أنفك تشبهه)، راقص بارع[71] . حبٍ من أول نظرة ولحسن الحظ شعور متبادل : طلـــب مـــن أحد الأصدقاء أن يتبعني حتى منزلي. ومنذ ذلك الحين كان يترقب خروجي من البنك لكي يصطحبني في نزهة بالسيارة، ويعطيني دروساً في ركوب الخيل وفي اجتياز الحواجز في نادي الفروسية (حاز على بطولة مصر في الفروسية)، ودربني على سباحة الكرول، والغطس في مينا هاوس (وكانت تصطحبنا أخته عنايات المفضلة لديك يا مايرول، والوحيدة التي لم تتزوج حتى ذلك الوقت، كانت تحب بطل السباحة المتميز قدري محمود ...). كما علمني قيادة السيارة ... وهي في الواقع عربة تابعة للجيش! وعندما كان بعيداً عن القاهرة، كان يكاتبني كل يوم: وكانت فرقته ... لدى تقدم الجيش الإيطالي ... جزءاً من قوات الدفاع عن البلاد، وكانت بمثابة فرصة للتعرف على عدم كفاءة، وجبن القيادة العليا للجيش في ذلك الوقت، والتي كانت تمرغ رأسها في التراب تحت أقدام المحتل.

---

71 لم نظل واقفين جامدين بلا حراك نلوح بأيدينا فقط، على غرار صورة المجتمع الاســتهلاكي الجديــد، ولكن الإيقاع يا سانيا عندما تلهمك قطعة الموسيقى (فيفا لا سالسا)

القلق الذي يبعثه الاستلاب. حلم الرحيل والعودة إلى بلاد يقطن فيها السكان في أراضي على ضفاف النيل[72] ... كل هذه المشاعر تمثل استعداد داخلي لكي يستطيع المرء مواجه الآخر في حالة قطع العلاقات، وما يترتب على ذلك من آثار مخربة، يولد عندي شعور بالخفة, وقد يخلق عند الآخر شعوراً بالاضطهاد، وبأنه لا يساوي شيئاً(وهذا خطأ). قد يكون هذا هو سبب تخوفكِ من التغيير يا مايرول. ولكن الأمر أكثر تعقيدا من ذلكَ.

يحب الشباب على أية حال الانطلاق... لا أن تكبحه القيود المتزمتة .

لم تسمح فترة الحرب العالمية أن تراودنا أحلام اليقظة، وتغمرنا سعادة فائقة ونحن جلوساً حول الموقد أثناء الشتاء في موعد تناول الشاي مع أبو فروة الذي يطقطق في المدخنة الموجودة في قاعة الجلوس في منزل جدتك البريطانية...قد يكون مبعث هذا القلق الذي شعرت به هو التزامات الزوجين: كان من المفروض أن نكون وحدة متماسكة (بتوجه عسكري، وشعور بنشوة متأصلة نتقاسمها)، يقودها دائماً الرجل !. وكان عثمان يكبرني بستة أعوام وهو أكبر اخوته البنات، رجل عسكري محترف، ولكن لا يبحث عن طريقة لفرض سلطته. فكان يكفيه أن نحب بعضنا. وأصبحت الممنوعات السطحية القديمة... كالجلوس على طاولة مع أحد الزملاء في جروبي، (وهو مكان عام... كافيتيريا ... يتردد عليها أفراد مجتمعنا) كلها أمورا أصابها القدم.

غير أن الأسرة حاولت دمجي بالقوة. وأرادت مني التقيد بالأعراف: كان رد فعلي مبالغ فيه، وصبياني ...

وتسبب تخوفي من الاستقرار مرة أخرى أن قدمت استقالتي من البنك، بينما كانت أمامي فرص عمل جيدة ...: جرى البحث لتعيين (مصريين)، ولم تعد قاعدة العزوبية النسائية مطلوبة، تراكمت لدي خبرة سبع سنين، وحصلت على ترقية وظيفية للعمل في مكتب رؤسائي، وكنت أعرف الإنجليزية (تعلمتها في المعهد البريطاني). باختصار، رسمت المشرفة الرئيسة "بلانش كوهين" بحماس (اقتربت من سن التقاعد... وكانت تحبني كثيراً) سيرتي المهنية، ولكن خاب أملها بسبب عنادي، ورغبتي في الاستقالة رغم الزيادة في المرتب... ونافقت، وادعيت أنها غير كافية ... وكنت أردد عبارة (من حيث المبدأ) ولكن الأمر كان خدعةً ،ورفضت ترشيحي للوظيفة: رغم أني مكثت أربع سنوات أعد

---

72 اليوم يتراحم ...حتى الفلاحون المصريون لاجتياز الحدود يدفعهم إلى ذلك الخوف من الاختناق!

أوراق النقد في البنك، وثلاثة سنوات أنقل فيها حاصل جمع هذه النقود في سجلات ضخمة (على الأقل اكتسبت بهذه الممارسة القدرة على إجراء عمليات الحساب الذهني بسهولة)، ورغم زواجي من ضابط محترف[٧٣] ...! رفضت الفرصة الوحيدة لكي أتمتع بحقوق المواطنة المصرية !

وهكذا كان الحال دائماً. وبعد قليل، لم يسمح النشاط النضالي السري بالخوض في تطلعات السيرة الذاتية المهنية،(مرة واحدة وقعت ضحية إغراء... على أمل أن أستعيدكم إلي جانبي يا بناتي، وكان ذلك عندما قمت بوظيفة تعليمية في المغرب). كيف يمكن إذن أن أؤكد شخصيتي إلا بالمواقف المغالاة فيها ... فالبيئة المحيطة تفرض مقاييس ومعايير، وتعتبر أنه من باب الفضيحة الجلوس مثلا في غرفتك لمذاكرة مواد التوجيهية بمساعدة أستاذ ... وسط كله ثرثرة، وادعاء بالتمسك بأهداب الفضيلة. كم كنت أكره كل ذلك فوق كل شيء أخر!

"بابا آنّا"، الجدة الشركسية لأبيكم، نجت من الإسفاف: كانت تسليني بمآسيها الإيمانية، عندما كنت أعود صدفة قبل عثمان إلى المنزل، وأذهب فوراً إلى غرفتها. عجيبة هذه السيدة العجوز... كانت آمة قبل أن تصبح زوجة الباشا[٧٤]، واعتبرت من الطبيعي تماماً أن امرأة حفيدها (التي كانت تعبده)، قد استوفت الشروط اللازمة لتصبح برتبة (هانم)[٧٥] ولا يوجد ما يمنع من أن تستقل الهانم دراجتها كل صباح للذهاب إلى العمل، بعد أن تعبر جسر بولاق (المزدحم، ويمر عليه خط الترام)، ثم بحي مشهور بمطبعته (حي بولاق)، وبرائحة البوظة (وهو شراب كحولي يصنع من القمح، تفوح منه رائحة طيبة للخبز). واختارت هذه الجدة اسمي الآن ..."ديدار".

---

73 كان هناك أسبابا لاعتبار الكلية العسكرية في ذلك الوقت دون مستوى الكليات الأخرى (ساعد على نشر هذه الفكرة وجود الجيش البريطاني في البلاد..وكذلك لأنها بدأت في فتح أبوابها لأعضاء الطبقة الوسطى الصاعدة بعد أن اقتصرت على الأرستقراطية التركية والشركسية .).

74 تزوجها وقد بلغ من العمر ٨٠ عاماً وهي لا تزال في الثالثة عشرة من عمرها وأنجب منها أطفالا، وتوفي وهو يمتطي الخيل بينما يناهز عمره ٩٠ عاماً !

75 لقب تتسمى به سيدات الأرستقراطية التركية الشركسية.

لاهاي، في شهر سبتمبر

مكثت طويلا أسبح في الصباح في بحر غسلته من أوساخه بأعجوبة رياح منعشة. وشاطئ البحر يمتد بلا نهاية في منطقة سكيفننج ... أشبه بشواطئ البحار الشمالية والأطلسي. وإن وجد المرء في منطقة البحر المتوسط يجب التوجه إلى صحراء مصر حتى يتمتع بمثل هذه الفضاءات الفسيحة.

شعرت لأول مرة في مرسى مطروح بجمال البحر الذي ينعش الجسم أثناء فترة صيف عام ١٩٤٥. شعرت بالحرية أخيراً... وطرت على أكف الريح ... تاركة ورائي هذا الشاطئ الطويل الممتد، المهجور.... منطقة عسكرية... ! يحرسها جنود يحترمون حرمة عائلات ضباطهم ... منفىً تحول إلى مكان ممتع ... وهناك خلقت يا نيفين. كنا نقترب من نهاية الحرب: وكانت المنطقة التي احتلتها القوات الإيطالية لفترات طويلة منطقة محظورة على الجمهور. وتوجد داخل المباني التي كانوا ينزلون فيها لوحات جداريه ملونة كبيرة تذكر باحتلال لم تتخلله مآسي. دفعنا الحر الشديد للاحتماء بالخيمة التي نصبت على الشاطئ. وأخذنا معنا كتباً والبيك اب واسطوانات موسيقى. ويكفي لدرء خطر لذعات العقارب أن يجلس المرء تحت الناموسية... وتفتيش ثنايا ملابسنا، وأحذيتنا قبل ارتدائها. ينبغي أن تذهبي يا نيفين إلى مرسى مطروح ... أنت التي تهربين من بحار الشمال الباردة.

نقل والدكم إلى منطقة الحدود بسبب نشاطنا السياسي. تخبط النظام القديم كخبط عشواء. بدلاً من مساندة من ينادي بان يصبح النظام الملكي أكثر استقلالية عن الإنجليز، يقرر على العكس.. إبعاد أكثر العناصر شجاعة إلى مواقع حدودية نائية... يشعر المرء أنه بالفعل قد نفي إليها. كما كان حال من ينفى إلى " توكر" في السودان.

قدمت استقالتي من شركة النفط الأمريكية ساوث ميديترينين أويل فيلدز، لأرافق زوجي ... عملت في هذه الشركة كمسؤولة عن الوثائق بمرتب جيد في ذلك الزمن (٢٠ جنيه مصري شهريا لمدة ثلاثة عشر شهراً)، تقريباً ضعف مرتب والدكم ... ولم تبحث "فتيات العائلات المشهورة" عن وظائف، بل كانت تأتيهن جزافا !

جندني دافيد ناحوم في الحركة المصرية للتحرر الوطني التي كانت حديثة الولادة (وبمناسبة المسألة اليونانية)[٧٦]، ولدى عودتي جندت أبيكم (ولكنه لم يكن عضوا منتظما في الحركة المصرية للتحرر الوطني). ناضلت في البداية في (قسم الأجانب)، مع

---

[76] أنظر لاحقا.

أعضاء من أساتذة الليسيه الفرنسي. كنا نجتمع عند جولييت علوان (المسؤولة عن المجموعة)، أو عند حماي عندما كانت الأسرة في الاسكندرية. وتركت هذه الاجتماعات لديّ مذاقا طيبا ... وأتذكر تماماً المنشورات التي أعددناها، أنا وعثمان، على مطبعة الجيلاتين، ونستعجب من هذه الآلة الصغيرة التي يسهل إخفائها (كنا نسكن منزل الأسرة)، وكانت هذه الآلة قادرة على استنساخ مئات النسخ دون أن يعتريها كلل... منشورات موجهة إلى جنود برتبة رقيب (شاويش) وأحيانا مجرد دروس بسيطة لمحو الأمية يتولاها أبوكم (سراً!) ... وخالد محي الدين أيضا بعد أن جنده.

وبسرعة تعاطف عثمان، وخالد مع الشيوعيين بعد أن مروا بمرحلة الخطابات الحماسية الجذابة التي كان يلقيها حسن البنا، مدركين عجزه عن إحداث تقدم في القضية الوطنية (كانت جماعة الإخوان المسلمين شرعية في ذلك الوقت، وتنشط من أجل عودة القيم الإسلامية والجهاد). وعمل هذان الضابطان الوطنيان المتحمسان تحت إمرة لواءات خنوعة (مثل الباشا القائد الأعلى للجيش ...)، الذي لم يتحرك ساكنا عندما حاصرت المدرعات البريطانية قصر الملك، هذا الملك الذي كان ضباط الجيش يحلفون له يمين الولاء منذ جلوسه على العرش عام ١٩٣٦. وكان والدكم، وخالد هما اللذان أطلعاني على حقائق الموقف السياسي المصري. وما من شك كان للخطاب الماركسي فعل السحر معي، إلا أني لم أكن مثل هنري، أجد في البحث عن طريق ثوري لحل المشاكل الاجتماعية في البلاد، التي لم أكن أعرف عنها شيئا في ذلك الوقت، وقد بلغ عمري ١٩عاماً عندما تعرفت بعثمان، بل لم اعرف بوجود جيش وطني في البلاد !

وعاد أبوكم مرة أخرى بعد مرسى مطروح إلى القاهرة ... إلى معسكر (العباسية). وفور وصولي اتصلوا بي لشغل وظيفة سكرتيرة مدير (صديق نيللي) لا أتذكر اسم شركته، مرة أخرى كنت في صحة جيدة (قضيت الشهور الأولى من حملي مستلقية على شاطئ البحر)، واستعدت مرة أخرى عاداتي السابقة في حضور الاجتماعات السرية في المساء في نقطة اللقاء (دار كتب أسرة هنري التي أنشأها أثناء الحرب، وتحولت فيما بعد إلى مجرد مكتبة للأدوات المكتبية كانت تديرها والدته)، أو عند روثي أو جوجو جريش، وكنا نجتمع مع جو ماتالون، وتحسين المصري[٧٧]. ونستخدم مقر (الصداقة الفرنسية) كمكان تعقد فيه الاتصالات العلنية. يمر به هنري من حين إلى آخر كالإعصار، يحمل بين جنباته شعوراً فياضاً بالانتصار. كنا في وقت تقدمت فيه الجيوش

---

[77] أحد المدربين (مع جو ماتالون ودافيد نعوم في الدورة الأولى السرية المكرسة للعمال التي نظمت في عزبة كوربيل).

السوفييتية الكاسحة (وكان تعثر الحلفاء ... يثير النكات، والرسوم الكرتونية الساخرة). وعرف هنري ... هذه المرحلة بأنها مرحلة مد ثوري ... أضف إلى ذلك ما أعتقده بقوة، وهو أن هنري بعاطفته المتقدة، ونشاطه الفكري على الصعيد المحلي ... شحذ الفكر الثوري المصري آنذاك.

المد الثوري ...

الجزائر سبتمبر ١٩٧٩

تميز النضال السياسي بقيادة هنري بالتكليف بمهام محددة. لم يستند النشاط إلى توجيهات حماسية، ولا إلى تمرد شخصي داخلي. تحدث هنري عن الجهود الواجب بذلها من أجل فهم واستيعاب قواعد النضال السري، والتمصير، واستيعاب توجهات الطبقة العاملة، لكي تشارك المنظمة في النضال الوطني مع التمسك بالمواقف المتسقة مع مبادئ الحركة العمالية، والقيام بنشاط محدد يتمشى مع الصيغة البروليتارية الدولية. وقد بدأنا في تنفيذ ذلك النشاط مع المتمردين اليونانيين المعسكرين في مصر أثناء الحرب العالمية الثانية.

زاول اليونانيون دائما في مصر نشاطا سياسيا: بعد أن ساهموا في تنظيم الحركة النقابية في مطلع القرن، أنشؤا، وحافظوا على استمرار نشاطهم كقسم يوناني شيوعي في مصر. وعندما احتل الألمان اليونان في ١٩٤١، صارت مصر ملجأ احتمى به ملك اليونان، وحكومته (وقبل عام من وفاة ميتاكيس في ١٩٤٠، الذي تربع على رأس السلطة منذ عام ١٩٣٦ والمنافس لموسوليني، اتخذ موقفا مدافعا عن قضية الحلفاء). واندلع الصراع من أجل السلطة بين المقاومة الجماهيرية المسلحة التي يقودها الشيوعيون (إيلاس)، وبين الذين يسيطرون على الأجهزة (الوزارات، والقوات العسكرية) وهم الذين أعادوا تنظيم أنفسهم في المنفى، بمساعدة الإنجليز (ولم يمنع ذلك من ظهور المنافسات بين المجموعات المختلفة داخل هذه الأجهزة نفسها).

وكانت منظمة (إيلاس) الذراع المسلح للجبهة الوطنية لتحرير(اليونان) الممثلة في القاهرة بلوائين من الجيش. واشترك اللواء الأول المكون من الشباب المتطوع في معركة العلمين جنباً إلى جنب مع القوات البريطانية.

وتمرد هؤلاء الشباب أنفسهم بعد إلقاء القبض على ضباطهم الموالين لميتاكس، مطالبين بالالتحاق بصفوف المقاومة داخل اليونان المحتل (أراد الإنجليز إرسالهم للقتال على الجبهة الإيطالية).

حوصروا لمدة أسبوعين بواسطة الدبابات، والمدرعات البريطانية في منطقة عسكرية في وسط الصحراء الغربية، وقام الزملاء بتوفير احتياجاتهم ليلاً (هنري، ودافيد نعوم، وجو ماتالون، وتحسين المصري ...)، حاملين إليهم المؤن من مزرعة الأسرة التي استخدمها كل من روزيت وهنري لتخزين المواد الغذائية.

وانتشرت الشائعات بين الجنود في المعسكر... وكان غرضها التخلص من هؤلاء المتمردين، (وهذا مألوف في مثل هذه الحالات).. بأن الدبابات البريطانية ستنسحب عندما يخيم الظلام: ومن نجا من المذبحة ووصل إلى القاهرة أعدت له المخابئ. واشترك في إعدادها جميع الزملاء. وأقام روبرت براونينغ وكان ضابطا في الجيش البريطاني في منزل هنري وروزيت (شارع عبد الخالق ثروت) وكان وجوده مفيدا بل ثمينا للغاية أثناء تنفيذ عمليات النقل المفاجئة بفضل زيه العسكري. أما باقي تفاصيل هذه الحقبة فتوجد في كتب التاريخ: اعتقل المتمردون، ومنهم من عناصر القوات البحرية أيضا. ووجهت الدبابات البريطانية مدافعها عشية تحرير أثينا في ديسمبر ١٩٤٤ ضد المقاومين في الداخل الذين لم يسلموا أسلحتهم. ولم يتوقف الشعب اليوناني عن سداد ثمن مقاومته.

وأحيا "ستراتيس تسيركاس" في اليونان، وهو أصلاً من الاسكندرية، في رواية رائعة[٧٨] ذكرى مأساة ومصير شعبه ...؛ وفي مكان ما في جنيف تتولى الأختان جروثير، منذ زمن بعيد، تقديم المساعدات لأسر المطاردين اليونانيين[٧٩]. وفي باريس قدم هنري مرة أخرى المساعدة لعناصر من المقاومة اليونانية المناهضة للفاشية حتى سقوط (نظام العسكر)، واغتيل هنري بعد ذلك دون أن تتاح له فرصة رؤية زملاءه اليونانيين مرة أخرى[٨٠] ... وهم الذين صنفوه مع ذلك واعتبروه (تروتيسكيا) !

عندما تمرد اللواء الأول، كانت الحركة المصرية للتحرر الوطني (ح. م) مجرد مجموعة صغيرة متجانسة ... لم يخطر ببال أحد أن يناقش طلب مساعدة الزملاء اليونانيين ... اعتبره البعض أمراً يتعارض مع جهود الدعم الواجب تقديمها للحلفاء[٨١]. وبسرعة تزايد عدد الأعضاء، ونظمت الأقسام تبعا للخلفية الاجتماعية للأعضاء: أقسام العمال، والقوات المسلحة، والأحياء الفقيرة، والطلبة (بل حتى قسم لطلبة الأزهر)،

---

78 مدن منجرفة، دار سوى، ١٩٧١

79 استمروا في تقديم المساعدة لأسر المسجونين السياسيين في مصر، وفي اليونان وفي الجزائر حتى وفاقمن.

80 وقد دعي للحضور مع زوجته إلى اليونان، واستعد للسفر.

81 وكان ذلك موقف مجموعة إيسكرا، كما يذكر هنري ذلك في مذكراته التي كتبها في مدينة دين الفرنسية.

وللمثقفين وفلاحين، وسودانيين، ونوبيين ... وأيضا أجانب(أغلبهم من الفرنسيين)، واستطعنا بعد ذلك أن نتحدث عن حركة حقيقية عندما أنشئت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو)، وهذا بعد الاندماج مع إيسكرا، وتحرير الشعب، وغيرها من التنظيمات التي دعمت النشاط في صفوف الجيش، والنساء، والمثقفين والطلبة (شهدي عطية الذي قتل في السجن، وعبد المنعم الجبيلي ... مستقبلاً... الباحث في مركز جوليو كوري ومسئول عن البحوث النووية في مصر ووزير البحث العلمي سابقا واللذان جاءا من إيسكرا، مع جريدة الجماهير).

وكان هذا الاندماج نتيجة للعمل المشترك داخل اللجنة الوطنية للطلبة والعمال (وردد هنري أنه من الأفضل عكس نسبة تكوين عناصر هذه اللجنة). وتجمع من ناحية، الطلبة الشيوعيون في الحركة المصرية للتحرر الوطني، وإيسكرا والوفد، ووطنيون من الحزب الذي أنشأه مصطفى كامل، وأزهريون وإخوان مسلمون، و تجمع من ناحية العمال من كان يمثل نقابات النسيج في شبرا الخيمة (ولا سيّما محمد شطا... هذا المناضل الفذ، الذي يبدي هنري في كتاباته إعجابه الشديد بكفاءته وشجاعته السياسية)، بل جمعت العاملين في خطوط الترام في القاهرة، وعمال المطبعة الوطنية ... وكان هناك أيضاً ممثلات لرابطة النساء (رابطة العاملات المصريات)، ومنهن حكمت الغزالي المناضلة الشيوعية، والبطلة الشعبية. وساهم نشاط اللجنة في جلاء القوات البريطانية عن المدن المصرية. وكان هذا حدثا عظيما. دفع ثمنه غالياً.

وأعلنت مصر، في نهاية المطاف، الحرب على ألمانيا، وأفرد لها فيما بعد مقعداً في الأمم المتحدة. وظلت قضية إعادة التفاوض بشأن معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا قضية معلقة. واعترض بشدة على اقتراح حكومة النقراشي باشا[82]، بالإبقاء على حلف عسكري فيما بين البلدين بتشجيع من الوفد، ودعم من جريدته اليومية اليسارية (جريدة الوفد المصري)، واختلط كل ذلك بمطالب سوق العمل، المتخوف بسبب عدم وجود برامج إصلاحية، بينما بلغ عدد العاطلين في نهاية الحرب ما بين ٢٥٠ ألف إلى ٣٠٠ ألف من عمال قطاع الخدمات المقدمة لقوات الحلفاء، ومرة أخرى تتعرض الصناعات المحلية إلى منافسة البضائع الأجنبية. وحدثت المأساة بعد أن ثارت المشاعر الوطنية، والمطالبات الاجتماعية: فتحت قوات الشرطة في ٩ فبراير ١٩٤٦ كوبري عباس (يربط بين الجيزة ووسط المدينة) لمنع المتظاهرين من الوصول إلى قصر عابدين (لرفع عريضة شكوى إلى الملك يطالبون فيها بجلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان) !

---

82 من المؤسسين لحزب الوفد، انفصل عنه ليكون مجموعة السعديين.

تمهيد

كل شخص حر في اختيار مساره. وفي حالتي ... اخترت الشيوعية دون أن تكون هناك رغبة في طرح هذا الخيار للتساؤل مرة أخرى. غير أني لم أختر عالم القرن العشرين ولا مجتمعاته ولا أوساطه التي عشت فيها مضطرة ... وكل ما حاولت عمله هو التأقلم مع متطلبات الطريق الذي اخترت السير فيه... وهكذا ناضلت في مصر وفرنسا في منظمات سرية تكافح من أجل التحرر من الاحتلال أو من قبضة الاستعمار الأجنبي. ودون أن أشعر بخيبة أو إحباط : كان الانضباط الشديد والنشاط السري يناسبني تماماً ... وكان الأمر مختلفاً في الجزائر ... كنا نعيش في ذلك الوقت في عصر خارق ...عصر الاعمار الوطني, في مستعمرة قديمة تحررت حديثاً. وانضم متطوعون جاءوا من ميادين معارك النضال المختلفة من أجل مساندة حركة التحرير الوطني الجزائري وليبذلوا جهدا لبناء البلاد التي خربتها الحرب.

البعض اكتسب نفس الحقوق ... حق المواطنة الجزائرية(الجنسية) دون اعتبار لأصولهم. تنازلت عن قبول هذا الشرف من حيث المبدأ: لقد نشطت كمناضلة شيوعية أساند نضال تحرير شعب يرزح تحت سيطرة استعمارية، وكنت متمسكة بأن أظل مصرية. ودون شعور بأي مركب نقص, فلم يكن مرتبي الشهري يزيد عن مستوى المرتبات المحلية الأخرى.

وحصلت في هذه الفترة على تقدير خاص من الرئيسين أحمد بن بيللا وعبد العزيز بو تفليقة ... واعترف بتقديري الكبير للجزائر التي عرفت تماماً كيف تشرف المناضلين الذين ساهموا في تحريرها، ومنهم زميلنا هنري كوربيل.

اندمجت لدى عودتي إلى أوروبا في مطلع الثمانينات في النشاط الدولي الذي كان دائراً في ذلك الحين بهدف بناء دولة فلسطينية تقوم إلى جانب دولة إسرائيل. واستمر ذلك حتى اتفاقات أوسلو . ومنذ هذا الوقت ساهمت في خلق وعمل رابطة (ذكرى, وحقائق, وعدالة... حول الاغتيالات السياسية في فرنسا) ومقرها في باريس, وهي محصلة دائرة حوار جامعي نظمته (باسم مجموعة كوربيل) مع "رينيه جاليسو" عن(معهد المغرب

ولم يكن هذا هو الجسر الأول الذي يرفع ... ولا أول مرة يفتح فيها كوبري عباس ليستعمل كأداة اغتيال جماعي: مصر المكتظة بالسكان البؤساء..سقط عددا من الضحايا بلغ ٨٣ من بين قتيل وجريح وهو عدد قلما يثير مشاعر أو ردود فعل قوية... وإنما الأمر اختلف هذه المرة ... فقد تعلق بطلبة جامعة فؤاد الأول (اليوم جامعة القاهرة)، ومنهم منّ أبناء من في السلطة، أدت هذه الفضيحة إلى سقوط الوزارة. وخلفت وزارة النقراشي باشا وزارة إسماعيل صدقي باشا[٨٤]، وهو الرجل الذي ألغى دستور ١٩٢٣ ولم يتردد في استخدام أساليب متشددة (للمحافظة على النظام العام) بناء على طلب الملك. وهنا تشكلت لجنة الطلبة والعمال (كانت في طور التكوين قبل ٩ فبراير ... هذا ما قاله هنري).

وأفضى نشاط الشيوعيين المعروف في هذه اللجنة ... إلى الاحتفال الوطني بيوم (الجلاء ووحدة وادي النيل) في ٢١ فبراير ١٩٤٦، ويحتفل به اليوم(كيوم عالمي للنضال ضد الإمبريالية) وحدث في الهند أيضاً في نفس اليوم تحركا مشابها أفضى إلى استقلال المستعمرة عام ١٩٤٧. وقمع الإنجليز بقسوة مظاهرات القاهرة (٢٣ قتيل و١٢١ جريح)، وامتدت المظاهرات إلى مدينة الإسكندرية في٤ مارس (٢٨ قتيل و٣٤٢ جريح)، وأضرب ٢٥ ألف عامل عن العمل في المنطقة الصناعية في المحلة الكبرى ... وأعلن أتلي في ٧ مايو في مجلس العموم البريطاني أن المدن المصرية سوف يتم الجلاء عنها.

لم أتابع نشاط اللجنة، ولسبب واضح ... كان المناضلون غير المعنيون مباشرة قد منعوا من الاشتراك في المظاهرة. إلا أني لا أستطيع أن أقاوم تأثير التجمعات السياسية: ولا شك أن ١٠٠ ألف شاب من الذين ساروا في هذه المظاهرة في مدينة القاهرة (مظاهرة سلمية وبنظام) كانوا يحملون نفس المشاعر الأخوية العارمة التي شعر بها من سار من الشباب في مظاهرات ١٩٦٨في باريس. ومن المشاهد المألوفة للمظاهرات في مصر: حمل الذي يهتف بالشعارات على الأكتاف ويردد من بعده المتظاهرون. تقليد غير عادي يطير بك إلى أعلى. وعندما وصلنا إلى ميدان الإسماعيلية، تصدت أرتال الدبابات التي خرجت من الثكنات البريطانية للموجة الأولى من المتظاهرين في منطقة قصر النيل ... وتطلق سيارة مدرعة النار على جموع الشباب الذين استشاطوا غضباً، وهاجموا السيارات المصفحة وهم عزل من السلاح.

---

83 ٢٠ مليون تبدو قليلة بالمقارنة بــ ٧٠مليون (أو أكثر) حالياً، وكان ذلك قبـل الإصـلاح الزراعـي، والسد العالي، وصناعة الحديد والصلب، شركة قناة السويس، والهجرة إلى بلاد النفط العربية.

84 رفيق سعد زغلول عين عدة مرات وزيراً.

كنت حاضرة في الجزء الأول من هذه المأساة عندما وصلت الجموع إلى الميدان عن طريق شارع قصر النيل. كنت بطيئة الحركة... وصلت إلى نهاية فترة حملي، ولن أستطيع التحرك بسرعة لا سيّما إذا اضطررت إلى الركض (ولدت بعد ذلك بشهر يا نيفين)، وعدت في أعقابي لكي أخبر هنري الذي كان ينتظرني مع روثي، في مقر الصداقة الفرنسية. كان لهجوم الشباب العزل من السلاح على الدبابات سببا دفعني إلى تصورات خيالية ثورية ! تأثرت كثيراً، وأصابني الاضطراب عندما وقع الصدام في الجامعة بين الوفديين والشيوعيين ضد الإخوان المسلمين (قال هنري أن هؤلاء انسحبوا من اللجنة قبل يوم ٢١ فبراير، وبناء على ما قاله شريف[85]، عضو قيادة هذه اللجنة، اعترض الإخوان على هذه الحركة وساندوا الخطوات التي هدفت إلى إيجاد حل وسط مع الإنجليز أثناء وجود وزارة صدقي باشا). وكان الهمس يدور حول نشاط الإخوان المسلمين للتأثير على الملك بغرض استبدال الأحزاب بتجمع واحد يهدف إلى إعادة نظام الخلافة لمصلحة مصر (والملك) وسيكشف التاريخ الحقيقة يوما ما .

وكما أسلفنا... وعد الإنجليز بالجلاء عن المدن. وجرى البحث عن كبش فداء. حدثت سلسلة من الاعتقالات في يوليو ١٩٤٦ مع المصادرة وإلقاء القبض على المناضلين في المدن وفي مجمعات الغزل والنسيج، علامة أكيدة، ومؤشر على توتر أعصاب السلطة أمام التطورات التي أحدثتها الحركة، ولكن أيضاً كنتيجة للفشل والإخفاق الذي أصاب الحركة التي كشفت بعد انتهاء المرحلة الأولى، أنها لم تكن لديها الخبرة الضرورية لدعم المواقع المكتسبة. وألقي القبض على هنري، وأطلق سراحه، ولكن وضع تحت المراقبة الإدارية (وفي الفقرات القصيرة من ذكرياته المدونة حول علاقات التفاهم التي أقامها في ذلك الوقت مع الجندي الذي عهد إليه بمراقبته، إنما تكشف عن الصور التي عكست أوضاع مصر في ذلك الحين).

جرى الحديث عن حبك مؤامرة، وهدد بإصدار أحكام بالأشغال الشاقة، ألقي القبض على المثقفين، بمن فيهم المثقفين من غير الشيوعيين (سلامة موسى، ورشدي صالح). استقالت الحكومة في ديسمبر : وانتشر التوتر مرة أخرى بظهور مشروع صدقي – بيفن الذي يشير ضمناً إلى احتمال مشاركة مصر في حلف دفاعي مع بريطانيا، على

---

85 أصبح حتاته، الذي كان طالبا في السنوات النهائية في كلية الطب فيما بعد "محترفاً ثورياً"، وكان أبوه الذي تزوج من إنجليزية ممثلاً لهذا الجيل الذي امتلك الأراضي مع ممارسته مهنة أو وظيفة رسمية (سأحدثكم عنه فيما بعد لدوره في اللجنة، وقد ذكره كتاب وولتر لاكور: بعنوان الشيوعية والقومية في الشرق الأوسط، لندن ١٩٥٦).

أن يترك لها الجبل على الغارب في السودان. وفي خضم كل هذه الأحداث وفي يونيه ١٩٤٧ تأسست الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني.

وفي فترة المناقشات التي جرت حول الوحدة نقل عثمان، مرة أخرى ... وهذه المرة إلى الحدود المصرية الفلسطينية (في العريش). تقابلت كثيراً مع هنري قبل ذلك (كانت الاجتماعات تعقد في نادي الضباط في الزمالك، حيث كنت أصطحبك يا نيفين في الصباح لتلعبي في الهواء المنعش): واشتد اهتمامه بعمل الضباط، ودربني على مهمة (حلقة الربط). وتعرفت في ذلك الوقت على أحمد حمروش... أصبح فيما بعد من (الضباط الأحرار)، وكنت أقوم بقيادة السيارة في تجوله، وعرفني بحي شبرا الخيمة، شمال العاصمة، منطقة كانت في السابق منطقة زراعية، أصبحت فيما بعد مركزاً صناعيـــاً.

العريش بالنسبة لنا تجربة جديدة: نظمنا إرسال الكتب الماركسية بالعربية سراً إلى القاهرة وكان الزملاء الفلسطينيون يسلموننا إياها على الحدود. بعد ذلك يسهل أحد وكلاء النيابة المتعاطفين[86] المرور (تجدين الصور التي أخذت معه، يا نيفين فيما يشبه حمام سباحة مملوء بالمياه المتجمعة من أحد السدود... كنا نسبح فيها). بعبارة أخرى كنا نقوم بعملية تهريب الكتب، مما كان يعد في ذلك الوقت أكثر خطورة من الوقوع في قبضة السلطات بسبب تهريب تربة حشيش ، وكانت عملية تهريب البضائع عملية منتشرة في تلك المنطقة.

وحتى تبعدنا السلطات عن الحدود الفلسطينية نقل أبوكم إلى منطقة برج العرب . وعند مرورنا بالقاهرة علمنا من "بابا" أن البوليس السياسي قد (زار) المنزل للاستفسار عني (وبسبب قلقه قام بإحراق جميع الوثائق التي كانت موجودة في أحد الصناديق بما في ذلك متعلقاتي الشخصية!).

عارض الشيوعيون المناهضون للصهيونية، من حيث المبدأ، الحرب التي خاضتها البلاد العربية ضد إقامة الدولة اليهودية في فلسطين. اعتبروا أن المشروع يحرف مسار النضال الوطني. وكان للوطنيين نفس الموقف. ارتضوا بتحليلهم الذي يفيد بأن الملك لم يعلن في خطاب العرش قطع العلاقات مع الإنجليز (١٣ نوفمبر)، وأن المسألة الوطنية لم تحقق نجاحا في الأمم المتحدة (نهاية سبتمبر). وانتظم الإخوان

---

86 جمال العطيفي توفي الآن.

المسلمون في وحدات مسلحة، وكانوا الوحيدين الذين أيدوا مشروع الحرب وتطوعوا للقتال (ورغم ذلك اعتقلوا بعدما قاتلوا بشجاعة...).

وكان عثمان بطبيعة الحال ضد هذه الحرب. وتحمل جميع المخاطر الناجمة عن هذا الموقف. ومن أعلى شرفة (فندقنا الخاص) أستمع له يقدم شروحه حول طبيعة هذه الحرب على جنوده النوبيين (وهم أيضاً أقل اهتماماً بها مقارنة بالجنود الفلاحين من الدلتا). كنا نقطن في أحد البيوت المبنية من الحجر، وتمتاز في الصيف بهوائها المنعش، مكونة من طابق واحد، وشرفة، وباحة، وحديقة كنا نزرع فيها الخضراوات، ونربي الماعز، مع صعوبة التزود بالماء الذي كنا نرفعه من الآبار[87] عروض مسرحية حقيقية في الهواء الطلق، في باحة مضاءة تماما، يؤديها فنان واحد، وتنتهي ... بعاصفة من التصفيق!

كان أبوكم إنسان عجيب في عصر عجيب ... عصر حدتو الملحمـــي!

ومنذ نشوء الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني حتى الحرب ضد إسرائيل، تزايد عدد أعضاء المنظمة بشكل ملفت للنظر. لا سيّما بين صفوف عمال النسيج في شبرا الخيمة، التي عكست شعاراتها المرفوعة أثناء الإضرابات العلاقة الوثيقة بين المطالب الاجتماعية الاقتصادية والمسألة الوطنية. وارتبطت النقابة التي تطورت على بعد بضعة كيلومترات من المركز داخل مجمعات الغزل والنسيج في الدلتا (المحلة الكبرى) وعلى مشارف الإسكندرية (كفر الدوار)، ودمياط ... وكونت قطاعاً متقدماً لا يستند إلى القطاع الخاص الأجنبي (مثل مواصلات القاهرة، وشركة قناة السويس، وشركة شل بتروليوم، وشركة التبغ كوترللي في الجيزة). ووقفت المجموعات السياسية الوطنية جانباً، لا سيّما الوفد، الذي ارتبطت مصالحه بمجموعة بنك مصر وتطور داخل إطار صناعة المنسوجات. واعترض الإخوان المسلمون على ممارسة الإضرابات، باعتبار أن الإسلام (هو الحل).

وكان نشاط الشيوعيين نشاطاً مبتكراً: أدخل روح المبادرة في وسط (كانت اليد العاملة المستخدمة في قطاع صناعة المنسوجات غير ماهرة) ارتبط بنشأة قروية، وألغيت العلاقات شبه الإقطاعية. وكثرت الهجمات ضد الملاك الكبار في الريف. واجتمعت نقابات النسيج في كل من القاهرة في سبتمبر ١٩٤٧ (يجب ذكر هذا التاريخ)، والدلتاء، والإسكندرية ودمياط لمناقشة إقامة اتحاد عام. وأثرت حركة الإضراب (بلغ عدد

---

87 عملية صعبة للغاية عند غسيل الحفاضات التي تستخدم للأطفال، حيث يجري التخلص منها اليوم.

المشتركين ٣٠ ألف في شبرا الخيمة) على قطاعات صناعية متقدمة، وعلى وجه الخصوص الشركة ... التي ظلت بلجيكية... لمواصلات الترام (وترأس نقابتها البرنس عباس حليم[88]. الذي أراد أن ينشأ حزباً عمالياً على الطريقة البريطانية). وبفضل نشاط الحركة اعد قانون يلزم الشركات الأجنبية بتعيين ٩٠ في المائة من عمالها من المصريين، وأصبح مجموع المرتبات والأجور المصرية يمثل نسبة ٨٠ في المائة من المجموع الكلي.

وجذبت الحركة الموظفين إليها أيضاً، بل حدث في إبريل ١٩٤٨ في الإسكندرية، أن أضرب أفراد الشرطة. واستمر إضرابهم طوال اليوم.

وصلنا الاسكندرية من برج العرب في عربة نقل عسكرية، واخترنا أن نزور الجدة في ذلك اليوم، وكالمعتاد نزلت في فندق سيسيل. وقد تعجبنا من هذه المدينة التي أصبحت مهجورة، دون شرطة مرور (لم تستخدم بعد الإشارات الضوئية). واستعانت السلطة بالجيش. وطار صوابها: الشرطة تستخدم سلاح الإضراب! ويحتل الفلاحون الأراضي ويهددون الملاك! وأعلنت حالة الطوارئ، وطبقت قوانين الطوارئ العسكرية وفتح باب معسكرات الاعتقال على مصراعيه، وأعلنت الحرب على الدولة العبرية الجديدة ... وتوقف المد الثوري. واستدعي أبوكم إلى الجبهة... كالمعتاد.

---

88 شخصية طريفة في هذا الوسط المنحل، وذو شعبية وسط العمال والأوساط الرياضية، كانت تقدره الجدة الشركسية ونجحت في أن تحبيني فيه.